الجملة العربية
بناؤها وإيحاؤها

تأليف

دكتور / إبراهيم صلاح الهدهد

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ / ١٩٩٦م

دار الإتحاد التعاونى للطباعة والنشر
ت : ٢٩٥٦٨١٠

رقم الإيداع ٩٦ / ١٤١١٦
١٥ / ١٢ / ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــــديم

أحمدك اللهم حمدا يوافى نعمك ، ويكافىء مزيدك ، وأسألك أن ترزقنى عملا وقولا خالصين لوجهك الكريم ، اللهم اجعل خير أعمالى خواتيمها ، وخير أيامى يوم أن ألقاك ، وارزقنا فتحا من عندك نفهم به أسرار كلامك وبعد ٠

فإن مما يقف الإنسان على إعجاز القرآن الكريم ، هو استكناه أسرار الجمل وأحوال الكلام فى لغة الأدباء والشعراء ، وإن النظر فى تراكيب الكلام ، وأحوال صياغته من أعظم أبواب الفقه ٠

هذا وبلاغة القدماء تلاقى اليوم هجمة مسعورة ترميها بالتخلف والعقم وتلهث هذه الهجمة وراء مايسمى بالأسلوبية والبنائية والحداثية ، وهى معارف قد ماتت فى بيئتها ، وغدت أثرا بعد عين ، وقد تجاوزها مبدعوها فى الأمم الأعجمية إلى غيرها ، إلا أنها تلقى كل احتفال عند من يفتنون من أمتنا بكل ما هو غربى ، فهم يحبون التشدق بمثل آلية النص ، وبنية النص السردى ، وحداثة أبى حيان ، وأبو حيان والتعامل مع الحداثة ، والتوحيدى رائد الألسنية ، والتعددية والثنائية ، والاستفهام المتفجر ، والتخزين النصى والتداول النصى وغير ذلك كثير، مما إذا قرأته لم تجد شيئا ، بالرغم من فتنة العنوانات وإغراءاتها ، مما يجعل عندك ظمأ إلى النهل مما تحتها ولا تجد فى نهاية رحلتك إلا سرابا حسبته ماء ثم ضاع تعبك وصار بددا

ومن البدهى أن تستخرج النظريات من ذات الشىء لا من خارجه ، وهذه معارف نبتت فى أحضان لغات أخرى ٠ هذه اللغات لها طبيعتها ، كما أن للغة العربية طبيعتها ٠

فى آداب الأمم الأخرى ترى لغة القرن الخامس الميلادى غير لغة القرن العاشر وهكذا ، تموت ألفاظ وتراكيب ،وتبتدع ألفاظ وتراكيب ولغتنا ليست كذلك ، وإنما هى ثابتة ثبوت عقيدة الإسلام ، وقد استمد علماء الإسلام معارفهم من الكتاب العزيز ، حسبما تقتضيه حاجة الأمة إلى فقه الكتاب الحكيم، وقل مثل ذلك فى معارفهم اللغوية ، وإذا عرفت ذلك تبين لك فظاعة الخطأ فى تناول الكتاب العزيز على أنه خطاب دينى والقول معه إهدار السياق الزمنى فى الخطاب الدينى ، والعقد بين العصر الذى نزل فيه الكتاب العزيز وبين فقهه ، بحيث لا يتجاوز الزمن الذى نزل فيه ، وما إلى ذلك مما شاع على الساحة وكتب فى مجلات ينفق عليها من دماء الأمة ، وكأنها أمة تقتل نفسها بيديها ولا حول ولا قوة إلا بالله ٠

وذلك أمر شائع تقرؤه فى مجلة فصول ومجلة إبداع ومجلة القاهرة ، وكلها تمول -كما قلت -من دماء الأمة يقرأ التاريخ بعيون ماركسية ، والأدب بعيون غربية ، والقرآن بعيون علمانية ، ويهاجم التراث بما لم تهاجمنا به أمة أعجمية ، وكأن المستشرقين نفثوا فى صدور المستغربين من أبناء الأمة ، فغدوا يكرهون كل ما هو إسلامى ، ويحاربون كل ما هو عربى تأمل هذه العنوانات ٠ مصادرة الفكر بعد معاوية – الكهنوت الأموى – عناصر الكهنوت العباسى، وهو فكر من لفظه الأزهر الشريف ، وتكالبت على احتضانه جهات أخرى ،وتأمل – المرأة البعد المفقود فى الخطاب الدينى المعاصر– وترى تحته ليا لنصوص الذكر الحكيم تقوية لهوى الكاتب ، دون نظر إلى علماء الإسلام فى فقه مثل هذا ٠

لا أريد أن أقف بك كثيرا عند هذا التكالب على علوم الإسلام والعربية وإنما أردت التنبيه فقط ، أما ألوان هذا الهجوم فهى الآن أكثر من أن تحصر ، وذلك مما ينفطر له الجبين ٠

هذا الكتاب يتناول جزءا من علم المعانى على هدى من تراث السلف ، إلا أن حبه لأسلافه لا يثنيه عن مناقشتهم فى بعض الآراء كلما اقتضى المقام مناقشة ، وهو يحاول إثراء الدرس البلاغى بإيراد شواهد كثيرة فى كل موضوع يتناوله ، تربية للذوق البلاغى ، وقد سميته (الجملة العربية - بناؤها وإيحاؤها) وهو يعنى باصطفاء الألفاظ ، وصياغتها تنكيرا وتعريفا وتقديما وتأخيرا ، وغير ذلك مما يقتضيه المقام ، ويستدعيه الحال ، ولا يفوتنى التنبيه على ما يمكن أن توحى به الصياغة ويغمغم به البناء فى كثير من الشواهد ، وكيف كان العرب يصطفون كلماتهم ، وكيف كانوا ينزلون أحوال الكلام على أحوال المخاطبين ، والله أسأل أن يتقبل هذا العمل بالقبول إنه نعم المولى ونعم النصير

د. إبراهيم صلاح الهدهد

تمهيـــــد

اهتم العرب بلغتهم اهتماما بالغا ، وفاضلوا بين الشعراء والخطباء وقدموا من برز منهم فى القول ، وتواصفوا الكلام البليغ ونقدوه ٠ تأمل قول الحارث بن كلده يصف كلام العرب وحسن منطقهم "يمرق من أفواههم الكلام مروق السهم من نبعة الرام "(١) يكشف بذلك عن حسن الإصابة، وعن إصابة الكلام المحز وعن تطبيقه المفصل ، وعن مطابقته مقتضى الحال، وأنه إذا أصاب موقعا من النفس أشفى ، كما يكشف عن سلاسته ،بل إن المنطق البليغ الحسن عندهم أحلى من جنى النحل ، و ألذ من أبكار الكرم ، كما قال جران العَوْد :

فِنلنا سِقَاطًا من حديثٍ كأنه جنى النحْلِ أو أبكارُ كرمٍ يُقَطَّفُ(٢)

وهو يريد وصف حديث النساء إذا ساقطن الحديث قليلاً قليلا وقد نقل لنا شيخ البيان الجاحظ ملخصا موجزا فى تمييز العرب طبقات الكلام وتفاوت المتكلمين فقال " :" وكما لا ينبغي أن يكون الكلام عاميا ، وساقطا سوقيا ، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا ، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشى من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى تأمل كلمة الرجل فإن لكل مقام مقالا : وإن لكل حالة لبوسها ، وهو كلام فى حاق مطابقة الكلام مقتضى الحال ﴾ ثم يقول : وكلام الناس فى طبقات كما أن الناس أنفسهم فى طبقات ، فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسميج ، والخفيف والثقيل ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا(٣)٠

وترى الجاهليين يلقبون شعراءهم وبعض القصائد بألقاب عامة تصور مكانتهم ، فيلقبون طفيلا الغنوى بالمحبر لحسن شعره ، وعوف بن سعد بالمـــرقش

---

١) البيان والتبين ١٧١/١

٢) السابق ٢٨١/١

٣) السابق ١٤٤/١، ١٤٥.

الأكبر ، وعمرو بن حرملة بالمرقش الأصغر، يكشفون بذلك عن مدى اهتمام هذين الشاعرين بتحسين شعرهما وتزيينه . ويلقبون قصيدة سويد بن أبى كاهل اليشكرى التى مطلعها :

بسـطت رابعـةُ الحبل لنا   فوصلنا الحبلَ منها ما اتَّسع

يلقبونها باليتيمة ، ويلقبون قصيدة حسان التى مطلعها :

أسألت رسمَ الدار أم لم تسأل   بين الجوابى فالبضيع فحومل

يلقبونها بالبتارة إيماء إلى أنها بترت المدائح .

وقد ذكروا " أن بعض شعراء تميم اجتمعوا فى مجلس شراب ، وكان بينهم الزبرقان بن بدر،والمخبل السعدى وعبدة بن الطيب ، وعمر وبن الأهتم ، وتذاكروا الشعر ، وادعى كل منهم أسبقيته فيه ، وتحاكموا فقال الحكم . أما عمروفشعره برود يمانية تُطوى وتنشر، وأما الزبرقان فكأنه رجل أتى جزورا قد نُحرت ، فأخذ من أطايبها وخلطه بغيره ، وأما المخبل السعدى فشعره شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده ، وأما عبدة فشعره كمزادة أحكم خرزها فليس يقطر منه شيء"(١)

وقد وضح شيخنا الدكتور أبو موسى أن وراء هذا التعميم دلالات محددة فقوله برود يمانية . . . تعنى أن فى شعر عمر و من التحسين والتنقيح ولباقة الصنعة وطرافة الخيال ، ما يجعله كالثياب اليمانية المزينة بالتصاوير الجميلة، ، تظهر الصنعة فى شعره ، فيكون كالبرود وهى منتشرة ، وتسكن هذه الصنعة فيكون الشعر كالبرود وهى مطوية .

أمـا الزبرقان فإن شعره يقع فيه الجيد البالغ ولكنه يخالطه أحيانا بعض الكدر ، كضعف فى الأسلوب ،أو التواء فى الخيال، أو غموض فى المعنى وهذا معنى قوله:أخذ من أطايبها وخلطه بغيره ، وأما المخبل فشعره. لقوته وحدتـــه

---

١) عن خصائص التراكيب ١٧

وانفعاله الممتلئ كأنه شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده ، وأما عبدة فإن شعره فيه إحكام فى الصنعة وتماسك فى البناء وقوة فى التركيب ، وهو فى هذا مثل مزادة أحكم خرزها ٠(١)

وقد صنعت كتب فى تبيان طبقات الشعراء ومراتبهم كطبقات ابن سلام فحولة الشعراء للأصمعى وطبقات الشعراء لابن المعتز وتنتل، هذه الكتب أحكاما على الشعراء يقول ابن سلام : أول من قصد القصائد وذكر الوقائع المهلهل ابن ربيعه التغلبى فى قتل أخيه كليب وائل ، قتله بنوشيبان ، وكان اسم المهلهل عديا ، و إنما سمى مهلهلا لهلهلة شعره كهلهلة الثوب ،وهو اضطرابه واختلافه(٢)، وقد فسره ابن الأعرابى على غير هذا الوجه قال : و إنما سمى مهلهلا ،لأنه هلهل الشعر ، يعنى سلسل بناءه ، كما يقال : ثوب مهلهل إذا كان خفيفا، (٣)، والذي أوله ابن الأعرابي هو الأنسب مع ما ذكره ابن سلام من بيان أوليته فى تقصيد القصائد، ومن ذلك قول الأصمعى : شعر لبيد كأنه طيلسان حبرى ، يعنى أنه جيد الصنعة وليست له حلاوة (٤)٠

وقد خالطت البلاغة تراث المسلمين فى كتب النقد واللغة والتفسير فكتب الجاحظ حشيت بمفاهيم بلاغية استقرت عند أهل الفن بمعناها ، وإن كانوا قد جددوا المصطلح تأمل كلامه عن العرب " وهم يمدحون الحذق والرفق والتخلص إلى حبات القلوب و إلى إصابة عيون المعاني ، ويقولون أصاب الهدف إذا أصاب الحق فى الجملة ، ويقولون قرطس فلان وأصاب القرطاس : إذا كان أجود إصابة من الأول فإن قالوا رمى فأصاب الغرة،وأصاب عين القرطاس فهو الذى ليس فوقة أحد ،ومن ذلك قولهم فلان يصيب الحز.ويصيب المفصل

١) خصائص التراكيب ١٧
٢) طبقات فحول الشعراء ١/٣٩
٣) راجع هامش طبقات فحول الشعراء ١/٣٩، والموشح ٧٤
٤) فحولة الشعراء للأصمعى ٢٨ .

ويضع الهناء مواضع النقب (١)

وهو كلام فى مراعاة المقام ، وقوة الحجة وتأثيرها فى القلوب ، وكشف عن درجات الكلام ومراتبه فى هذا المضمار ، والكلام -كما يقول نص الجاحظ - كالدواء ، فإذا أصاب موضع الشفاء عذب وحلى وامتدح وذلك قوله يضع الهناء مواضع النقب ٠

ويتحدث الجاحظ عن علائق الأنساب بين الكلام ، فيفرق بين أن تقرن بين المعنى وأخيه والمعنى وابن عمه ،كما يتحدث عن تنافر الكلام واستقباح العرب إياه ، ويذكر فى ذلك قول الشاعر ٠

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

وفى علائق الأنساب يورد قول الشاعر :

وبعض قريض القوم أبناء علة   يكد لسان الناطق المتحفظ

وقول الشاعر :

وشعر كبعر الكبش فرق بينه   لسان دعى فى القريض دخيل

ومجمل القول أن هذه الأمة عنيت ببلاغة الكلام عناية فائقة ،وفطرت على التمييز بين جيده ورديئه ،وجعلت الكلام طبقات والناس طبقات ، وفاضلوا بين الشعراء والخطباء، وكل ذلك على مقاييس ذوقية رائعة ، وإن كانت لاتخلو فى بعض منها من التعصب

أما مسائل البلاغة فقد تناثرت فى تراث الأئمة فى أحضان العلوم الأخرى التى قدر لها أن تسبقها فى التدوين تبعا لحاجة الأمة ، لأن هذه الأمة كانت تؤسس معارفها على ماتحتاج إليه الأمة ،وعلى ماتسوق إليه الضرورة ٠

---

١) البيان والتبيين ١/١٤٧ والمراد بالقرطاس الغرض الذى ينصب للرمى والغرة من كل شىء أوله ، والحز موضع الحز ، والمفصل ملتقى كل عظمين فى الجسد ، والنقب جمع نقبه ، وهى الجرب ، والهناء : القطران

سيبويه (ت - ١٨٠هـ)

يتناول سيبويه - رحمه الله - المجاز العقلي في قوله : " وما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى : واسأل القرية التي كنا فيها ، والعير التي أقبلنا فيها " ﴿يوسف/١٠﴾ إنما يريد أهل القرية ، فاختصر وعمل الفعل في القرية ، كما كان عاملا في الأصل ، لو كان هاهنا ، ومثله " بل مكر الليل والنهار " . . . ومثل ذلك من كلامهم: بنو فلان تطؤهم الطريق ، و إنما يطؤهم أهل الطريق (١)، وقد خرج على ذلك أيضا قول الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت ... فإنما هي إقبال وإدبار

قال:فجعلها الإقبال والإدبار،مجاز على سعة الكلام ، كقولك: نهارك صائم وليلك قائم(٢)،وما ذكره سيبويه من شواهد المجاز العقلي وتأويله يتفق وتأويلات البلاغيين

الفراء (ت ٢٠٧هـ)

لم يخل كتاب الفراء (معاني القرآن) من اللفتات البلاغية وهو لم يذكرها بالاسم الذي اصطلح عليه البلاغيون بعد ، بيد أنه أولها بما أوله البلاغيون من بعد ومن دلائل ذلك وقفته عند الاستفهام في قوله تعالى : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم)-(البقرة /٧٦) قال : " على وجه التعجب والتوبيخ لاعلى الاستفهام المحض أي ويحكم كيف تكفرون (٣)

ومثل ذلك وقفته عند قوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) ﴿البقرة/١٦﴾ فقد عرض عندها سؤالا"ربما قال القائل:كيف تربح التجارة؟و إنما يربح الرجل في التجارة؟وذلك، من كلام العرب،ربح بيعك وخسر بيعك،فحسن القول بذلك لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة ، فعلم معناه

١) الكتاب ١/١٠٨-١٠٩

٢) الكتاب ١/١٦٨ .

٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣ .

ومثله من كلام العرب : هذا ليل قائم ،ومثله من كلام الله (فإذا عزم الأمر) وإنما العزيمة للرجال "(١) وهو كلام من صميم مسائل المجاز العقلى ، وقد تأول الشيخ الآية بما لم يخرج عنه تأويل البلاغيين لها بعد ، ومثل ذلك كثير فى تضاعيف كتابه - رحمه الله .

أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت : ٢١٣هـ)

و أبو عبيدة - رحمه الله -هو أبوعذرة فن البلاغة بكتابه الموسوم بمجاز القرآن ، وقد ذكروا أنه ألف هذا الكتاب بعد أن استقدمه الفضل بن الربيع وزير الرشيد من البصرة ، وجلس فى مجلسه فى بغداد فحضر إلى المجلس إبراهيم بن إسماعيل الكاتب ، فسأل إبراهيم أبا عبيدة عن قوله تعالى (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) ﴿ الصافات/٦٥ ﴾

و إنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله، وهذا لم يعرف . فقال أبو عبيدة : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرىء القيس:

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولما كان أمر الغول يهولهم أو عدوا به ، فاستحن الفضل ذلك ، واستحسنه السائل ، وأزمع أبو عبيدة عند ذلك اليوم أن يضع كتابا فى القرآن لمثل هذا وأشباهه(٢)

والمراد أن المشبه به ترسم له صورة فى كل ذهن بالقدر الذى يخيف صاحبه ، فعول القرآن الكريم فى التصوير على ما يكون به الخوف أكثر، وقد تناثرت مسائل البلاغة عند أبى عبيدة ،دون أن يطلق عليها المصطلحات التى ذكرها البلاغيون بعده،ومما يساق شاهدا لذلك توجيهه لقوله تعالى "هوالذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴿ يونس٦٧ ﴾

١) معانى القرآن ١/١١٥
٢) أنظر تاريخ البلاغة د. عبد العزيز عرفة ص ٣٧ .

" له مجازان أحد هما أن العرب وصفوا أشياء من كلامهم فى موضع الفاعل ، والمعنى أنه مفعول ، لأنه ظرف يفعل فيه غيره ، لأن النهار لا يبصر ، ولكنه يبصر فيه الذى ينظر ،وفى القرآن (فى عيشة راضية) و إنما يرضى بها الذى يعيش فيها(١) .

وحديثه هذا حديث عن المجاز العقلى ، وكشف عن علاقاته ، وذكر النظير مع النظير توضيحا وشرحا ، بيد أنه لم يفصح عن المسمى الذى استقر عند البلاغيين من بعد ذلك

وتابع العلماء من بعد ذلك فى تبيان وجوه البلاغة القرآنية خاصة من تناولوا قضيه الإعجاز، منهم أبو الحسن على بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦هـ) فقد وضع كتابا سماه " النكت فى إعجاز القرآن" وهى رسالة صغيرة ، غير أنها ضمت فى صحائفها علما وفيرا ، وقد قسم -رحمه الله- البلاغة عشرة أقسام وهى " الإيجاز ، والتشبيه، والاستعارة ،والتلاؤم ، والفواصل، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة وحسن البيان (٢)" وقد تناولها بالشرح والتفصيل " وكانت شواهده مادة للدارسين من بعده وكان تعريفه الاستعارة ، وتفريقه بينها وبين التشبيه كذلك . ومراجعة الأبواب التى درسها ، وخصوصا الاستعارة والتشبيه ،و الإيجاز والتلاؤم عند العسكرى والخفاجى وابن رشيق ، وابن أبى الأصبع تبين عناية هؤلاء الأعلام بجهوده، وإفادتهم منها ، وتكاد تكون آراؤه وشواهده وألفاظه من أبرز مافى هذه الأبواب فى كتبهم .

ومما تجدر الإشارة إليه أن تراث الرمانى البلاغى المبثوث فى كتب الذين جاء وأمن بعده كثير جدا حتى ليبدوا الرماني علما من الأعلام البارزين فى هذا العلم (٣) وقد عنى شيخنا الدكتور أبو موسى بتحليل هذه الرسالة وتبيان

---

١) مجاز القرآن ٢٧٩/١.
٢) راجع النكت ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٧٦.
٣) الإعجاز البلاغى د. أبو موسى ١٢٠.

مسائلها ، والكشف عن لالئها ودررها٠ ورسالة الخطابي (ت : ٣٨٨ هـ) المسماة بيان إعجاز القرآن "وكتاب الباقلانى (ت ٤٠٤) رحمه الله المسمى (إعجاز القرآن) وقد تكلم القاضى عبد الجبار فى قضية الإعجاز أيضا وخصص له الجزء السادس عشر من المغنى ، وكثير من العلماء تناولوا هذه القضية التى أثرت البحث البلاغى

وقد صنعت كتب فى النقد تناثرت فيها مسائل البلاغة أيضا من ذلك "عيار الشعر " لابن طباطبا العلوى ، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر (ت ٣٧٧هـ) فقد تناول فيه التشبيه والالتفات والمبالغة وغيرها من المسائل التى تدخل من أوسع الأبواب فى البحث البلاغى، ومن ذلك أيضا الموازنة للآمدى والوساطة للجرجانى ، والبلاغة للمبرد ، وغير ذلك كثير

ومن مصادر البلاغة أيضا كتاب " الصناعتين " لأبى هلال العسكرى (ت : ٣٩٥) وكذلك كتاب البديع " لابن المعتز)(ت ٢٩٦هـ)

ثم جاء علم البلاغة الإمام عبد القاهر(ت ٤٧١هـ) رحمه الله تعالى فكان شيخ البلاغة إذ ميز مسائل هذا الفن ،ورسم حدوده وضبط معالمه فى ذكاء ندر أن يرزقه أحد وقد ألف كتابيه (دلائل الإعجاز - أسرارا لبلاغة) وهما رافدا البلاغة العربية إلى يوم الناس هذا نظرية وذوقا ، وتناولا وعرضا ، ففرض بذلك أستاذيته على أهل العلم، وعلى جامعات العالم ، دون حاجة إلى استصدار قرار ، أو تلويح بموافقة ، بل إن البلاغيين جميعا عيال على الإمام عبد القاهر بكتابيه ،وقد عنى الشيخ فى كتابيه بتفصيل القواعد ، ورسم ضوابطها شافعا ذلك بإبصار لطائف الأساليب ورقائق اللغة ، وكان يضع القاعدة نتيجة التأمل فى نظام هذه اللغة الشريفة

وقد خلف من بعـــد الشيخ فريقان ، فريق اختط طريقة التقعيد وفريق

طبق بلاغة الشيخ بذوقه على أشرف كلام وأسمى بيان وهو كلام الله تعالى

أما الفريق الأول فهو يبدأ من فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦هـ) صاحب مفاتيح الغيب ، فقد ألف كتابه " نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز " ومؤلفه متكلم لذا تراه قد أخضع مسائل البلاغة لضوابط المنطق الصارمة والبلاغة بطبيعتها تأبى هذا التحديد الصارم ، إذ هى جارية على استنباط ما تحت الكلام ،وتسمع خفى همهمات النفس التى تشى بها تراكيب الكلمات، وما يجرى فيها من دقة النظم وانتقاء الألفاظ واصطفائها٠

وكذلك الإمام أبو يعقوب يوسف السكاكى (ت ٦٢٦هـ) الذى لخص ما قاله الأصحاب فى كتابه " مفتاح العلوم " وكان الرجل أمينا صادقا فيما كتب، فهو يقول : هذا رأى الأصحاب أو كما قال الأصحاب بأمانة علمية دقيقة، وكان المفتاح هذا أساسا لكتب كثيرة جاءت من بعده فقد ألف الخطيب كتابه تلخيص المفتاح وعلى التلخيص قامت الشروح ، وعلى الشروح قامت الحواشى والتقريرات والتجريدات

ففى التراث مختصر السعد التفتازانى على التلخيص ، وعروس الأفراح لبهاء الدين السبكى ، ومواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى بل إن الخطيب نفسه كتب الإيضاح لما رأى التلخيص موجزا ، والتفتازانى كتب المطول ٠

وهناك كتب كثيرة فى البلاغة العربية مثل "المثل السائر لابن الأثير (ت: ٦٣٧) وكتاب " التبيان فى علم البيان " لابن الزملكانى (ت: ٦٥١هـ) والمعيار فى علوم البلاغة) لعبد الوهاب الزنجانى (ت : ٦٥٤هـ) ،(بديع القرآن ، تحرير التحبير)كلاهما لابن أبى الأصبع (ت : ٦٥٤هـ) (الفلك الدائر على المثل السائر) لابن أبى الحديد (ت: ٦٥٥هـ) ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء) لحازم القرطاجنى (ت : ٦٨٤هـ) والمصباح " لبدر الدين بن مالك صاحب الألفية (ت : ٦٨٦هـ) و (مفتاح المفتاح) لقطب الدين الشيرازى٠: ٧١٠هـ)

و(مصباح المصباح) لمحمد بن النحوية (ت ٧١٨هـ) و(لطائف التبيان فى المعانى والبيان) لشرف الدين الطيبى (ت : ٧٤٣هـ) ومنها (مفتاح تلخيص المفتاح) لشمس الدين الخلخالى (ت : ٧٤٥هـ) ومنها (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز) ليحيى بن حمزة العلوى (ت : ٧٤٩هـ) ومنها (الفوائد الغياثية لعضد الدين الإيجى (ت: ٧٥٦هـ) ومنها شرح تلخيص القزوينى) لابن ناظر الجيش (ت: ٧٧٨هـ) و (شرح تلخيص المفتاح لمحمد البابرتى (ت: ٧٨٦هـ) و(شرح الفوائد الغياثية فى علوم البلاغة) لمحمد بن يوسف الكرمانى (ت:٧٨٦هـ) و (شرح تلخيص المفتاح) لشمس الدين القونوى (ت :٧٨٨هـ) و(شرح تلخيص المفتاح) لجلال الدين التبريزى (ت:٧٩٣هـ)و(إيضاح الإيضاح) للأقصرائى(ت: ٨٠٠هـ) ومن ذلك أيضا (مختصر التلخيص)(حاشية على شرح عروس الأفراح للسبكى) وثلاث حواش على المطول للتفتازانى) كل ذلك لعز الدين بن جماعة (ت : ٨١٩هـ) وغيرهم كثير ، غير أنهم جميعا كان يحجلون بقيد الإمام السكاكى٠

وكثير من الناس يعيبون هذه الحواشى والتقريرات ، ويرمون علم البلاغة بالعقم ، وهو خطب ترمى به معارف العربية جميعا ، لأن الذين يرمونها بذلك يتنكرون لكل ما هو عربى ، وذلك لأنهم لم يخبروا المعارف ، و إنما تناقلوا الطعن عليها ، ولاكت ألسنتهم هذه الكلمات لأنهم قد سمعوها من أساتذتهم دون تدبر لحقائق هذه الأحكام ٠

وهذه الحواشى والتقريرات إنما قامت على تحرير مسائل العلم وتحرير مسائل العلم هونصف العلم كما قال شيوخنا ،فكأنهم يريدون بهذا هدم نصف العلم

أما الطريق الآخر - ولا يغنى أحد هما عن الآخر فهو طريق التطبيق الذوقى ،وأول من طبق بلاغة الإمام عبد القاهر هو الإمام الزمخشرى - رحمه الله (ت : ٥٣٨هـ) ، بكتابه الكشاف ، على أشرف كلام ٠

ومبنى هذا التفسير على ما قال الفاضل بن عاشور على" تحليل التركيب،

وبيان خصائصه واعتبار إعجازه على المنهج الذى مهده الشيخ عبد القاهر(١) " غير أن مذهب الزمخشرى الاعتزالى جعل علماء أهل السنة يعزفون عنه ، ولم يطل ذلك كثيرا ، فسلطان العلم هو الذى فرض نفسه،"وأصبح كتابه عمدة الناس على اختلافهم بين مشايع له ومخالف ، وعلى وفرة مخالفيه وانقطاع مشايعيه ، يرجعون إليه على أنه نسيج وحده فى طريقته البلاغية الإعجازية ، وفى غوصه على دقائق المعانى ، وحسن إبرازها على طريقه علمية سائغة بتحليل التركيب ، وإبراز خصائصه واعتباراته (٢)٠

وقد أقبل أهل السنة على دراسته وشرحه وبناء بحوثهم عليه ، ثم كان لهذا الكتاب أبناء وأحفاد عرضوه للناس من بعدما نفوا منه ما يشايع مذهب الاعتزال٠

وقد قدر الله لهذا العلم - علم البلاغة - أن يوجد فى طريقيه عمدتان فكان تلخيص المفتاح عمدة الطريق النظرى ، وكان الكشاف عمدة الطريق التطبيقى ، فقد ألف ناصر الدين بن المنير المالكى الإسكندرى كتابه الانتصاف تناول ما فى الكشاف من دعاوى اعتزالية ٠

المهم أنك تطالع كلام الزمخشرى فى كتب المفسرين من بعده فى الاتجاه اللغوى عامة ،والبلاغى خاصة فنجد الزمخشرى فى مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى ٠

ثم من بعد ذلك القاضى البيضاوى (ت : ٦٨٥هـ) والذى يعد تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل " ابنا للكشاف وهو تلخيص لتفسيره، وعليه وضعت الحاشية الدقيقة للشهاب الخفاجى المسماة " عناية القاضى وكفاية الراضى" . وهذه الحاشية تعد حفيدا لتفسير الكشاف ٠

---

١) التفسير ورجاله ٥٥
٢) السابق ٥٨

وكذا تفسير القاضى أبى السعود (ت : ٩٨٢هـ) المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم " وقد اعتصر هذا التفسير بلاغة الزمخشرى، وهى تطبيق لبلاغة عبد القاهر كما أسلفنا ، واعتصر أيضا البلاغة النظرية التى قامت على تلخيص المفتاح وشروحه وحواشيه ، وقد كتبت حواش أخرى على تفسير الزمخشرى حاشية سعد الدين التفتازانى وحاشية قطب الملة التحتاني ،وحاشيــة قطب الملة الفوقانى .

ومن بعد ذلك كتب الشهاب الالوسى كتابه المسمى " روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى " اعتصر فيه ماكتبه الزمخشرى وما كتب فى البلاغة النظرية.

على أى حال فهذه كلمة موجزة ينبغى أن يعيها دارسو البلاغة وطلابها حتى يكونوا على وعى من إرثهم ،و هو بحق إرث حرى بالنظر والعناية ،وما ذكرناه يمثل قطبى التراث البلاغى ، وإن كان لا يغيب عنا أن الطبرى-رحمه الله- (ت: ٣١٠هـ) له تراث بلاغى نثره على صفحات كتابه الرائع - جامع البيان فى تأويل آى القرآن.

كما لا يغيب عنا مرحلة البلاغة فى المحضن الأول ،وهو محضن النبوة فى كثير من الأحاديث التى تعنى بالبيان ، وكذا أقوال الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين ، وللجامعة الأزهر اتجاه محمود فى هذا الباب لدارسى البلاغة ، حين توجهت عناية الباحثين فيها إلى البحث البلاغى فى التفسير القرآنى، إذ النظر فى كلام الله -عز وعلا- يرقق النفس ويلطفها ،حينئذ تستشعر النفس آيات الإعجاز، وأسباب التحدى التى يشعر بها المتدبر ولا يستطيع وصفها كما قال أئمتنا رحمهم الله

فالكلام الشــريف بطبيعته عندما يتوفر له تدبر شريف يكون النتاج كذلك

شريفا من أجل ذلك كان لأئمتنا من المفسرين كلام فى البلاغة ، لاتجده فى كتب البلاغيين ،كذلك لايستطيع استنباط التاج الشريف ، إلا من نبل قصده ، وخلصت لله نيته وكان إرضاء الله مرامه ، وخدمة العلم بغيته ، ومن قبل ذلك التوفيق من الله والفتح . نسأل الله العون والتوفيق .

الفصاحة والبلاغة

دأب البلاغيون على جعل هذا الدرس مقدمة لعلم المعانى، ولم يجعلوه من بناته وأصلابه ، ومع ذلك سموه درس الفصاحة والبلاغة ، وهذا أمر عجيب ، فالكلمة هى اللبنة الأساسية التى تبنى الجملة العربية ،ويوضح هذا الدرس أهمية، خلوصها من العيوب التى تخل بفصاحتها ،والكلمة داخلة فى التلاؤم والمطابقة، لذا نرى الذكر الحكيم يستخدم لفظة " الشك "حيث لا يجوز استخدام لفظة "الريب" والعكس ٠

كذلك تراه يستخدم كلمة الطريق حيث لا يجوز استخدام الصراط وقل مثل ذلك فى " النجوى ، و "السر" و "الحديث والتكلم "و" القلب والصدر والفؤاد واللب،والنهية " و " التراب والثرى "و" الإفك و الكذب " " والاستماع والإصغاء " وغير ذلك كثير ، يحتاج إلى درس صابر لاستكشاف دواعى السياق والمقام فى هذه الاصطفاءات ، وقد أحصيت فى ذلك أكثر من مائتى لفظة فى الذكر الحكيم مما يقال فيه بالترادف ، غير أن الترادف ،وإن جاز القول به فى كلام البشر ، فإنما يجوز لدواع بشرية من نحو إسعاف المتكلم حين يندعنه لفظ فيأتى بمرادفه وغير ذلك ، وهو متقارب فى الدلالة ، وهذه الفارقات الدقيقة فى استخدام الكلمات فى الذكر الحكيم تقفنا دراستها على استكشاف الإعجاز فى إيراد الكلمات فى سياقات تكشف عن الفارقات بينها ٠

تعريف الفصاحة والبلاغة :

تدور مادة (ف ص ح) فى المعاجم على معان كثيرة قطب هذه المعانى" الظهور والبيان " وتدور مادة (ب ل غ) على " الوصول والأنتهاء (١) فلكل منهما أصله فى الدلالة غير أن كثيرا من البلاغيين لم يفرق بينهما فى

---

١) انظر اللسان والقاموس ومقاييس اللغة والمصباح ومختار الصحاح مادتى (ف ص ح)و(ب ل غ)

الاستعمال ، فهما مترادفان عند كثير من البلاغيين من مثل الإمام عبد القاهر والزمخشري وغيرهما وقد فرق بعض البلاغيين بينهما بما يلي :

أولا : أن الفصاحة وصف للفظ ، والبلاغة وصف للمعنى

ثانيا : أن الفصاحة والبلاغه يقعان وصفا للكلام والمتكلم .

فصاحة المفردفى اصطلاح البلاغيين : ذكر البلاغيون أن فصاحة المفرد : هي خلوصه من تنافر الحروف ، والغرابة ومخالفة القياس اللغوى .

أولا : تنافر الحروف :

والتنافر هو وصف في الكلمة يوجب ثقلها على اللسان والتعسر في النطق بها ، فإن كان اللسان متعثرا فى النطق بها، كان السمع لها أكره ومن حبها أبعد ، والفصيح يشتد حرصه فى استماله الأسماع ،والاستيلاء على القلوب ، ذلك غرض له ومقصد بلا ريب فكيف يتم له مراده ، وقد اخترق طريقا لصرف القلوب عنه ؟ وليته صرف حميد ، و إنما هو صرف يستوجب الشتم والبغض .

من ذلك ما روى عن أعرابى سئل عن ناقته ، فقال تركتها ترعى الهعخع ألا ترى أن لسانك يحتاج إلى تجريب نطق الكلمة بينك وبين نفسك مرات حتى تستطيع الجهر بها وإن طلب إليك تكرارها فما من ريب أنك تجد فى الفرار من تلبية هذا المطلب البغيض، هذا بالإضافه إلى ما فى الكلمة من الوحشية والغرابة ، فقد ذكروا أنها اسم شجر واستحسن ما قيل من أن هذا الاسم لم يوضع لشىء، و إنما هو معاياة لا أصل له لأن الأشجار مما يحتاج إليه الإنسان ، فلا يعقل أن يكون مثل هذا اللفظ موضوعا له ، ويبدو أن المتباصرين بالغريب كانوا يضعون كثيرا من هذه الألفاظ إظهارا للتفوق على أقرانهم.

ومنه قوله امرىء القيس :

وفرع يزين المتن أسود فاحم   أثيث كقنو النخلة المتعثكل

غدائره مستشزرات إلى العلا   تضل العقاص فى مثنى ومرسل (١)

أنت تحس أن كلمة (مستشزرات) تكد لسانك،وتؤذى سمعك ، وتجد بين الشين والزاى تخاصما وتعاندا، فكان الشاعر حاول الجوار بين متناقضين والجمع بين متعارضين ولا يمكن الدفاع عن ذلك بأن الشاعر اصطفى من ألفاظ اللغة ما يعبر به عن تكاثف الشعر وتشابكه ، لأنه فى مقام وصف رائع لشعر المرأة ، فلا يستساغ مثل هذا اللفظ الذى ينفر السمع ،وفى اللغة متسع للتعبير عن مراده .

وقد ذكروا أن السبب فى تنافر الحروف يرجع لشدة تقارب المخارج فيما تجاور منها واللسان فى المتقارب يمشى مشى المقيد (٢) فيكره إعادة الكلمة ، ومما ينبغى أن يبصر أن هذا الكلام نسبى، وأن الاحتكام إلى الذائقة العربية السليمة هو الأعلى فى إعتبار التنافر ، لأنانرى كثيرا من ألفاظ الكتاب العزيز قد وردت فيها أحرف متقاربة المخارج ، من ذلك قوله تعالى : " ألم أعهد إليكم يابنى آدم . . "﴿يس/٦٠﴾ فكلمة (أعهد) بين العين والهاء فيها تقارب شديد، ومع ذلك ترى لها عذوبة على اللسان وسلاسة فى النطق .

ومن الممكن أن يكون الثقل ناشئا من كثرة الحروف(٣)، من ذلك قول أبى نصر بن نباتة :

فإياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم   إلا أن مغناطيسهن الذوائب

وقول أبى تمام :

أنلـــه باســـتماعـــكه محلا   يفـوت علوه الطرف الطموحا

---

١) الديوان ١٧، الفرع : الشعر ، المتن : الظهر ، اثيث : كثير ، المتعثكل : المتراكم ، الغدائر : جمع غديرة ، وهى الخصلة من الشعر ، مستشزرات : مرتفعات ، العقاص : جمع عقيصة وهى الخصلة المجموعة من الشعر ، المثنى : المفتول

٢) سر الفصاحة ٥٤ بتصرف .

٣) سر الفصاحة ٨٧ وما بعدها .

وقوله :

العيس تعـــلم أن حـــوباواتها ريـــح إذا بلغتك إن لم تنحر

وقول أبى الطيب :

إن الكريم بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويدا واتها

فـإنك تحـس تعـذر النطـق بالكلمـات (مغناطيسـهن ، باسـتماعكه ، حوباواتها ، سويداواتها) هذا التعذر ناشىء من كثرة حروفها غير أنك تجد مثل هذه الكلمات فى الكتاب العزيز طولا، ومع ذلك تجد لها حسنا بديعا من ذلك قوله تعالى: " فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فـى شـقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴿ البقرة ١٣٧ ﴾ فهى تحكى شـدة تكالب الأعداء على الرسول ﷺ .

ومنه قوله تعالى : "يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض " ﴿ التوبه/٣٨ ﴾ فهى تحكى تقاعس المنافقين الشديد وخلودهم إلى الأرض ومنه قوله تعالى : قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون " ﴿ هود/٢٨ ﴾ فإن فى كلمة (أنلزمكموها) من الصعوبة ما يحكى صعوبه الإلزام بالآيات كما ذكر شيخنا الدكتور أبو موسى (١)

فليست كثرة الحروف مما يشكل تنافرا وثقلا أبدا ، و إنما هو أمر يعتبر فيه الذوق السليم ، لذا تراك لا توافق ابن سنان (٢) فى عيبه كلمة (المستنشدين) لطول حروفها فى قول أبى تمام .

و إلى محمد ابتعثت قصائدى ورفعت للمستنشدين لوائى .

---

١) خصائص التراكيب ٣٣ ، ٣٤

٢) سر الفصاحة ٨٩ .

ثانيا: الغرابة :

ومراد البلاغيين من الغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج فى معرفته إلى أن ينقر عنها فى كتب اللغة المبسوطة، من أجل ذلك عابوا التشادق والتقعر ، والعى والحصر عندهم أحسن حالا من التشادق ، فقالوا : الحصر المتكلف ، والعى المتزيد ألوم من البليغ المتكلف ، ولا أدل على نفورهم من المتباصرين بالغريب مما حدث لأبى علقمة حين سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال :

مالكم تكأكأتم على تكأكؤكم على ذى جنة ؟ افرنقعوا عنى (١) يريد مالكم اجتمعتم على اجتماعكم على مجنون ابتعدوا عنى، ولما نقلت عبارته إلى بعض البلغاء قال دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية ،فكأن تباصره بالغريب وتشادقه فى الكلام ، داعيا لا نصراف المغيثين عنه، وكان التباصر بالغريب شىء ينافى الفطرة تأمل قول الشاعر :

وضع الخزيز فقيل أين مجاشع ؟ فشحا جحافله جراف هبلع (٢)

ففى البيت كلمات كثيرة (الخزيز -جحافله - هبلع) وذلك التشادق يصرفك صرفا شديدا عن تأمل الشعر وفقهه ، وخذ منه قول غيره فى وصف اللبن .

وآخذ طعم السقاء سامط وخاثر عجالط عكالط

والسامط : اللبن حين تذهب حلاوته ، والخاثر : اللبن الثخين ، والعجالط والعكالط بمعنى اللبن الثخين أيضا ، أنت ترى طبعك ينفر من قراءة هذا الشعر وسماعه ومن ذلك قول العجاج يتحدث عن جيش بن معمر وعظمته :

---

١) البيان والتبيين ١/٣٨٠ .

٢)الخزيز : العوسج الجاف جدا والعوسج جنس نبات شائك من الفصيلة الباذنجية له ثمر مدور كأنه خرز العقيق ، شحا : فتح ، جحافله : جمع جحفل وهى الشفة ولكنها فى الأصل لغير الإنسان والهبلع : الواسع الحنجور .

عن ذى قداميس لهام لو دسر بركنه أركان دفح لانقعر (١)

وقد ذكروا أن شعر رؤبة والعجاج قد حوى كثيرا من الغريب،من ذلك قول العجاج أيضا ·

أيام أبدت واضحا مفلجا أغـر براقـــا وطرفا أبرجا

ومقـلة وحاجبا مزججا وفاحما ومرسنا مسرجا (٢)

والغرابة فى قوله (مسرجا) فقد اختلف فى تخريجه فقيل : هو من قولهم للسيوف سريجية منسوبة إلى قين يقال له سريج ، يريد أنه فى الاستواء والدقة كالسيف السريجى وقيل من السراج ، يريد أنه فى البريق كالسراج ، وهو قريب من قولهم سرج وجهه أى حسن وسرج الله وجهه أى بهجه وحسنه من أجل ذلك يمكن القول بأن الغرابة ترجع لسببين أولهما: احتياج الكلمة إلىأن يبحث عن معناها فى كتب اللغة المبسوطة ·ثانيهما : احتمال الكلمة لأكثر من معنى يتخير الشاعر من معانيها أغربها وأبعدها ·

ومما يجب العلم به أن الغرابة نسبية ، فقد تستعمل كلمة ما فى العصر الجاهلى تعدغريبة بمرور الزمان ،وقل مثل ذلك فى عصر صدر الإسلام وغيره ، فالكلمة حين تكون غير مأنوسة الاستعمال بالنسبه إلى الأعراب الخلص تعد غريبة، وإلا خرجت القصائد القديمة عن حد البلاغة ، لبعدالعهد بيننا وبينها كما بينه الدسوقى (٣)

وقد يدور بخلدك الآن أن الذكر الحكيم والحديث الشريف قد اشتملا على كثير من الغريب ،وآية ذلك عندك ما ألفه العلماء تحت هذا المسمى "

---

١) قداميس : جمع قد موسى بمقدم الكتيبه ، وسر " طعن ، دفح : اسم حبل فى نجد

٢) الفاحم : الشعر الشديدالسواد ، والمرسن اسم لمحل الرسن وهو أنف البعير ، ثم أطلق وأريد به الأنف مطلقا على سبيل المجاز المرسل ·

٣) حاشية الدسوقى بهامش شروح التلخيص ٨٢/١ بتصرف ·

المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى (ت : ٥٠٢ هـ) ، (تفسير غريب القرآن) لابن قتيبة (ت : ٢٧٦ هـ) وغير ذلك ، وفى الحديث " النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٠

وغريب الحديث لأبى عبيد ، ولابن قتيبة ، ولأبى سليمان الخطابى ، ولإبراهيم الحربى ولأبى الفرج بن الجوزى ، ولأبى عبيد القاسم بن سلام ، والفائق فى غريب الحديث للزمخشرى وغير ذلك .وقد كان علماء البلاغة أعقل من أن يضعوا مقياسا للفصاحة يخرجون به شيئا من القرآن أو الحديث عن حد الفصاحة ، وهو القائل " أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش وربيت فى بنى سعد" ولتزول هذه الشبهة يجب أن تعلم أن الغرابة التى قصدها البلاغيون والنقاد ، هى استعمال الألفاظ الغامضة التى تخفى دلالتها على علماء اللغة المبرزين من أمثال الأصمعى، وإذا عرفت ذلك زالت عنك الشبهة ،٠

وشىء آخر هو أن الغرابة كانت من سمات الرسول ﷺ حين يخاطب أقواما ضاربين فى البداوة ، فكانت الألفاظ مأنوسة الاستعمال بالنسبه إلى المخاطبين غريبة بالنسبة للمستمعين من السلف -رضوان الله تعالى عليهم-،ويؤكد هذا عندك ما روى أن عليا- كرم الله وجهه - عندما سمع الحديث المتبادل بين الرسول ﷺ وطهفة ، قال على يا رسول الله نراك تكلم وفود العرب بما لانفهم أكثره ،ونحن بنو أب واحد، فقال ﷺ أدبنى ربى فأحسن تأديبى(١)، فقد تكون الغرابة مراعاة لحال المخاطبين ممن بعدت بهم الدار ، ونأى بهم المحل كما قال الخطابى- رحمه الله (٢) وفيها مخاطبة الناس على قدر عقولهم كما قال الرسول ﷺلذا كان يخاطب الرسول ﷺكل قوم بما يفهمونه فلكل حاله لبوسها والغرابة فى الحديث النبوى مستملحة بالنظر فى مقاماتها ٠

١) انظر المثل السائر ١/٢٣٤ ٠

٢) غريب الحديث للخطابى ١/٧١ الغرابة فى الحديث النبوى د٠ عبد الفتاح البركاوى ص ١٤٤ ٠

ومن الغرابة المستقبحة استعمالهم الطرموق بدل الطين ، والاستمصال بدل الإسهال ، والاطرغشاش والابرغشاس بدل الشفاء ،ومن ذلك ما روى عن أبى الحسن وكان يقعرفى كلامه من ذلك أنه أتى أبا الأسود الدولى يلتمس بعض ماعنده ، فقال أبو الأسود : ما فعل أبوك؟ قال أخذته الحمى فطبخته طبخا، وفتخته فتخا، وفضخته فضخا فتركته فرخا، فقال أبو الأسود فما فعلت امرأته التى كانت تشاره وتماره وتهاره وتزاره ؟ قال "طلقها وتزوجت غيره فرضيت وحظيت وبظيت، قال أبو الأسود: وقد علمنا رضيت وحظيت فما بظيت؟ قال حرف من الغريب لم يبلغك قال أبو الأسود: يابنى كل كلمة لايعرفهاعمك فاسترهاكما تستر السنور خرءها (١)

ومنه ما روى أيضا من أن أبا علقمة قدهاج به الدم فأتى بحجام فقال للحجام : اشدد قصب الملازم ، وارهف ظبات الشوارد ، وأسرع الوضع ، وعجل النزع ، وليكن شرطك وخزا ،ومصك نهزا ، ولا تكرهن أبيا ،ولا تردن أتيا فوضع الحجام محاجمه فى جونته وانصرف (٢)،وكأنه جد فى الفرار من غريب ما يسمع ، ففى استعمال الغريب تنافر بين الكلام والمراد منه ، فالمراد منه استمالة الأسماع ،وأنت قد أبصرته ينفر الناس .

وترى استعمال الغريب شائعا فى كثير من كتب أبى العلاء المعرى ، إظهاراً لقدرته اللغوية ، وتفوقه فى الغريب ، افتح صفحة من كتابه ، الفصول والغايات " ترى الغريب سمة واضحة للأسلوب فيها ،خذ مثلا قوله: " والله منهض الناهضين بعد من اللمز، ركب دلمز ، بين عنق وجمز ، لا يتكلم غير رمز ، كأن الكواكب له ذات غمز ، يدأب لربه معين الدائبين ، من قعد على رحل فوق سبحل

---

١) البيان والتبين ٢٠١/١ فتخته :أضعفته ،فضخته : دقته ، المشاراة الملاحة المماراة المجادلة ، المهاراة تبادل الاستهزاء ، المزاراة التعاتب .

٢) البيان والتبيين ٢٠٢/١ .

يخبط سرابا كالضحل ، كأنه جديد السحل ، ثم ولج فى دحل ، فظفر بالحجل ، ليس بأمير للنحل ، فالله أعلم بخيبة الخائبين (١) " أنظر ما عرض عليك من الغريب، وكيف يحتاج منك فهم نص له إلى النظر فى كومة من معاجم اللغة، وقد كان - رحمه الله - يعى ما يحويه الكلام عنده من الغريب فكان يفسره وكأنه معجم لغوى للغريب ، صيغ صياغة أدبية .

ثالثا : مخالفة القياس

ومخالفة القياس معناها : عدم جريان الكلمة على القانون الصرفى من ذلك قول المتنبى :

فلا يبرم الأمر الذى هو حالل ولا يحلل الأمر الذى هو مبرم

والشاهد فى قوله : (حالل)، (يحلل) حيث فك الإدغام على غير قياس ، وقد عده أبو البقاء من الضرورات ، وذكر أنه ربما فعل الشاعر هذا ليشعر أنه يعلم بالضرورات، ولا سيما أن كلمة (ناقض) يمكن أن توضع موضع (حالل) ويستقيم الوزن (٢)

ومنه قول قعنب

مهلا أعاذل قد جربت من خلقى إنى أجود لأقوام وإن ضننوا

فقد فك تضعيف ضننوا على غير قياس ، وبوسعك أن تفتح كتب النحاة فتبصر شواهد وقعت على غير قياس من ذلك مثلا قول أنيف بن زبان الطائى :

تبين لى أن القماءة ذلة وأن أعزاء الرجال طيالها

---

١) الفصول والغايات لأبى العلاء المعرى ٢١٤، ٢١٥ الدلمز : البعير الشديد المجتمع الخلق ، السبحل: الضخم الطويل، السحل : ثوب أبيض من قطن ، الدحل : حفرة أعلاها واسع وأسفلها ضيق الحجل : هنا ضرب من اليعاسيب ، وفى غير هذا الموضع : السقاء الضخم
٢) التبيان لأبى البقاء العكبرى ٤/ ٨٥ .

والقياس طوالها ، وغير ذلك كثير مما جاء شاذا فى أبواب النحو والصرف .

وقد ذكر بعض البلاغيين أنه يضاف إلى هذه الشروط شرط رابع ، وهى خلوص الكلمة من الكراهة فى السمع ، والظاهر أن الكراهة تنشأ من التنافر أو الغرابة أو منهما معا فليس هذا بشرط جديد.

هذا ومما يمكن أن يعتبر فى فصاحة الكلمة ما ذكر الخفاجى من أن تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره ، فإذا أوردت ، وهى غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت ومثل لذلك بقول عروة بن الورد العبسى :

قلت لقوم فى الكنيف تروحوا   عشية بتنا عند ماوان رزح(١)

فإن كلمة "الكنيف" قد استعملت فى الآبار التى تستر الحدث، وهو وإن كان هنا بمعنى الشىء الساتر ، إلا أن إيراده فى الشعر ، مما يذكر بالقبح، فلعله مما تكره الأسماع ذكره ، وتصرف عن المعنى ، ومن أجل ذلك كان رسول الله ﷺ يصنع هذا فعن أبى علقمة بن وائل عن أبيه أن النبى ﷺ قال " لاتقولوا : الكرْم ، ولكن قولوا : العنب " (٢)

وقد ذكر العلماء أن سبب كراهة ذلك أن لفظة (الكرم) كانت العرب تطلقها على شجر العنب وعلى العنب ، وعلى الخمر المتخذة من العنب، سموها كرمة لكونها متخذة منه ، ولأنها تحمل على الكرم والسخاء، فكره الشرع إطلاق هذه اللفظة على العنب وشجره لأنهم إذا سمعوا اللفظة ربما تذكروا بها الخمر ، وهيجت نفوسهم إليها فوقعوا فيها أوقاربوا ذلك (٣).

ولعل مما يرجح ذلك أن الذكر الحكيم دأب على الكناية عن الجماع باللمس والإفضاء والرفث وغير ذلك ، فالأولى بالفصيح ألا يضع فى كلامه ألفاظا تورد

---

١)انظر سر الفصاحة ص ٨٥

٢) رواه مسلم فى كتاب الألفاظ باب كراهة تسمية العنب كرمة ، و أبو داود فى كتاب الأدب باب الكرم وحفظ المنطق.

٣) شرح النووى على مسلم ٨/٨ .

على الخاطر ما يكره ، فينفر المستمع من المتحدث . ومن أبين ذلك قول عمرو بن معد يكرب :

وكم من غائط من دون سلمى قليل الأنس ليس به كتيع

فالغائط : البطن من الأرض ، إلا أنه يذكرك ، ويورد بخاطرك من معنى الغائط ما تعرف ومما يمكن أن يعد أيضا من عيوب فصاحة الكلمة ألا تكون اللفظة عامية ولا ساقطة سوقية ومما أورده ابن سنان فى هذا (١)

جليت والموت مبد حسر صفحته وقد تفرعن فى أفعاله الأجل

فإن تفرعن مشتق من اسم فرعون ، وهو من ألفاظ العامة . وهذا مقياس معتبر فى النقد الحديث (٢)

فصاحة الكلام

ذكر البلاغيون أن فصاحة الكلام : هى خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد ، إضافة إلى فصاحة المفردات ، فلو خلا كلام من شروط فصاحة الثلاثة، ثم اشتمل على كلمة غير فصيحة لم يكن الكلام فصيحا .

أولا : ضعف التأليف :

المراد بضعف التأليف : أن يكون نظم الكلام على خلاف المشهور فى قواعد النحو، من ذلك رجوع الضمير إلى المفعول المتأخر لفظا ورتبة كقول الشاعر :

جزى ربه عنى عدى بن حاتم جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

وإن كانوا قد أجابوا عن الشاعر بأن الضمير فى (ربه) عائد إلى مصدر جزى فلا يمنع أن يكون غير فصيح ، وبوسعك أن تأتى بشواهد جديدة من

١) سر الفصاحة ٧٣ .

٢) انظر النقد العربى الحديث د. محمد زغلول سلام ص ١٨٤، وراجع الديوان للعقاد والمازنى ط ثالثة .

كتب النحاة فيما خرجوه على الشاذ من ذلك قول الشاعر :

وتضحك منى شيخة عبشمية   كأن لم ترى قبلى أسيرا يمانيا

وقول قيس بن زهير العبسى :

ألم يأتيــك والأنباء تنمى   بما لاقت لبون بنى زياد

ومنه قول الآخر :

هجوت زبان ثم جئت معتذرا   من هجو زبان لم تهجو ولم تدع (١)

فقد رأيت فى كل ذلك إثبات حرف العلة مع أداة الجزم ، وهو شاذ عند النحاة

ثانيا : تنافر الكلمات ومنه ما تكون الكلمات بسببه متناهية فى الثقل على اللسان وعسر النطق بها متتابعة من ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

لا يستطيع أحد أن ينطق هذا البيت ثلاث مرات دون أن يتعتع أو يتلجلج ، لذا قالوا إن الذى أنشأ هذا البيت من الجن (٢) ، لأن ألفاظه يتبرأ بعضها من بعض كما قالوا وقد أنشد خلف الأحمر فى معنى التنافر :

وبعض قريض القوم أولا د علة   يكدلسان النطق المتحفظ

ومنه ما دون ذلك كقول أبى تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى   معى وإذا مالمته لمته وحدى

وقد تقول إنه ثقل محتمل ، وأقول لك إن العيب إن لم يقع بالتنافر وقع بالتكرار ومع ذلك فالثقل وارد ، لتكرار كلمات ذات جرس واحد وهى متجاورة ، ومن أشد الثقل قول المتنبى :

أقل أنل أقطع احمل عل سل أعد   زد هش بش تفضل أدن سرصل

١) الأشمونى بحاشية الصبان ١٠٣/١ .

٢) البيان والتبيين ٣٧/١، إعجاز القرآن للباقلانى ٢٦٩ .

فقد أمره بأربعة عشر أمرا فى بيت واحد، وقد حذا فى ذلك حذو أبى العميثل بقوله

يامن يؤمل أن تكون خلاله كخلال عبد الله أنصت واستمع
اصدق وعف وبر وانصر واحتمل واحلم وكاف ودار واصبر واشجع

والأصل فيه قول امرىء القيس :

أفاد وجاد وساد وزاد وذاد وقاد وعاد وأفضل

والغريب أن أبا الطيب لما رآهم يستكثرون ألفاظ البيت أنشأ بيتا آخر قال فيه :

عش ابق اسم ، سد ، قد ، جد ، مر ، انه ، ر ، ف ، اسر ، نل
غظ، ارم ، صب ، احم ، اغز، اسب، رع ، زع، د، ل ، اثن ، نل(١)

فقد أمره فى البيت بأربعة وعشرين أمرا، والتنافر جاء من هذه المبالغة القبيحة فى تتابع الجمل وقد ذكروا من التنافر قول الشاعر :

أرج زلوج هزر فى زفازف هزف يبذا لنا جيات الصوافنا (٢)

ومن الممكن أن يكون الثقل ناشئا أيضا من تتابع الإضافات منه قول المتنبى

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليه شواهد (٣)

ومنه قول ابن بابل :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

فقد أضاف حمامة إلى جرعا ، وجرعا إلى حومة ، وحومة إلى الجندل، والجرعاء : مؤنث الأجرع ، وهو المكان ذو الرمل لا ينبت شيئا ، وحومة

---

١) الديوان ٣/٨٩

٢) الناجيات الصوافن : الخيل السريعه القوية ، وما قبلها أوصاف لذكر النعام تصفها بالخفة والسرعة

٣) الديوان ١/٢٧٠ يريد أنه يعينه على شدائد الجرى فرس كريم ، يشهد بكرمه خصال له شواهد يراها الناظر إليها فيعرف بها أنه كريم الأصل .

الشيء معظمه ، والجندل : الحجارة ، ومرأى ومسمع اسما مكان أى بمكان تراك منه سعاد وتسمعك .

هذا وقد ذكر الشيخ عبد القاهر أن تتابع الإضافات مما يدخله الاستكراه ، واستشهد بقول الصاحب بن عباد : إياكِ والإضافات المداخلة فإن ذلك لا يحسن، ونقل عن الصاحب أنه استحسن ذلك فى الهجاء كقول القائل .

ياعلى بن حمزة بن عمـــارة　　أنت والله ثلجــة فى خيارة

فالأمر فيها أغلبى ، لذا استحسن الشيخ قول ابن المعتز

وظلت تدير الراح أيدى جآذر　　عتاق دنانير الوجوه ملاح (١)

ثالثا : التعقيد :

ومعنى ذلك أن يكون التركيب على نحو تغمض معه الدلالة ، ولا يظهر المراد ، وله سببان لفظى ، ومعنوى ، ومن اللفظى قول الفرزدق .

وما مثله فى الناس إلا مملكا　　أبو أمه حى أبوه يقاربه

ومثل الفردق فى ذلك كمثل قوم كانوا فى سفر فأدركهم العدو ، فلجأوا إلى غار فألقوا أمتعتهم فيه على غير نظام ولا ترتيب ، فقد فصل بين (أبو أمه) وهو مبتدأ ، و (أبوه) وهو خبر بأجنبى وهو (حى) ، وكذا فصل بين (حى)و(يقاربه) وهو نعت حى، وقدم المستثنى على المستثنى منه ، ومهما يكن من شيء فلا دفاع عن هذا البيت ، ولو أنه حوى معنى شريفا لهان عناء الرحلة فى الوقوف على المراد ، فكان ينبغى أن يكون النظم وما مثله فى الناس (الممدوح) حى يقاربه إلا مملك أبو أمه أبوه ، والبيت مدح لإبراهيم بن هشام خال الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ، فالمعنى : ليس فى الناس أحد مثل إبراهيم إلا ابن أخته هشام أترى أن هذا المعنى يستحق كل هذا النصب ؟

---

١)دلائل الإعجاز ١٠٤ .

ومنه قول أبى الطيب

أنى يـــكون أبا البرية آدم   وأبوك والثقلان أنت محمدٌ(١)

وعلى المعنى المراد كان ينبغى فى الترتيب أن يكون هكذا أنى يكون آدم أبا البرية وأبوك محمد وأنت الثقلان ، ومنه قول أبى الطيب أيضا ٠

المجد أخسر والمكارم صفقة   من أن يعيش لها الهمام الأروع (٢)

فقد فصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، والتقدير : المجد والمكارم أخسر صفقة، وهذا الفصل لا يجوز ، ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول : زيد أحسن وعمرو وجها ومنه قول الآخر :

فأصبحت بعد خط بهجتها   كأن قفرا رسومها قلما

وأصل النظم فأصبحت قفرا بعد بهجتها كان قلما خط رسومها ،ولكن الشاعر عقد نظمه بفصله بين الفعل الناسخ (أصبح) ومعموليه ، وفصل بين أداة التشبيه (كان) ومعموليها أيضا وقدم خبرها عليها(جملة خط) ٠

والتعقيد المعنوى : وهو ألا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثانى الذى هو لازمه ، والمراد به ظاهرا ، من ذلك قول العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا   وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

فقد كنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن ، وأصاب فى هذا، ثم كنى عما يوجبه دوام التلاقى من السرور بالجمود ، لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقا من غير اعتبار شىء آخر ، وقد أخطأ ، لأن الجمود خلو العين مـــن البكاء فى حال إرادة البكاء منها ، فلا يكون كناية عن المسرة ، و إنما يكون كناية عن البخل (٣) كما قال الشاعر:

---

١) الديوان ٣٤٠/١

٣) الديوان ٢٧١/٢ ٠

٣) الإيضاح ٢٢/١ ٠

ألا أن عينا لم تجد يوم واسط   عليك بجارى دمعها لجمود

ولو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء فى حال المسرة لجاز أن يدعى به للرجل فيقال : لازالت عينك جامدة ، ويمكنك أن تعد هنا الاستعارات التى ذكر عبد القاهر أنها غير مفيدة من ذلك قول الشاعر يصف إبلا :

تسمع للماء كصوت المسحل   بين وريديها وبين الجحفل

فجعل للإبل جحافل وهى لذوات الحوافر ، ومنه قول الآخر :

فبتنا جلوسا لدى مهرنا   ننزع من شفتيه الصفارا

فاستعمل الشفة فى الفرس ، وهى موضوعة للأنسان ، قال الشيخ : فهذا ونحوه لايفيدك شيئا لو لزمت الأصلى لم يحصل لك . . إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فحسب بل الاستعارة ههنا بأن تنقصك جزءا من الفائدة أشبه ، وذلك أن الاسم فى هذا (١)النحو إذا نفيت عن نفسك دخول الاشتراك عليه بالاستعارة دل ذكره على العضو وما هو منه

ومن ذلك استعمال اللفظ فى غير ماوضع له دون قرينة أو علاقة كقول الشاعر :

وذات هدم عارنوا شرها   تصمت بالماء تولبا جدعا

فأجرى التولب على ولد المرأة وهو لولد الحمار فى الأصل (٢) والصلة بينهما خفية ، فلا يسهل انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثانى · وقد استقبح البلاغيون الاستعارات التى تكون العلاقات بين أصل اللفظ وما استعمل فيه غير موجودة ، وقد أورد الآمدى كثيرا من ذلك فى شعر أبى تمام من ذلك قوله :

يادهر قوم من أخدعيك فقد   أضججت هذا الأنام من خرقك

---

١) أسرار البلاغة ٣٠ ·

٢) السابق ٣٧ ·

و أورد أبياتا كثيرة بعده ، ثم قال : وهذه استعارات فى غاية القباحة والهجانة والبعد من الصواب ، و إنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه فى بعض أحواله ، أو كان سببا من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشىء الذى استعيرت له ، وملائمة لمعناه (١) ووضوح العلاقة من دواعى الانضباط فى هذه اللغة الشريفة ، وإلا كانت اللغة ضربا من الفوضى ، تستعمل ما تشاء من الألفاظ لما تشاء من المعانى .

فصاحة المتكلم :

هى ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح ، وقد أشار العلماء بقولهم ملكة إلى أنها تحتاج إلى كثرة مدارسة،وطول مران حتى ترسخ فى النفس، لذا قالوا : احفظ تقل إن الكلام من الكلام .

بلاغة الكلام :

هى مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ، وبلاغة الكلام صفة للكلام والمتكلم تقول : كلام بليغ ومتكلم بليغ ، ولا تأتى وصفا للمفرد ، فلا يقال : كلمة بليغة إلا إذا قصدت بالكلمة القصيدة أو الرسالة ، ونجد التعريف يشمل أمورا :

أولا : الحال : وهو الأمر الداعى للمتكلم أن يورد كلامه على نحو خاص،وهو المسمى بالمقام أيضا ، ومقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، وخطاب الذكى غير خطاب الغبى ، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام وبقدر براعة الأديب فى هذه الملاءمة يعلو كلامه أو ينحط

ثانيا : مقتضى الحال: هو الصورة التى ترد فى الكلام زائدة على أصل معناه ، ويسميه البلاغيون الاعتبار المناسب وهو مافى الكلام من التقديم والتأخير

---

١) الموازنة ١/٢٦٥، ٢٦٦ .

وغير ذلك مما يقتضيه المقام ويستدعيه الحال ٠

ثالثا: مطابقة الكلام لمقتضى الحال : هى اشتماله على ذلك الشىء الزائد على المعنى الأصلى وتطبيق الكلام على مقتضى الحال هو ما يسميه عبد القاهر بالنظم حيث يقول : النظم توخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام وذلك هو لب البلاغة العربية ٠

مراتب البلاغة:

للبلاغة طرفان أعلى وهو الإعجاز وما يقرب منه ، وأسفل منه تبتدىء، وهو ما إذا غير الكلام عن صورته إلى ماهو مادونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات ، وإن كان صحيح الإعراب ، وبين هذين الطرفين مراتب كثيرة متفاوتة (١) وقد ذكر الخطابى أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ودرجاتهافى البلاغة متباينة غير متساوية ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح الغريب السهل ، ومنها الجائز الطلق الرسل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم ، الذى لا يوجد فى القرآن شىء منه ألبتة ، فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثانى أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه (٢) وقد جعل الرمانى البلاغة على ثلاث طبقات ، منها ما هو فى أعلى طبقة ومنها ما هو فى أدنى طبقة ، ومنها ما هو فى الوسائط . ."فما كان فى أعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن ، وماكان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس (٣)

بلاغة المتكلم :

هى ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ ، يلائم المقام الذى يتنزل كلامه

---

١) الإيضاح ٣٠/١

٢) بيان إعجاز القرآن للخطابى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ٢٦ ٠

٣) النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ص ٧٥، ٧٦ ٠

فيه بحيث يستولى على أسماع المخاطبين ، فيؤكد حيث يراد التوكيد ، ويحذف حيث يراد الحذف ، ويذكر حيث يراد الذكر وهكذا ·

علوم البلاغة :

تنقسم مباحث البلاغة إلى ثلاثة مباحث،علم المعانى ،علم البيان، علم البديع الأول يعنى بفقه الصياغة ، والثانى يعنى بطرائق التصوير ، والثالث يعنى بوجوه التحسين ، وهذا التقسيم تقسيم تعليمى بحت ، ولكن عند فقه النصوص يستعان بالعلوم الثلاثة ، وكلهن متممات لبعضهن ·

علم المعانى: هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق الكلام مقتضى الحال، فهو يختص بالنظر فى أحوال الجملة وأجزائها ، وطرائق صياغتها ·

أبوابه : تنحصر أبواب علم المعانى فى ثمانية أبواب أولها: أحوال الإسناد الخبرى ، وثانيها: أحوال المسند إليه ، وثالثها : أحوال المسند ، ورابعها : أحوال متعلقات الفعل وخامسها : القصر ، وسادسها الإنشاء ، وسابعها : الفصل والوصل ، وثامنها الإيجاز والإطناب و المساواة ·

و إنما حصرت فى ثمانية أبواب لأن الكلام إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه ، وإما ألا يكون لها خارج ، فانقسم الكلام بذلك إلى خبر وهو الأول وإنشاء وهو الثانى ، والخبر لابد له من إسناد ومسند ومسند إليه ثم المسند قد يكون له متعلقات ، فهذه أربعة أبواب ، ثم الإسناد والتعلق كل واحد منهما إما بقصر أو بغير قصر ، وهذا خامس باب ، والإنشاء هو السادس ، ثم الجملة إذا قرنت بأخرى إما أن تعطف ، وإما ألا تعطف وذلك باب الفصل والوصل ، ولفظ الكلام إما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائد عليه **وهذا** هو الباب الثامن ·

الفصل الأول

أحوال الإسناد الخبرى

الكلمات بدلالاتها المعجمية لاتفيد شيئًا غير الدلالة المعجمية للفظ ، فلا يمكن أن تضم الكلمات المفردة أفكارا ومعانى تطرب السامعين وتفيد القارئين ٠

ولكن حين تنضم الكلمة إلى أختها ، وتعانقها تنبت الفكرة ، ويتصور الشعور وقد عرف البلاغيون الإسناد بقولهم : هو ضم كلمة أو ما يجرى مجراها إلى أخرى أو ما يجرى مجراها على نحو يفيد الحكم أن مفهوم إحد اهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفى عنه وحين تدبر هذا التعريف نجده شاملا لكل ما يمكن أن تأتى عليه الجملة العربية من الصور ، فالمسند إما أن يكون كلمة أو ما يجرى مجرى الكلمة ، وكذلك المسند إليه وهو تعريف حاصر لكل صور الجملة العربية وهيئات بنائها ٠

فمن ضم الكلمة إلى الكلمة قولنا : محمد رجل ، وضم كلمة إلى ما يجرى مجرى الكلمة قولنا : لا إله إلا الله منجية،فـ " لا إله إلا الله" بمثابة الكلمة ، ومنجية كلمة ، وقد يتشابه الطرفان صورة كأن يكونا جاريين مجرى الكلمة ، كقولنا لا إله إلا الله تنجى قائلها من النار ، وقد يختلفان على عكس الصورة الثانية كلمة التوحيد تنجى قائلها من النار ، ولا تجد سوى هذه الصور فى تراكيب الجملة العربية ، ويضم البحث فى هذا الباب أغراض الخبر - أضرب الخبر - التجوز فى الإسناد ٠

أغراض الخبر

الجملة الخبرية عند البلاغيين تفيد أحد غرضين أصالة ، الغرض الأول :

هو فائدة مضمون الخبر، كقولك لمن يجهل نجاح محمد " محمد ناجح"، فانت بالخبر تفيده فائدة كان جاهلا بها ، الغرض الثانى : هو ألا يكون مرادك بالإخبار فائدة الخبر، ولكن مقصدك لازم الفائدة (١)، كأن تعلم المخبر بأنك تعلم الخبر ، والفرق بين هذا الغرض والغرض الأول ، أن المخاطب فى الأول جاهل بالحكم ، والمخاطب فى الثانى عالم بالحكم ، كقولك لمن يعلم نجاح محمد " محمد ناجح " فأنت لاتريد إخباره بنجاح محمد، ولكنك تريد إعلامه بمعرفتك بنجاح محمد ، هذان مقصدان أصليان للجملة الخبرية ، وكثيرا ما تجرى جمل خبرية فى لغة العرب ، لا يراد بمضمونها فائدة الخبر ولا لازم الفائدة ، و إنما تراد أمور أخرى يغمغم بها السياق ، وتوحى بها حواشى الكلام ، وتهمس بها الكلمات ، والبلاغة فى مثل هذه الجمل أكثر وأغزر ، وقد ذكروا أن من الأغراض التى يخرج إليها الخبر عن هذين الغرضين مايلى : -

١- إظهار التحسر والتحزن وذكروا من ذلك قوله تعالى:"إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك مافى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم،وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم"﴿آل عمران /٣٥، ٣٦﴾والشاهد فى قوله:"إنى وضعتها أنثى" وبدهى أن الحق - عز وعلا- يعلم ما وضعته ، وهذه فائدة الخبر ، ويعلم أيضا أن حنة بنت فاقود أم السيدة مريم ، تعلم بما وضعته ، فالفائدة ولازمها غير واردتين هنا، ولكن المراد إبراز تحسرها وتحزنها، لأنها ترى أن الولد كان بالنذر أولى لذا ضاعفت من إبراز تحسرها بجملتين أخريين خرجتا عن الفائدة ولازمها " وليس الذكر كالأنثى" وهى حقيقة يعلمها الله ، ويعلم أنها تعلمها " وإنى سميتها مريم " وكل ذلك يتآزر

---

١) المطول ٤٣ بتصرف والإيضاح ١/ ٤٢، ٤٣ .

فى الكشف عن حسرتها وحزنها ٠

ويمكن أن يكون منه قوله تعالى : " قالوا يا أبا نا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولوكنا صادقين ﴿ يوسف/١٧ ﴾ من البدهى أنهم لم يريدوا إخبار والدهم بأمر استباقهم وتركهم أخاهم، ولكن المراد إخبار والدهم بأن أكل الذئب أخاهم ، كان أمرا راجعا لإهمالهم وذلك مما يزيد من إبراز تحسرهم المصطنع أمام والدهم ، ومما يعلى هذا أن الآية السابقة على موضع الشاهد هى" و جاءوا أباهم عشاء يبكون " ﴿ يوسف/١٦ ﴾

والبكاء يخرج من العينين عند الحزن والأسف، وهو هنا بكاء مصطنع وتأسف مفتعل، بغية التمويه والكذب ، والبكاء سبيل عظيم للتظلم بالباطل وقد جاءت امرأة إلى شريح القاضى تخاصم فى شىء، وكانت مبطلة ، فجعلت تبكى، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها فقيل له : أما تراها تبكى ؟ فقال : قد جاء إخوة يوسف -عليه السلام - أباهم عشاء يبكون وهم ظلمة كذبة ، لا ينبغى لأحد أن يقضى إلا بالحق (١)

٢- **الاسترحام والاستعطاف** : من ذلك قول إخوة يوسف -عليه السلام - "فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين" ﴿ يوسف/٨٨ ﴾ فليس المراد إخباره بأن الضر مسهم وأهلهم ، ولاغيره ، ولكن مقصدهم موجه إلى استمطار عطائه وعجز الآية يؤيد هذا ويعين عليه ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا " ٠

ومن ذلك أيضا قول أبينا وأمنا - آدم،وحواء-"قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين"،ويعين على ذلك عجز الآية أيضا فقد "

١)التحرير والتنوير ١٢/٢٣٦

أكد جملة جواب الشرط بلام القسم ونون التوكيد إظهارا لتحقيق الخسران استرحاما واستغفارا من الله تعالى (١)"

ومنه قوله تعالى:"ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون " ﴿إبراهيم/٣٧﴾ فقد قدم الخليل - عليه السلام - بين يدي مطلبه، ما يظهر استرحامه مولاه على ولده وأهله ٠ كما صرح بذلك فى عجز الآية ٠

ولا يغيب عنك هنا قول بلقيس"قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين " ﴿النمل ٤٤﴾ ٠

٣-**الاستغضاب** : وهو غرض لم يذكره البلاغيون ، ولكن بوسعك أن تبصره فىكثير من قصص الذكر الحكيم ، اقرأ مثلا فى سورة نوح - عليه السلام - " قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . . . إلى آخر ذلك ، ثم يقول " قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكرا كبارا ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ."تأمل أنت بناء الجمل وتراكيبها وكيف توحى كل كلمة بأن نوحا -عليه السلام -قد أبلغ فى العذر ، وبذل الجهد بل فوق الجهد ، وكيف استمرأوا هم الصلف والغرور ، واشتروا الكفر بالإيمان ذكرت الآيات جملا خبرية متتابعة ، يصعد الذكر الحكيم بيانه فيها نحو استغضاب الله -عزت قدرته - بما صرح به سيدنا نوح ، فى ختام السورة " وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . ."وكأن

---

٢) السابق ٦٧/٨ ٠

السورة من أولها كانت تقديما بين يدى هذه الدعوة الشاملة بأن تكون الغضبة غير مبقية ٠

٤– إظهار الضعف والخشوع من ذلك قول الله تعالى :"قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا وإنى خفت المو الى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا" ﴿ مريم/ ٤، ٥ ﴾ تأمل كيف اجتهد سيدنا زكريا –عليه السلام – فى إبراز ضعفه وتهالك جسده ، وأتركك تتأمل أنت تراكيب الآية مستعينا بما ذكره الشيخ عبد القاهر حتى يظهر لك ما توحى به الآية من بيان ضعفه المتهالك ،ومعلوم أنه لم يرد إخبار ربه بذلك ، ولا إخباره بأنه يعلم ذلك ، و إنما هو تقديم بين يدى الطلب ، وما أحسنه تقديما وإظهار حسن تعلق بالولد ،وهو بيان رائع فى إظهار الرغبة والتقديم لها كما توحى به التراكيب ٠

ومن المشهور فى ذلك قول الشاعر :

إلهى عبدك العاصى أتاك   مقرا بالذنوب وقد دعاك

فليس المراد الإخبار بأنه أتى ربه مقرا بذنوبه ، و إنما أراد إبراز ضعفه ٠

٥– إظهار الامتثال والانقياد ، من ذلك قوله تعالى : قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون " قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين" ﴿ النحل /٣٢، ٣٣ ﴾ الظاهر أنهم لم يريدوا إعلامها بقولها ، ولا تعريفها بأنهم يعلمون قوتهم ، و إنما أرادوا أن يدلوا على تمام انقيادهم لها ،وطاعتهم لأمرها فقالوا نحن . . . وبوسعك أن تستخرج غيره من الشواهد ٠

٦– الإلهاب والتهييج ، من ذلك قوله تعالى فى عقب الآيات السابقة "قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون" ﴿ النمل/٣٤ ﴾ أرادت إلهاب رجالها ، وإثارة حفيظتهم نحو سيدنا سليمان

- عليه السلام -٠فأورد مرادها بهذا البناء الحكيم ٠

٧- إثارة الحرص : من ذلك قول ابن القيم فى الكشف عن قيمة الوقت : "السنة شجرة ، والشهور فروعها ، والأيام أغصانها ،والساعات أوراقها ، والأنفاس ثمرها ، فمن كانت أنفاسه فى طاعة،فثمرة شجرته طيبة (١)، أورد قيمة الوقت بهذا الأسلوب الخبرى ، والتشبيه المتشابك بناؤه، والمسبوك صوغه ، إثارة للحرص على قيمة الوقت ، ومن المشهور فى ذلك قولهم " الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، وقولهم فى فضل السكوت على الكلام : إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ٠

٨- استنهاض الهمم : من ذلك قوله تعالى :"لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما" ﴿النساء/٩٥﴾ فقد توفر البناء هنا على كشف التفاوت، بين المرتبتين ، واتساع الفرق بين المنزلتين فكان بيأن هذا التفاوت فى المرتبتين حاثا على استنهاض الهمة نحو الجهاد كما يفهم من كلام الشيخ الدسوقى -رحمه الله ٠(٢)

وقد يكون استنهاض الهمة طريقه ذكر الثواب وعظمته من ذلك قوله : تعالى : "مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ". ﴿البقرة /٢٦١﴾ ومنه قوله تعالى: " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " ﴿يونس /٢٦﴾

٩- التسلية ، وترى ذلك كثيرا فى السياقات التى يسلى بها ربنا - عز وعلا - سيدنا رسول الله ﷺ من ذلك قوله تعالى " وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا

---

١) الفوائد ١٦٤ ٠

٢) حاشية الدسوقى ١/ ١٩٣ بتصرف ٠

إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق " ﴿ الفرقان/٢٠ ﴾ ·

١٠- **التعجيب** ، وتراه ظاهرا فى قوله تعالى: "واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا " ﴿ الفرقان /٣ ﴾ ·

وليس لهذه الأغراض حد تنتهى إليه ، وقد أوردت بعضا من نماذج هذه الأغراض ، أدل بها على غيرها ، كما علمنا الأئمة فى كتبهم ، وما لم يذكر أكثر مما ذكر ، وطريقتنا الاصطفاء لا الاستقراء ·

أضرب الخبر :

والخبر عند البلاغيين على ثلاثة أضرب (ابتدائى – طلبى – إنكارى) وهذا التقسيم ناظر إلى حال المخاطب ، فإن كان المخاطب خالى الذهن ، ألقى إليه الكلام خاليا من التوكيد، وإن كان مترددا حسن تقوية الكلام بمؤكد واحد ، وإن كان منكرا حسن توكيد الكلام بما يلائم حاله فى الإنكار ، ويحسن أن تعلم أن أدوات التوكيد فى العربية منها · إن ، القسم ، نونا التوكيد ، لام الابتداء ، أما الشرطية حروف التنبيه ، ضمير الفصل ، قد وأدوات الاستفتاح وغير ذلك ، وقد ذكروا أن اسمية الجملة من مؤكدات الخبر، إلا أنهم اشترطوا أن يكون معها غيرها من صريح أدوات التوكيد ، أما هى بمفردها فلا تفيد توكيدا ·

وقد ذكروا أن أبا يعقوب بن إسحاق الكندى قال إنى وجدت فى كلام العرب حشوا ، فقال له المبرد : أين وجدت ذلك ؟ قال : يقولون عبد الله قائم، وإن عبد الله قائم ، وإن عبد الله لقائم ·الألفاظ مختلفة والمعنى واحد فقال أبو العباس : بل المعانى مختلفة ، فعبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ،وإن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر (١)

١) دلائل الإعجاز ٣١٥ بتصرف ·

وتلك هى الفارقات الدقيقة بين التراكيب ، وإن كانت الجمل الثلاثة تدور حول معنى أصلى واحد ، وهو إثبات القيام لعبد الله ، إلا أن كل جملة تختص بفرق يلائم حال المخاطب بها .

الابتدائى : ومن شواهد الخبر الابتدائى فى الذكر الحكيم قوله تعالى :"الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا" ﴿الفرقان/ ٣٤﴾ وقوله : " وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا " ﴿الفرقان/ ٥٤﴾ وقوله : " وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا " ﴿الفرقان /٤٧﴾ هذه الأخبار كلها خالية من التوكيد ، لأن المخاطب بها خالى الذهن ، إذ هى أخبار جديدة بالنسبة إليه .

الطلبى : من ذلك قوله تعالى : فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون ﴿يوسف /٩٦﴾ وقوله تعالى "وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين" ﴿العنكبوت/١١﴾ وقوله : " إن الله يامر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى . . . " ﴿النحل/٩٠﴾ الملحوظ فى هذه الآيات أنها أكدت بمؤكد واحد ، بالإضافة إلى اسمية الجملة فى الآيتين الأولى والثالثة ، وهذا التأكيد جاء متلائما مع حال المخاطبين ، فلم يكن عند أولاد سيدنا يعقوب إنكار لأن يكون أبوهم عالما من الله بما لا يعلمون ، و إنما هم يترددون فقط فى هذا الأمر وقل مثل ذلك فى الآيات الأخرى .

الإنكاري : وأنت ترى كثيرا من آيات الذكر الحكيم تكاثرت فيها المؤكدات تلاؤما مع حال المخاطبين ، ودونك هذه الشواهد : قال تعالى:من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم " ﴿ العنكبوت /٥﴾ ففى الآية تأكيد بإن واللام والجملة الاسمية تحقيقا للجزاء المترتب على إتيان الأجل المذكور ، وقد وردت الآية بهذه المؤكدات إعلاما بأن " أجل الله آت لا محالة من غير صارف يلويـــه ولا عاطف يثنيـــه ، لأن أجـــزاء الزمن على التقضى والتصرم دائما

فلابد من إتيان ذلك الجزاء أيضا ألبتة ، و إتيان وقته موجب لإتيان اللقاء حتما"(١)

وتقرأ بعدها قوله تعالى " ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين ﴿العنكبوت/٦﴾ فقد أكد الخبر "إن الله -"بإن واللام واسمية الجملة، حتى لا يتطرق إلى الوهم أدنى شك فى هذا الأمر ، فإن الحق -عز وعلا - لا يحتاج إلى طاعتهم ، ولا يفتقر إلى جهادهم ، و إنما أمرهم بذلك تعريضا لهم للثواب ، وقد جاء بعدها قوله تعالى " والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون " ﴿العنكبوت/٧﴾ ترى المؤكدات قد ظللت الآية الكريمة ، حتى يطمئن المؤمنون إلى مثوبة الله ورضوانه، وحتى تنقطع ألسن المنافقين المثبطين لهم عن الجهاد ، أرأيت إلى المنافقين حين ينتصر المؤمنون يتظاهرون بأنهم معهم ، محاولة لإخفاء وجه الحق فى أمرهم ، فيرد الأسلوب القرآنى حاكيا حالهم بالأسلوب المؤكد ، وكأنهم كانوا يجتهدون فى إزالة إنكار ما فى قلوب المؤمنين تجاههم " ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم " ﴿العنكبوت/١٠﴾ وبوسعك أن تفتح أى سورة فى المصحف الشريف تتحدث عن شأن المنافقين ، أو مجادلة الكافرين المعاندين ، فإنك ترى المؤكدات فيها شائعة إذ يقتضيها المقام ، ويستدعيها الحال تأمل من ذلك مثلا قول فرعون - لعنه الله - إن هذا لساحر عليم ﴿الشعراء/٣٤﴾ ومنه أيضا " إن هؤلاء لشرذمة قليلون · وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون" ﴿الشعراء/٥٤، ٥٥، ٥٦﴾ أراد اللعين بهذه المؤكدات استعداء الناس على موسى وأخيه ومن تبعهما من بنى إسرائيل ، وأراد أن يواجه ما شاع من اتباع السحرة موسى فى المدائن · ويثلج صدرك بجلال هذا الأسلوب المحشو توكيدا ، أن تعرف أن هذه هى الرسالة التى أرسل بها فرعون الحاشرين فى المدائن "فأرسل فرعون فى المدائن

---

١) إرشاد العقل السليم ٤/١٦٤ ·

حاشرين ﴿ الشعراء /٥٣ ﴾ كانت رسالته ظاهرة فى نفى ما ثبت عند الناس فى المدائن . هذا هو الظاهر فى أضرب الخبر ، ولكن يجىء الكلام على خلاف الظاهر فى كثير من الأساليب البليغة .

إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر :

قد يؤكد البليغ ما لا يحتاج ظاهره إلى توكيد ، وقد يعرى البليغ أسلوبه من التوكيد مع أن ظاهر الحال يقتضى التوكيد وذلك يكون لمراد يراه، وغرض يقصد إليه ، والوقوف على هذا الغرض ، وذلك المقصد يكون بإبصار المقام الذى ألقى فيه الكلام ، والسياق الذى نبت فيه هذا الأسلوب ، ولخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر صور هى :

أولا : تنزيل العالم بالحكم منزلة الجاهل به ، وذلك كقولك لمن رأيته يعق والديه : بر الوالدين واجب إذا صيرته جاهلا فخاطبته خطاب الجاهل ، لأنه لم يعمل بما يقتضيه علمه ، فصار هو والجاهل سواء .

ثانيا : تنزيل العالم بالحكم منزلة المتردد: كقولك لمن يهمل فى صلاته : إن الصلاة واجبة ، وقولك لمن يهمل فى المذاكرة وقد أقبل الامتحان: إن الإمتحان قريب وقولك لمن يغفل عن الأستاذ وهو يشرح الدرس : إن الأستاذ يشرح الدرس فإنك ترى الناس يتحدثون بمثل هذا الأسلوب على فطرتهم ، لأن البلاغه مغروسة فى فطر الناس وطبائعها .

ثالثا : تنزيل العالم بالحكم منزلة المنكر: ذلك قوله تعالى:"يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين " ﴿يس/ ٣/١﴾ بدهى أن سيدنا رسول الله ﷺ لم ينكر أنه من المرسلين ، حتى يرد الأسلوب مؤكدا بإن واسمية الجملة واللام ، غير أن الذكر الحكيم أورده كذلك ، قصدا لإغاظة السامعين ومنه أيضا قول حجل بن نضلة القيس : -

جاء شقيق عارضا رمحه ... إن بنى عمك فيهم رماح

وذلك أن تصرفه يوحى بأنه ينكر أن يكون بنو عمه ممن لهم سلاح أو رماح فجاء الخطاب ، منبها له إلى نحو ما يجب أن يكون عليه .

رابعا : تنزيل خالى الذهن منزلة المتردد . وذلك يكون حين تجد فى السياق إشارات تلوح بحكم ، فتستشرف له النفس استشراف المتردد الطالب ، فيرد الأسلوب مؤكدا ، من ذلك قوله تعالى :" ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ هود/٣٧ ﴾وقوله : " وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء "﴾ يوسف/ ٥٣ ﴾ومنه أيضا قول بعضهم :

فغنها وهى لك الفداء ... إن غناء الإبل الحداء

أى عن للإبل ، والشاهد أنه حين يقول غنها ليشتد سيرها يفهم السامع أن غناء ها هو الحداء الذى تساق به ، فتستشرف له نفسه .

وقد ذكر البلاغيون أن سلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض ود لوا على ذلك بما روى عن الأصمعى أنه قال :كان أبو عمرو بن العلاء وخلف الأحمر يأتيان بشارا ، فيسلمان عليه بغاية الإعظام، ثم يقولان : يا أبا معاذ، ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين ، حتى يأتى وقت الزوال ، ثم ينصرفان ، فأتياه يوما ، فقالا : ماهذه القصيدة التى أحدثتها فى ابن قتيبة؟ قال : هى التى بلغتكما ، قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب. قال : نعم، إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف، قالا : فأنشدناه يا أبا معاذ ، فأنشدهما :

بكرا صاحبى قبل الهجير ... إن ذاك النجاح فى التبكير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان إن ذاك النجاح " بكرا فالنجاح ، كان أحسن. فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت: إن ذاك النجاح كما يقول الأعراب البديون ، ولو قلت : بكرا فالنجاح،لكان هذا من

كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل فى معنى القصيدة ٠ قال فقام خلف فقبل بين عينيه ، قال البلاغيون : فهل كان ماجرى بين خلف وبشار بمحضر من أبى عمرو بن العلاء وهم من فحولة هذا الفن إلا للطف المعنى لذلك وخفائه(١)

وقد نبه الشيخ عبد القاهر (٢) إلى أن الفاء سقطت من البيت ، فلم يقل فإن ذاك . . .لأن الجملة قائمة مقام الحجة والبرهان لسابقتها لذا لم يحسن دخول الفاء، لاستغنائها بالرابط الخفى وهو السؤال المقدر ، عن الرابط اللفظى ، وذلك ما يقولون عنه إن النفس تستشرف للكلام استشراف السائل ، فيرد الكلام مؤكدا ، وهو أحسن مواقع " إن" ، وقد ذكروا من ذلك قول أبى نواس

عليك باليأس من الناس ... إن غنى نفسك فى الياس

وغير ذلك كثير ترى البلغاء يستحسنونه ويجيدون تناوله

خامسا : تنزيل خالى الذهن منزلة المنكر ، ومن ذلك قوله تعالى : " فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم" ﴿البقرة/٣٧﴾ فليس المخاطب عالما بالحكم حتى ينكره، و إنما أكد الخبر بأربع تأكيدات، وهى إن ، وضمير الفصل والمبالغتان ، ليدل على ترغيب الله العبد فى التوبة ، فإنه إذا علم ذلك طمع فى عفوه كما قال الزركشى (٣)، وترى ذلك فى قوله تعالى :" لاتحزن إن الله معنا " ﴿التوبة /٤٠﴾ المخاطب بالخبر أبو بكر -رضى الله عنه- وليس هو ممن ينكر معية الله ، ولكن حاله فى الخوف تشعر أنه ممن ينكر هذا ٠ ووقع ذلك على النفس عظيم ، ولا سيما أن أبا بكر ممن له حس بلاغى منقطع النظير ٠

ومن ذلك قوله تعالى :" ثم إنكم بعد ذلك لميتون " ﴿المؤمنون/١٥﴾ وليس

---

١) دلائل الإعجاز ٢٧٢، ٢٧٣ ، والإيضاح ٤٨/١، ٤٩ والخبر فى الاغانى ٤٤/٣، ٤٥ ط بولاق
٢) دلائل الإعجاز ٣٢٣ ٠
٣) البرهان ٢/ ٣٨٩ ٠

هذا خبرا منكرا لأى أحد حتى يؤكد بهذه المؤكدات ، ولكن إخراج الكلام هذا المخرج ينبه إلى أن تكاسلهم عن العمل لما بعد الموت بمثابة من ينكر قضية الموت

سادسا : تنزيل المنكر منزلة خالى الذهن، وكأن المتكلم لا يعبأ بإنكار المخاطب ، ولا يحتفل له ، و إنما يورد الحقيقة الضخمة خالية من الضجيج والجلجلة من ذلك قولة تعالى : " يسبح لله ما فى السموات ومافى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴿الجمعة /١﴾ " لاتجد فى هذا الخبر العظيم الذى يفيدأن كل مافى السموات والأرض من ناطق وصامت وجبال وبحار وكواكب ، كل ذلك يسبح للملك القدوس ، هذا خبر منكور عند الجاحدين، ولكن القرآن لم يعبأ بهذا الإنكار ، وساق الحقيقة الضخمة فى هدوء الواثق الحكيم (١)٠ ومن ذلك قول المتنبى يمدح سيف الدولة ٠

وتملك أنفس الثقلين طرا فكيف تحوز أنفسها كلاب (٢)

وهو يقول : أنت تملك الجن والإنس، فكيف يكون لبنى كلاب أن تملك أنفسها ، وهذا خبر ذو مضمون عظيم ، وقد أورده هكذا معرى من المؤكدات بالرغم مما يلاقيه هذا الخبر من الإنكار من كل سامع ، غير أن المتنبى أورده إيراد الواثق الذى لا يعبأ بأحد وافتح كتاب ربك حسبما يتفق لك ، تجد هذا الأسلوب فيه خالب الجمال قوى الوقع ٠

خذ من ذلك قوله تعالى"وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم "﴿يس/ ٧٨﴾ هذا سؤال معاند منكر، أنظر إلى الجواب عنه " قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم"﴿يس / ٧٩﴾ أى لا تعبأ بعناده ، ولا بإنكاره ، ولكن ألق إليه الحقيقة إلقاءها لغير المنكر ، لأن هذا مما لا ينبغى أن ينكر ٠

---

١) خصائص التراكيب ٥٤ ٠

٢) الديوان ٧٥/١

سابعا : تنزيل المنكر منزلة المتردد: من ذلك قوله تعالى:" ثم إنكم يوم القيامة تبعثون "﴿المؤمنون /١٦﴾ ما من ريب أن المخاطبين ينكرون البعث إنكارا شديدا، ولكن لم يرد فى الأسلوب إلا مؤكد واحد مع اسمية الجملة ، إيماء إلى أنه يكفى فى إزالة هذا الإنكار أقل تأكيد.

ثامنا : تنزيل المتردد فى الحكم منزلة المنكر : وذلك كقولك لمن يعلم بالامتحان ولكن يتردد فى تحديد موعده ، إن الامتحان لفى شهر مايو ، مع أن المقام لم يحتج إلى كل هذا الاحتفال ، إلا أنك أوردت كلامك على صورة مايرد للمنكر .

هذا وما عرض عليك كان حديثا عن الإسناد الحقيقى ، وسنورد فى الصفحات التالية للإسناد المجازى إن شاء الله .

المجاز العقلى

ذكرنا فيما مضى أن الإسناد هو الذى يؤلف بين الكلمات ، ولا فائد فى كلمات لا إسناد فيها ، وحديثنا هنا حديث عن التجوز فى هذا للإسناد، ومن قبل ذلك لابد من تناول الحقيقة العقلية ، لأن فهمها مدخل إلى فهم المجاز العقلى٠

الحقيقة العقلية : عرفها الشيخ عبد القاهر بأنها: كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ماهو عليه فى العقل وواقع موقعه ، ثم بين أن من أمارات الإسناد الحقيقى ألا تحتاج إلى تأول ، ثم يقول : ولا فصل بين أن تكون مصيبا فيما أفدت بها من الحكم ، أو مخطئا أوصادقا أو غير صادق (١)

فحين تقول : " خلق الله تعالى الخلق ، وأنشأ العالم ، و أوجد كل موجود سواه ، فهذا من أحق الحقائق ، وأرسخها فى العقول ، وأقعدها نسبا فى المعقول والتى إن رمت أن تغيب عنها غبت عن عقلك ، ومتى هممت بالتوقف فى ثبوتها استولى النفى على معقولك ، ووجدتك كالمرمى به من حالق إلى حيث لا مقر لقدم ، ولا مساغ لتأخر وتقدم ، كما قال الشيخ عبد القاهر٠

هذا ولا تعنى عناية البلاغيين بالأسلوب المجازى وتقديمه على الأسلوب الحقيقى أن الحقيقة العقلية خالية من البلاغة ، بل هى فى البلاغة من الذرة ، فهى أصل الكلام ولبابه ، كذا تراها أهدى سبيلا فى الكلام ، وأعلى نهجا فى النظم حين يكون السياق للحقائق ، تأمل قول ربنا " الله لا إله إلا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولانوم . . "أعظم آيه فى الذكر الحكيم ، وخذ من ذلك قوله تعالى : "وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم "

ولعلهم كانوا يقصدون بقولهم: المجاز أبلغ من الحقيقة ، الكلام المنزوع من سياقه ، حين تقارن بينه وبين غيره من حيث المبالغة فى أداء المعنى وليس كل مقام يحتاج إلى مبالغة فى أداء المعنى ، وليست الحقيقة مطلوبة أبدا وليس المجاز

---

١) أسرار البلاغة ٣٥٥ ٠

كذلك مطلوبا أبدا ، و إنما لكل حال دواعيه ، ولكل مقام مقتضياته ٠

الحقيقة العقلية عند الخطيب : هى إسناد الفعل أو مافى معناه إلى ماهو له عند المتكلم فى الظاهر (١)، والمراد بمعنى الفعل المصدر واسم الفاعل ، واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والظروف ، ومن حيث الأفعال فهى على ثلاثة أقسام :

أفعال استأثر الحق -عز وعلا- بها فلا تنسب لغيره حقيقة مثل الخلق والرزق وما إلى ذلك، وأفعال لغيره - سبحانه - كسب فيها من مثل قام وقعد وخرج ودخل ، فمن هذه الأفعال ، ما يسند لغير الله حقيقة ومنها ما لا يصح إسناده لغيره سبحانه ، من مثل قام وقعد ٠

وأفعال منها ما يسند إلى الله ، ومنها ما يسند إلى غيره ، وهى الأفعال التى لا يراد من إسنادها إلا مجرد الاتصاف بها ، منها عظم وتنزه فهما مما يسند لله - عز وعلا - ومنها مرض سقم وهى تسند للعباد ٠

والحقيقة على أربعة أضرب :

أولا : ما يطابق الواقع و الاعتقاد ، كقول المؤمن : أنبت الله البقل وأطعم الله البهائم ، وشفى الله المريض ، فالواقع يشهد بذلك ، وعقيدة المؤمن مقرة به مصدقة له

ثانيا : ما يطابق الواقع دون الاعتقاد٠ كقول المعتزلى-حين لا يكون المخاطب عالما باعتقاده:خالق الأفعال كلها هو الله تعالى، فعقيدة أهل السنة نسبة الأفعال كلها إلى الله ، ومذهب المعتزلة ليس كذلك،فهو حين قال هذه المقولة طابق الكلام الواقع٠،وخالف عقيدته ، لأن العبد عندهم خالق لأفعاله الاختيارية ٠

---

١) الإيضاح ١/ ٥٤ ٠

ثالثا، مايطابق الاعتقاد دون الواقع ، وهى عكس الصورة السابقة ، من ذلك ماحكاه ربنا عن الدهريين " وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون " ﴿الجاثية/ ٢٤﴾ ، فنسبه إهلاكهم إلى الدهر حقيقة لموافقتها اعتقادهم ، وهى مخالفة للواقع ، لأن الواقع أن الله هو الذى يحيى ويميت ، وعجز الآية يدل على أن الإسناد حقيقى حيث قال : "وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون " والمتجوز المخطىء فى العبارة لايوصف بالظن ، و إنما الظان من يعتقد أن الأمر على ماقاله

الرابع : مالا يطابق شيئا منهما ، كالأقوال الكاذبة التى يكون القائل عالما بحالها دون المخاطب.

المجاز العقلى :

قال الشيخ عبد القاهر : وحده أن كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه من العقل لضرب من التأول فهى مجاز (١)

من ذلك أنه قد جاء فى الخبر " إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أويلم"(٢)

والمعنى : أن نبات الربيع وخضره يقتل بالتخمة لكثرة الأكل ، أو يقارب القتل ،

---

١) أسرار البلاغة ٣٥٦ .

٢) رواه البخارى فى كتاب الجهاد ، باب فضل النفقة فى سبيل الله ومسلم فى كتاب الزكاة باب تخوف مايخرج من زهرة الدنيا ولفظه : إن كل ما ينبت . ." والنسائى فى كتاب الزكاة باب الصدقة على اليتيم ، وابن ماجة فى كتاب الفتن باب فتنة المال

إلا إذااقتصر منه على اليسير الذى تدعو إليه الحاجة، وتحصل به الكفاية المقتصدة فإنه لايضر ، وهكذا المال هو كنبات الربيع مستحسن تطلبه النفوس وتميل إليه ، فمنهم من يستكثر منه ويستغرق فيه ، غير صارف له فى وجوهه، فهذا يهلكه أو يقارب إهلاكه ، ومنهم من يقتصد فلا يأخذ إلايسيرا ، وإن أخذ كثيرا فرقه فى وجوهه ٠ هذا معنى الحديث باختصار ٠

الملحوظ فى الحديث أنه أثبت الإنبات للربيع ، وذلك كما قال الشيخ خارج عن موضعه من العقل ، لأن إثبات الفعل لغير القادر لايصح فى قضايا العقول ، إلا أن ذلك على سبيل التأول ،وعلى العرف الجارى بين الناس ، أن يجعلوا الشىء ، إذا كان سببا أو كالسبب فى وجود الفعل من فاعله كأنه فاعل ، فلما أجرى الله - سبحانه - العادة وأنفذ القضية أن تورق الأشجار وتظهر الأنوار، وتلبس الأرض ثوب شبابها فى زمان الربيع ، صار يتوهم فى ظاهر الأمر ومجرى العادة ، كأن لوجود هذه الأشياء حاجة إلى الربيع ، فأسند الفعل إليه على هذا التأول والتنزيل هذا ما ذكره الشيخ كاشفا بتحليله الحديث عن أهمية العلاقة ، ودورها فى ضبط المجاز العقلى ٠

وواضح أن تعريف الشيخ عبد القاهر يشمل النسبه الإيقاعية ، كقولك نومت الليل ، فقد أوقعت الفعل على غير ماحقه أن يوقع عليه ، وكذلك النسبه الإضافية كقوله تعالى : "وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا . . ﴿سبأ/٣٣﴾ ،فقد أضيف المكر إلى الليل مجازا ٠

وقد عرفه الخطيب القزوينى بقوله : هو إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ملابس له غير ماهو له بتأول (١)واضح أن هذا التعريف يخرج المبتدأ والخبر، والنسبتين الإيقاعية والإضافية ، مع أن الشيخ الخطيب نفسه ، قد ذكر فى المجاز

١) الإيضاح ٥٦/١ ٠

العقلى أمثلة مركبة من مبتدأ وخبر ، والجواب عنه فى ذلك بأن المجاز عنده فى إسناد الخبر إلى ضمير المبتدأ تمحل وتكلف ، لأن هذا الإسناد غير مقصود فى الكلام ، و إنما المقصود الإسناد إلى المبتدأ ألا ترى أنه مثل للحقيقة العقلية بقوله: خالق الأفعال كلها هو الله ٠

هذا والحكم فى ذلك لبليغ الأساليب فقد شاع فى أساليب العرب ، هذا اللون من الإسناد ، ولا يقول أحد بأنه حقيقة من ذلك قول الخنساء :

وما عجول على بوتطيف به ... لها حنينان إعلان وإسرار
ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت ... فإنما هى إقبال وإدبار
لا تسمن الدهر فى أرض وإن رتعت ... فإنما هى تحنان وتسجار
وما بأوجد منى يوم فارقنى ... صخر وللدهر إحلاء و إمرار (١)

فهى تصف شديد حيرتها ، وعظيم حسرتها ، فقد أبرز المجاز العقلى فى قولها :

فإنما هى إقبال وإدبار "إنها جعلت الناقة :كأنها خلقت من الإقبال والإدبار ، لكثرة ما تقبل وتدبر ، كذلك جعلتها كأنها خلقت من التحنان والتسجار ، لكثرة مايصدر ذلك منها ٠

كذلك ترى المجاز فى وصف الشىء بوصف محدثه وصاحبه كقولنا : الكلام الحكيم ، والكلام السخيف ،ومن عنوانات البلاغيين الأسلوب الحكيم ولا ينكر أحد ممن رزق حسا لغويا أن هذا من المجاز

هذا وقد ذهب سعد الدين التفتازانى إلى أن وصف الشىء بوصف

١) الديوان ٦٩ العجول : الثكلى من النساء الواله التى فقدت ولدها ، سميت بذلك لعجلتها فى مجيئها وذهابها جزعا ، البو: أن ينحر ولد الناقة فيؤخذ جلده ويحشى ويدنى من أمه ، تحنان : يقال حنت الناقة ، إذ اطربت فى أثر ولدها ، فإذا مدت الحنين وطربته قيل : قد سجرت تسجر سجرا إحلاء ، و إمرار : أى أن الدهر يأتى بالحلو المحبوب والمر المكروه٠

محدثه وصاحبه ، يمكن أن يدخل فى دائرة المجاز العقلى على تعريف الخطيب له. هذا إذا قلنا إن الملابسة الواردة فى التعريف أعم من أن تكون بواسطة حرف أو بدونها (١)وهذا اللون الذى معنا مما هو بواسطة حرف ، فحقيقته : هو حكيم فى كلامه ، هو سخيف فى كلامه .

بين التعريفين : الملحوظ أن تعريف الإمام عبد القاهر يشمل النسبه الإضافية والإيقاعية والمبتدأ والخبر ، فهو شامل لكل صور الإسناد ، لذا كان تعريفه أروق للمحدثين من البلاغيين من تعريف الخطيب القزوينى ، الذى لا يضم تعريفه إلا إسناد الفعل أو ما فى معناه

المجاز العقلى فى النسب الإنشائية والمنفية .

يدخل المجاز العقلى أيضا فى النسبة الإنشائية ، كما يدخل فى النسب الخبرية ، ويدخل فى النسب المثبتة كما يدخل فى النسب المنفيه ،اقرأ قوله تعالى: " وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب. ﴿غافر/٣٦﴾ المجاز فى ابن لى صرحا وليس هامان الوزير هو الذى سيبنى ، و إنما هو سبب فى البناء إذ هو ي أمر به وليس من المروءة أن يأمر الملك وزيره بمثل هذه الأفعال إلا أن إسناد البناء إلى هامان دل على خطر الأمر ، ولولا خطره ما أسند إلى الوزير ، المهم أنك تراه من المجاز العقلى بعلاقة السببية ، والقرينة هى ما قلت لك من أن العقل يأبى أن يأمر الملك وزيره بمثل هذا .

كذلك تراه فى النسب المنفية من ذلك قوله تعالى ،" أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين "﴿البقرة /١٦﴾فإسناد الربح إلى التجارة ليس على حقيقته وهو منفى كما ترى ، غير أن مجيئه على صورة المجاز العقلى ، أبرز تمام خسرانهم حتى تجاوزت الخسارة أصحابها إلى

١) المطول ٥٨ بتصرف .

التجارة نفسها ، فتعدت الخسارة ما يعقل إلى ما لا يعقل ، كما ينبىء عنه السياق الذى وردت الآية فيه ٠

أسماء المجاز العقلى :

تطالعك فى كتب التراث أسماء متعددة للمجاز العقلى ، إلا أنك ترى الاسم الغالب "المجاز العقلى "وهم يطلقون عليه أسماء أخر (المجاز الحكمى) (والمجاز الإسنادى) (المجاز النسبى) (المجاز فى الإثبات) (المجاز التركيبى) على أية حال فإنك ترى أن هذه الأسماء جميعا تتظاهر على بيان أن التجوز واقع فى طرفى الجملة ، وليس فى واحد منها ٠

سبب التسمية

قد سماه البلاغيون بالمجاز العقلى ، لأن التصرف فيه راجع إلى العقل لا إلى اللغة فقولنا :صام نهاره ، وقام ليله ليس للغة فيه شىء فالصوم هو الصوم والنهار هو النهار ، إلا أن التجوز حصل فى الإسناد ، وهذا شىء يرقبه العقل ، ولا ترقبه اللغة ٠

الفرق بينه وبين المجاز اللغوى

الفرق بينهما يكون بأمرين أولهما أن طريق التجوز فى المجاز العقلى هو العقل والفكر أما فى المجاز اللغوى فطريقه اللغة ٠

ثانيهما : أن المجاز اللغوى يكون فى اللفظ والمجاز العقلى يكون فى الإسناد وليس التفريق بينهما بالأمر الهين ، وآية ذلك أنك ترى السكاكى ينكر المجاز العقلى ، ويجرى شواهده على طريق الاستعارة بالكناية ، فالفروق بينهما دقيقة وغامضة ، والذى يطمئن إليه فى التفريق بينهما ، هو أنك ترى أى الطريقتين

فى الإجراء أبر بالمعنى ، وألصق بالسياق فتجريه عليها دون أن تشـغل نفسك بـمثل هذا ، ولا سيما أن البلغاء يدبجون أساليبهم على نحو يكشف أحاسيسهم ، ويحيط بهواجس نفوسهم ، ويشى بغمغمات صدورهم ، دون أن يعمدوا إلى أن هذا التعبير من أى واد ، ولا على أى طريقة فما تراه أوفق بالمعنى ، وألصق بالمراد فهو الأعلى

وما أحسن قول الشيخ أبى موسى،" واعلم أن المجاز فى الإسناد يضفى على الجملة ظلا خادعا من التلوين يحس من لا خبرة له ببناء الأساليب تجوزا فيها ، نعم هذا كائن ولذلك ذهب السكاكى إلى النظر فى المثبت له ، لافى الإثبات ، وأدخل المجاز العقلى فى قسم الاستعارة بالكناية ، تقليلا للأقسام. . . والمهم أن المتأمل للأساليب يجد فرقا بين المجازين فى أكثر الصور ، وإن كان يدق أحيانا وعلينا أن نفسر كل صورة بما يناسبها ، وبما هو الأظهر فيها من طرق البيان ، فلا نتكلف ولا نلوى أعناق الاستعارة لتوجهها على طريق المجاز فى الإسناد . . ولا أستطيع أن أضع حدا يهدى إلى الطريق الذى تخرج عليه الأساليب إلا المهارة الخاصة ، وحسن التذوق للفروق الدقيقة بين طعوم الأساليب المتشابهة (١)

علاقات المجاز العقلى

العلاقة إما أن تكون بين فاعل الفعل فى الإسناد المجازى ، وفاعله فى الإسناد الحقيقى، وهى من هذه الناحية غير متعددة ، وإما أن تكون بين الفعل وما فى معناه وبين الفاعل فى الإسناد المجازى وهى متعددة نوردها فيما يلى :

١-الفاعلية : وتكون بإسناد الفعل المبنى للمجهول أو مافى معناه إلى الفاعل : كقولنا : سيل مفعم (بالبناء للمفعول) ومعلوم أن السيل هو الذى يفعم المكان

١) خصائص التراكيب ٩٣ .

ويملؤه غير أنهم تجوزا فى الإسناد ، فأسندوا اسم المفعول إلى ضمير السيل، والعلاقة الفاعلية ، وقد جاء على هذه الطريقة إلماعا إلى طغيان هذا السيل وكثرته ووفرته ، لغاية تظن معها أنه مدفوع بغيره لكثرة مائه ، وغزارته .

ومن ذلك قوله تعالى :"وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا " ﴿الإسراء/٤٥﴾ تجد المفسرين يقولون فى (مستورا) ساترا لك (١) تأمل أنت جمال هذا المجاز وما يوحى به من تمام الحماية لسيدنا رسول الله ﷺ فقد صار الساتر مستورا وهو ينبىء عن تمام الستر وبلوغه مبلغا عظيما ، ويمكن أن يكون ذلك على الحقيقة ، لأنك تعلم أن الآية نزلت فيمن أراد الفتك برسول الله ﷺ ولم يكن الحجاب الذى عصم الله به نبيه ﷺ منهم ظاهرا يبصر ، و إنما كان مستورا ، فهو مع كونه ساترا مستور هو الآخر .

تأمل قول البقاعى:"حجابا" مالئا لجميع مابينك وبينهم مع كونه ساترا لك عن أن يدركوك حق الإدراك على ما أنت عليه " مستورا " عنهم وعن غيرهم ، لايراه إلا من أردنا وذلك أبلغ فى العظمة ، وأعجب فى نفوذ الكلمة (٢)

ودونك قول ابن عاشور " ووصف الحجاب بالمستور مبالغة فى حقيقة جنسه أى حجابا بالغا فى حجب ما يحجبه هو حتى كأنه مستور بساتر آخر ، فذلك فى قوة أن يقال : جعلنا حجابا فوق حجاب . .أو أريد أنه حجاب من غير جنس الحجب المعروفة فهو حجاب لاتراه الأعين ، ولكنها ترى آثار أمثاله ، وقد ثبت فى أخبار كثيرة أن نفرا هموا بالإضرار بالنبى ﷺ فما منهم إلا وقد حدث له ما حال بينه وبين همه ، وكفى الله نبيه شرهم (٣) فالأعلى أن يكون الإسناد هنا على الحقيقة ، وعلى اعتبار الحجاب هنا بمعنى الغطاء الذى يمنعهم

---

١) الفتوحات الإلهية ٢/ ٦٢٨ .

٢) نظم الدرر ٤/ ٣٨٧ .

٣) التحرير والتنوير ١٥/١١٧ .

الإيمان ، فهو مستور على الحقيقة أيضا وليس فى اعتبار الإسناد الحقيقى هنا مجافاة لروح العربية كما رأى بعض أهل العلم (١)

لما عرضت عليك من كلام هذين العلمين ، والقائلون بذلك كثير على رأسهم الزمخشرى (٢) ثم إنه لايصار إلى الفرع فى التعبير مادام فى إجراء الأصل يسر وسهولة .

المهم أن تعرف أنها سميت بالفاعلية ، لأن المسند إليه المجازى كان فى الأصل فاعلا فكأن فى التسمية لحظا للأصل ، وقد عرضت عليك الآية الماضية بالرغم من أنانطمئن إلى اعتبار الإسناد فيها حقيقيا لجريانها فى كثير من الكتب .

ومن أظهر الشواهد فى هذه العلاقة قوله تعالى: " جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا " ﴿ مريم/٦١ ﴾ فالأصل آتيا و إنما وقع كذلك ، إلماعا إلى أنه لا يتخلف .

٢- المفعولية : وتكون بإسناد الفعل المبنى للفاعل إلى المفعول به ، من ذلك قوله تعالى فهو فى عيشة راضية " ﴿ القارعة/٧ ﴾ فقد وقع التجوز فى الإسناد (راضية) فقد أسند اسم الفاعل إلى الضمير العائد على عيشة ، والأصل أن يكون الإسناد والاسم المفعول ، لأن العيشة مرضية لا راضية ، والأصل عيشة راض صاحبها ، وذلك الإسناد دال على عظم مايلقاه من ثقلت موازينه من النعيم حتى تجاوز الرضا ما يعقل إلى مالا يعقل ، وإذا ما كانت العيشة قد رضيت فما حال من يعيش فى الرضا ؟ ، والعيشة هى الحياة التى يتقلب أهل الجنة فيها ، قال البقاعى ولعله ألحقها الهاء الدالة على الوحدة - والمراد العيش - ليفهم أنها

١) الأسلوب بناؤه وإيحاؤه د. عبد الموجود بهنسى ١٠٦ .
٢) الكشاف ٢/٤٥١

على حالة واحدة في الصفاء واللذة وليست ذات ألوان كالحياة الدنيا (١) فإذا ضممت هذا إلى ماعرضت عليك من جمال المجاز ،أبصرت أن النعيم مع هذا الجلال دائم وثابت على حال واحد ة ·

ومن ذلك قوله تعالى:"فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب" ﴿ الطارق/٥، ٦، ٧ ﴾ فقد أسند إلى الماء (دافق) مالصاحبه فأفاد هذا الإسناد المجازى ، قوة دفق هذا الماء، كانه يدفق بنفسه وشىء آخر يوحى به هذا الإسناد ، وهو تنحية الحول والقوة عن الإنسان ، كما يوحى به السياق ·

ومنه قوله تعال :"ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين · قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم " ﴿ هود/٤٢،٤٣ ﴾ فقد أسند (عاصم) وهو وصف مشبه بالفعل – اسم فاعل – إلى ضمير اسم المفعول و العلاقة المفعولية ، بدليل قوله تعالى " إلا من رحم " أى لامعصوم إلا من رحمه الله ، فأسلوب الاستثناء يقتضى هذا ، لذا قال ابن عاشور "واستثناء (من رحم) مفعول يتضمنه (عاصم) إذ العاصم يقتضى معصوما وهو المستثنى منه (٢)ومن المشهور فى ذلك قول الحطيئة وكان لا يرعوى من هجاء أحد ، لذا تراه يهجو أمه :

تنحى فاجلسى منى بعيدا	أراح الله منك العالمينا
أغربا لا إذا استودعت سرا	وكانونا على المتحدثينا
حياتك ماعلمت حياة سوء	وموتك قديسر الصالحينا(٣)

١) نظم الدرر ٥١٤/٨ ·
٢) التحرير والتنوير ٧٧/١٢ ·
٣) الاغانى ٢/ ٤٦ ·

قال الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر

دع المكارم لاترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى (١)

والبيت كله يشيع تهكما بالزبرقان ، فالألصق بالتهكم أن يرد البيت على الإسناد المجازى بدل أن يقول : أنت المطعوم المكسو ، فينطفىء المعنى ، ولا يتلاءم مع مساق التهكم والهجاء ٠

٣- المصدرية : وتكون بإسناد الفعل أو ما فى معناه إلى مصدره ، ومن المشهور فى ذلك قول أبى فراس الحمدانى ٠

سيذكرنى قومى إذا جد جدهم وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

فقد أسند الفعل " جد " إلى المصدر (جدهم) والأصل إذا جدوا جدهم ، لكن الإسناد المجازى أبرز أن قومه سيذكرونه حين ينبهم الأمر،وتشتد الخطوب بهم ، لذا ترى الشطر الثانى يعانق الشطر الأول ،ولو جاء الإسناد حقيقيا،لنافر ما بعده ، ألا تراك تريد التعبير عن شعر يفيض شعورا وصدق إحساس ، فتقول : شعر شعر شوقى ،وهكذا ٠

٤- الزمانية : وتكون بإسناد الفعل أومافى معناه إلى الزمن ، وهى من العلاقات الكثيرة والشائعة فى الكلام البليغ من ذلك قول طرفة فى معلقته

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له وقت موعد(٢)

وقد قال هذه الأبيات مخاطبا عمرو الملك ، فاصطفى المجاز العقلى بعلاقة الزمانية فى هذه الأبيات " ستبدى لك الأيام " فالأيام لاتبدى ولكن يبدى فيها، وإنما أراد ابن العشرين ، أن يكشف أن أخباره ستذيع وتنتشر ، وأن أمر شجاعته ستتناقله الأيام ، فقد جعل الزمان يحس بإحساسه ويستشعر شجاعته

١) الاغانى ٢/ ٥٥ ٠

٢)الديوان ٤١ ٠

ويخبر بها الناس ومن حكم طرفه قوله وهو مما نحن فيه أيضا :

الخير خـــير وإن طـــال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد (١)

والشاهد فى قوله (وإن طال الزمان) وليس الزمان مما يعقل حتى يسند إليه الفعل ومن ذلك قول المتنبى يمدح أبا الفضل ٠

يعللنا هذا الزمان بذا الوعد ويخدع عما فى يديه من النقد

فقد أسند(يعللنا) إلى الزمان "كما أسند (يخدع) إليه ، والمعنى : لقد طال انتظارنا المهدى ، والدهر يعللنا ويعدنا بوعد طويل ، وأنه يخدعنا عما عنده من النقد بالوعد ، ومنه قوله في القصيدة نفسها بعد ثلاثة أبيات ٠

تفضلت الأيام بالجمع بيننا فلما حمدنا لم تدمنا على الحمد (٢)

فقد وقع المجاز العقلى فى موضعين " تفضلت الأيام " لم تدمنا ، وقد قال عنه العكبرى، وهذا من أحسن المعانى (٣) وأظن أن ذلك لاعتماده على المجاز العقلى ٠

وهو كما قلت منتشر وكثير فى الشعر العربى وفى الرثاء والنسيب خاصة وخذ منه فى الكتاب الحكيم قوله تعالى:" فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ﴿المزمل/١٧﴾ فقد أسند (يجعل) إلى ضمير (اليوم) وهو إسناد يوحى بشدة أهوال هذا اليوم فهو ينطق بالأهوال فى كل لحظة وان ،وتراه أيضا فى قوله تعالى : " فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير "﴿المدثر/ ٩، ١٠﴾ والمجاز يعلى من عسر هذا اليوم ، ويهول منه ٠

ومن ذلك قوله تعالى:" ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب"﴿هود /٧٧﴾ ٠

---

١)الديوان ٤٥ ٠

٢)الديوان ٢/ ٦٨ ، ٦٩

٣) التبيان فى شرح الديوان ٢/ ٦٩ ٠

فالإسناد المجازى فى (هذا يوم عصيب)، و إنما قيل ماقيل لأن أمر الشدة قد زاد واشتد وجاوز الحد ، فعبر المجاز عن هذه الشدة ومنه قوله تعالى " مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد" ﴿إبراهيم /١٨﴾ والمجاز فى قوله " يوم عاصف " فوصف هذا اليوم بأنه عاصف جعل اليوم نفسه عاصفا"والعصف وصف للريح ، ولكن انتقال هذه الصفة إلى اليوم يشير إلى شمول العصف ،واستغراقه اليوم كله ، ولو قال اشتدت به ريح عاصفة لأمكن أن تكون هذه الريح تعصف ساعة ثم تهدأ ، وفى ذلك إشارة إلى استمرار العصف الشديد بهذا الرماد ، والذهاب به فى كل أفق ، وليس بعد ذلك ضياع(١)

ومن ذلك قوله ": إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط" ﴿هود /٨٤﴾ وقوله : " ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود" ﴿هود/١٠٣﴾ وقوله:"حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم " ﴿الحج/٥٥﴾ ، وهكذا تراه كثيرا فى الذكر الحكيم وفى الشعر العربى ٠

٥- المكانية : وتكون بإسناد الفعل أو ما فى معناه إلى مكانه من ذلك قول كثير عزة

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على دهم المهارى رحالنا ... ولم ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

وهذه الأبيات مثار نقد قديما وحديثا ، فهى عند ابن قتيبة (٢)من الضرب الذى حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى ، أما الشيخ

١)الإعجاز البلاغى د٠ أبو موسى ١٠٥، ١٠٦ ٠

٢)الشعر والشعراء ٦٦/١

عبد القاهر فقد احتفل لهذه الأبيات . فقد جعل الأبيات مما قيل فيها كأنها الماء جريانا والهواء لطفا ، والرياض حسنا ، وكأنها النسيم ، وكأنها الرحيق مزاجها التسنيم ، وكأنها الديباج الخسرواني في مرامي الأبصار ،ووشي اليمن منشورا على أذرع التجار ثم أخذ في شرح علة هذا الوصف بأن مرجعه إلى ماحوته الأبيات من الاستعارات وغير ذلك (١)والشاهد في قوله : وسالت بأعناق المطي الأباطح ، وليست الأباطح مما يسيل ، ولكن الشاعر أسند سالت إليها تجوزا ، تعبيرا عن سرعة هذه الإبل ، لغاية يخيل للراكب أن الأباطح - التي هي مكان السير - هي التي تسير ويعلي من هذا تعليقه " بأعناق المطي "بـ " سالت" لأن السرعة والبطء يظهران غالبا في حركة أعناقها ، وحقيقة الإسناد كما تعلم سارت الإبل في الأباطح ، ولو عبر بهذا التعبير لانطفأ وهج البيت،وضاع جماله.

ومن ذلك قول المتنبي يمدح كافورا

أحن إلى أهلي وأهوى لقاءهم   وأين من المشتاق عنقاء مغرب

فإن لم يكن إلا أبو المسك أو هم   فإنك أحلى في فؤادي وأعذب

وكل امرىء يولي الجميل محبب   وكل مكان ينبت العز طيب (٢)

فقدأسند (ينبت) إلى الضمير العائد على المكان ، لأنه الأليق بمقام المدح ، فليس كافور هو الذي ينبت العز فيه فحسب ، بل إن المكان قد صار ينبت العز من طول ممارسة ذلك فيه

ومن ذلك أيضا قوله تعالى:"وأخرجت الأرض أثقالها ﴿ الزلزلة /٢ ﴾فقد أسند المولى -عز وعلا - الإخراج إلى الأرض ، وجعلها فاعلة ، وهي جماد"مضيا في تقرير مطاوعتها، وكونها مسخرة لمثل هذا . . . والمجاز هنا يقرر.

---

١) انظر أسرارالبلاغة ٢١ وما بعدها ط شاكر

٢) الديوان ١٨٣/١ .

تلقائية الحدث كأنه فى غير حاجة إلى محدث (١) فالاهتمام منصب نحو الأحداث نفسها ٠

ومنه قوله تعالى مصورا حال الثلاثة الذين خلفوا ، فأسند الضيق إلى الأرض تعبيرا عن شدة ما أصابهم من الغم ، والكرب ، حتى إن الأرض التى لا تعقل قد ضاقت عليهم وذلك فى قوله تعالى :" وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم " ﴿التوبه/١١٨﴾ فقد تعدى الفعل الساكين إلى المكان ، تأمل هذه الروعة فى التعبير القرآنى ، لاترى أبلغ منها على الأرض ، أضف إلى ذلك التعبير بحرف الاستعلاء (عليهم) إيماء إلىعظيم الأمر ، هذا وقد أجراها العلامة ابن عاشور على أنها استعارة على معنى أنهم تخيلوا الأرض فىأعينهم كالضيقة كما قال الطرماح :

ملأت عليه الأرض حتى كأنها من الضيق فى عينيه كفة حابل (٢)

وتأمل منه فى البيان الشريف قول كعب بن مالك – رضى الله عنه– "ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيهاالثلاثة (٣)من بين من تخلف عنه ، قال فاجتنبنا الناس٠وقال : تغيروا حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. . . (٤) كان الأرض عنده مبدية للنفور منه ، ومظهرة لكراهيته فقد لفظه كل شىء من الإنس وغيره مما يمكن أن يـــكون له به أدنى اعتـــلاق ، قال النووى معناه : تغير على كل شىء حتى

---

١) التفسير البيانى ط ٨٤، ٨٥ بتصرف د٠ عائشة عبد الرحمن ٠

٢)التحرير والتنوير ١١/ ٥٣

٣) الثلاثة هم كعب بن مالك ، ومرارة بن ربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى رضى الله عنهم وكان ذلك فى غزوة تبوك

٤)رواه مسلم فى كتاب التوبة باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه والترمذى مختصرا فى كتاب تفسير القرآن باب سور التوبة

الأرض ، فإنها توحشت على وصارت كأنها أرض لم أعرفها لتوحشها على (١) وقد أوله الإمام النووى ، بما يدخله فى الاستعارة ، كما مضى فى قول ابن عاشور فى الآية أيضا ، غير أن اعتبار الاستعارة هنا فيه تكلف ، والأعلى هو اعتبار المجاز الإسنادى ، فهو الأبعد من التكلف ، ثم إن اعتبار الاستعارة لا يعود على المعنى بشيء ، فالمعنى هو القطب الذى عليه المدار كما قالوا .

المهم أنك ترى كثيرا من شواهد هذه العلاقة فى الذكر الحكيم من ذلك قوله تعالى :

"فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها . . " ﴿البقرة/٦١﴾ فالإسناد فى قوله بما تنبت الأرض " مجاز عقلى ، وترى ذلك واضحا فيما يعبر الله به عن انتشار الفساد على الأرض ، لولا دفعه الناس بعضهم ببعض فى قوله :" ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . ﴿البقرة /٢٥١﴾ ففى إسناد الفساد إلى الأرض إيحاء بتمام شيوع الفساد حتى يتجاوز العقلاء إلى غيرهم ، ومن ذلك قوله : حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها . . " ﴿يونس/٢٤﴾ ،ومنه قوله تعالى فى المؤمنين فى غزوة حنين "ولقد نصركم الله فى مواطن كثيره ويوم حنين إذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴿التوبة/٢٥﴾ وقوله : (وضاقت عليكم الأرض) إسناد مجازى يدل على شدة الحال وصعوبتها قال البقاعى : فصرتم لاترون أن فيهامكانا يحصنكم مما أنتم فيه لفرط الرعب ، فما ضاق فى الحقيقة إلا ماكان من الآمال التى سكنت إلى الأموال والرجال (٢) .

٦- السببية : وتكون بإسناد الفعل إلى سببه ،وهذه العلاقة كثيرة الوقوع فى الذكر الحكيم من ذلك قوله تعالى : وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى ابلغ

١) النووى على مسلم ١١٠/٩ ط دار أبى حيان ١٩٩٥ هـ.

٢) نظم الدرر ٢٩٣/٣، ٢٩٤ .

الأسـباب . . ﴿غـافر/٣٦﴾ وقولـه "فـأوقد لى ياهامـان علـى الطـين فـاجعل لى صرحا . . ﴿القصص/ ٣٨﴾ ، فقد أسند الفعلين (ابن) و(أوقد) إلى هامان فى الآيتين الكريمتين ، وهو إسناد مجازى ، لأن الوزير لايؤمر بمثل هذه الاعمال كما ذكرنا ، و إنما أسند هذين الأمرين إليه، تنبيها إلى خطرهما حتى لو اقتضى الأمر أن يقوم بهما الوزير ، وهذه نكتة المجاز ، وأنت تعلم أن العلاقة هنا السببية ، إذ هامان هو الذى سيأمر العملة بهذاالعمل •

ومن ذلك قوله تعالى : وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا . . "﴿الأنفال /٢٠﴾ و إنما يزداد الإيمان بسبب الآيات ، غير أن الإسناد يريك شدة مدخلية الآيات فى زيادة الإيمان ، وكانها هى التى فعلت تلك الزيادة ومن ذلك قوله تعالى : مثل ماينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون"﴿آل عمران /١١٧﴾ فالريح لم تفعل الإهلاك ، و إنما كانت سببا فيه ، غير أن الإسناد أفاد عظم قدر هذا الباب فى ذلك الإهلاك ، حتى كأن الريح هى التى فعلته •

ومن ذلك قوله تعالى " أيضا " سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . . ﴿ألفتح/ ١٥﴾ والمراد شغلنا بسبب أموالنا . . غير أن الذكر الحكيم عدل عن ذلك إلى الإسناد المجازى ، إلماعا إلى إبلاغهم فى العذر، ويعلى من هذا أنهم قالوا : أموالنا وأهلونا " بالإضافة، فكأنهم قصدوا بذلك أنهم لم يخالفوا الرسول ﷺ إذ قد نهى عن ضياع المال والتفريط فى الأهل •

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : "إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط " ﴿آل عمران/١٢٠﴾ ، لا يكون الكيد ضارا، و إنما يقع الضرر بسببه ، غير أن الإسناد المجازى أبرز عظيم كيدهم ، وشديد تدبيرهم للإضرار بالمؤمنين •

وتراه كثيرا فى الشعر العربى أيضا ، انظر قول ابن المعتز يكشف بالإسناد المجازى عن عظم مدخلية عين الناس فى عدم رؤية محبوبه :

وحالت عيون الناس بينى وبينه　　فلست أراه خوف ذى رقبة فظ(١)

ومنه قول أبى الطيب وقد كتب إليه سيف الدولة يستدعيه :

فهمت الكتاب أبر الكتب　　فسمعا لأمر أمير العرب

وطوعا له وابتهاجا به　　وإن قصر الفعل عما وجب

وما عاقنى غير خوف الوشاة　　وإن الوشايات طرق الكذب (٢)

فأولى خوف الوشاة كبير عناية بإسناد الإعاقة إليه ، وهو لم يعق ، و إنما كان سببا فى منعه اللحوق بسيف الدولة ، وفى ذلك إبلاغ فى تقديم العذر ، أضف إلى ذلك أنه جاء بأسلوب القصر ، وبأصرح طرقه وآكدها ٠

ومنه قول أبى تمام يمدح محمد بن حسان :

عزم يفل الجيش وهو عرمرم　　ويرد ظفر الشوق وهو مقلم (٣)

فليس العزم يفل الجيش، و إنما أراد المبالغة فى وصف عزمه ، فأسند الفعل إليه٠ ومن شواهد الخطيب قول ابن الأحوص

فلا تسألينى واسألى عن خليقتى　　إذا رد عافى القدر من يستعيرها

هو يكنى عن كرمه وسخائه ، فإن من أخلاقه العطاء السخى حين يبخل الناس بعطاء القليل، أو المرق لشدة قحط الزمان ، والشاهد فى قوله إذا رد عافى القدر، والأصل إذا رد صاحب القدر من يستعير بسبب عافيها - غير أنه أسند الرد إلى عافى القدر (المرق أو الطعام القليل، وعافى القدر لا يتأتى منه فعل ذلك ، غير أن المنع يكون بسببه ، مما يظهر شدة الجدب ، وسوء القحط الذى

---

١) الديوان ٨١/٢

٢) الديوان ٩٦/١، ٩٧

٣) الديوان ٢١٤/٣

يجعل الناس يمنعون توافه الأشياء ، فهو المعطى حين يبخل الناس المهم أنك ترى المجاز بهذه العلاقة شائعا فى الذكر الحكيم وكلام العرب ٠

علاقات أخرى :

ذكر الزمخشرى علاقات أخرى للمجاز العقلى منها :

١- إسناد الفعل إلى الجنس كله ،وهو فى الحقيقة مسند إلى بعضه ، وهو كثير فى الشعر والقرآن الكريم منه فى الشعر :

قومى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى

فمعلوم أن القوم كلهم لم يقتلوا أخاه ، ولكن أراد أنهم لما رضوا بقتل أخيه فكأنهم كلهم قدقتلوه ٠

وفى الكتاب العزيز من ذلك قوله تعالى:"فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين" ﴿الأعراف/ ٧٧﴾ قال الزمخشرى أسند العقر إلى جميعهم، لأنه كان برضاهم،وإن لم يباشره إلا بعضهم(١)

ومنه قوله تعالى"وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ماكنتم تكتمون" ﴿البقرة/٧٢﴾ ، فقد أسند القتل إلى الكل ، والقاتل واحد ، لأن ذلك عادة العرب، لأن عادة القبيلة المدافعة عن أحد هم فقال : "قتلتم " فأقبل عليهم بالخطاب توبيخا لهم وإشارة إلىأن الموجودين منهم راضون بما مضى من أسلافهم، وأن من ود شيئا كان من عملته (٢)

٢- الآلية ، وقد ذكرها شيخنا الدكتور أبو موسى نقلا عن الزمخشرى فى قوله تعالى " ومن يكتمها فإنه آثم قلبه "﴿البقرة/٢٨٣﴾قال الزمخشرى : " فإن قلت هلا اقتصر على قوله آثم ؟ وما فائدة ذكر القلب ، والجملة هى الآثمة لا القلب وحده ؟ قلت : كتمان الشهادة هى أن يضمرها ، ولا يتكلم بها ، فلما كان آثما

١)الكشاف ٩١/٢ ، خصائص التراكيب ٧٦
٢)نظم الدرر ١٧٢/١ ٠

مقترفا بالقلب أسند إليه ، لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ ، ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد هذا مما ابصرته عينى ، ومما سمعته إذنى ومما عرفه قلبى(١)، قال الدكتور أبو موسى ، وقد يسند الفعل إلى الجارحة التى هى آلته(٢) ثم ساق الآية الكريمة ، وأتبعها بكلام الزمخشرى ٠

ربما تحضرك هنا شبهة ، وهى أنه يمكن أن تعد هذه الآية الكريمة من قبيل المجاز المرسل بعلاقة الجزئية ، حيث أطلق الجزء (قلبه)وأراد الكل ،وهو الكاتم ، ونقول إن الآية مقيسة على قوله تعالى : " ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد" ﴿الحج/١٠﴾ونظائر هذا المجاز كثيرة ،وقد تقول إن كلامى يؤيده كثير من أهل العلم فقد صرح بعضهم بأن الآية (آثم قلبه) من التعبير بالبعض عن الكل ، ومن لم يصرح يفهم كلامه هذا (٣)

قد تقول كل هذا وغيره ، ولكنى أقول لك إن حديثنا عن التجوز فى الإسناد، وليس عن التجوز فى الألفاظ، وأنا معك فيما أبصرته من اعتبار لفظ قلبه "من المجاز المرسل وعلاقته الجزئية، أو الحلية ، لأن القلب محل الكتمان ، أو الآلية لأن القلب - العقل - آلة الكتمان ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون هناك تجوز فى الإسناد أيضا ، لأن المجازين يجتمعان كما سيأتى فى الكلام على صور المجاز العقلى باعتبار طرفيه ٠

يمكنك الآن أن تعد من هذه العلاقة " ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد" ﴿الحج/١٠﴾ونظائرها مما ذكر فيها لفظ اليد فى الذكر الحكيم(٤)

١) الكشاف ٤٠٦/١
٢) خصائص التراكيب ٧٦ ٠
٣) مفاتيح الغيب ٢٧/٤، البحر المحيط ٣٥٧/٢، أنوار التنزيل ١٤٦/١، تفسير القرطبى ١٢٢٣/٢، الفتوحات الإلهية ٢٣٦/١، نظم الدرر ٥٥١/١ ، التحرير والتنوير ١٢٨/٣ ٠
٤) راجع الكهف ٥٧، النبأ ٤٠ ، المسد آيه ١

ومن ذلك قول الشاعر

ولما أبت عيناى أن تكتما البكا وأن تحبسا سح الدموع السواكب
تثاءبت كى لا ينكر الدمع منكر ولكن قليلا مـــا بقاء التثاؤب

ففى (تكتما وتحبسا) إسناد مجازى إلى ضمير العينين ، لأن كتمان البكاء وحبس الدموع إنما يصدران على الحقيقة من الشخص الذى يملك بإرادته أن يتحكم فى ذلك بواسطة عينيه ، فدورهما دور الآلة التى يتحقق بها الفعل ، ومن أجل تلك العلاقة التى تربط بينهما صح هذا الإسناد، فجعل ماهو آلة للفعل فاعلا على سبيل التجوز والمبالغة

ومنه قول كثير يمدح عبد العزيز بن مروان .

رأيت ابن ليلى يعترى صلب ماله مسائل شتى من غنى ومعدم
مسائل إن توجد لديه تــجد به يــداه وإن يظــلم بها يتظلم

فاليد ان لا تجودان ، و إنما يجود صاحبهما ، وما هما إلا آلة الجود والعطاء (١)

٣- وقد يسند الفعل إلى مالـه مزيـد اختصـاص وقربى بالفـاعل الحقيقى يقـول الزمخشرى فى قوله تعالى" إلا امرأته قد رنا إنها لمن الغابرين" ﴿الحجر/٦٠﴾ فإن قلت : لم أسند الملائكة فعل التقدير وهو لله وحده إلى أنفسهم ولم يقولوا قدره الله؟ قلت : لما لهم من القربى والاختصاص بالله الذى ليس لأحد غيرهم -كما يقول خاصة الملك : دبرنا كذا، وأمرنا بكذا والآمر هو الملك لاهم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم ، وأنهم لايتميز ون عنه " (٢)

ويمكنك ألا تقبل هذا وتعتبر أن معنى قدرنا علمنا ، وعليه فلا مجاز ، أو أن تعتبر أنه من كلامه تعالى غير محكى عن الملائكة كما قال ابن المنير (٣) إلا أن اعتبار المجاز أولى وأبعد من التكلف .

---

١) من أسرار التركيب البلاغى للمرحوم د. سيد حجاب ٢٢، ٢٣ .
٢)الكشاف ٣٩٤/٢ وخصائص التراكيب ٧٦ .
٣) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ٣٩٤/٢

بلاغة المجاز العقلى :

يمكن تلخيص الأغراض التى يحققها كل إسناد مجازى فى غرضين

١– المبالغة ٢– الإيجاز

أما المبالغة فتأتى من طريق أنك تثبت الشىء لغير فاعله ، فتؤكد بذلك المعنى ، وأما الإيجار فإنك لو رجعت بالمجاز إلى الحقيقة لاستغرق ذلك ألفاظا أكثر من التعبير المجاز، وقد قالوا : البلاغة الإيجاز، وهذان مقصودان وراء كل إسناد مجازى، وليست البلاغة فى أن تذكرها عند كل شاهد يعرض ، ولكن البلاغة هى أن تشرح فى كل مثال كيف كانت المبالغة ، وكيف كان الإيجاز وكيف تكاثرت به الفائدة

قرينة المجاز العقلى

لابد لكل مجاز عقلى من قرينة تدل على عدم إرادة المعنى الظاهر من الإسناد ، وإلاصار الكلام إلى الإلغاز والتعمية والقرينة نوعان :

١– قرينة لفظية : وذلك أن يكون فى الكلام لفظ يصرفه عن ظاهره كما فى قول الصلتان العبدى:

أشاب الصغير وأفنى الكبير كر الغداة ومر العشى

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضى

فملتنا أننا مسلمون على دين صديقنا والنبى

فقد أسند (أشاب) و(أفنى) إلى غير فاعليها (كر الغداة) و(مر العشى) والذى دلنا أن الإسناد هنا مجازى هو قوله بعد وملتنا أننا . .هذا وقد ذكر الخطيب (١)أن هذا غير محمول على المجاز ،ويبدو أنه قال ذلك لأنه لم يقع على قصيدة الشاعر كاملة ، أما وقد وجدت القصيدة ، ووجدت فيها الأبيات

١) الإيضاح ١/٥٨

التى توضح عقيدته فيجب حمل الإسناد على المجاز كما بين الشيخ عبد المتعال الصعيدى (١)

ومن هذا الضرب أيضا قول أبى النجم :

قد أصبحت أم الخيار تدعى   على ذنبا كله لم أصنع
من أن رأت رأسى كرأس الأصلع   ميز عنه قنزعا عن قنزع
جذب الليالى أبطىء أو أسرعى

فقد أسند (ميز) إلى (جذب الليالى) وهو إسناد مجازى بقرينة قوله عقيبه .

أفناه قيل الله للشمس اطلعى   حتى إذا واراك أفق فارجعى (٢)

٢- قرينة معنوية : وذلك بأن يكون مع الإسناد أمر معنوى يصرفه عن ظاهره كان يحكم العقل باستحالة قيام المسند بالمسند إليه ، كقولنا : طريق سائر وإما أن تحكم العادة باستحالة ذلك ، كما فى قول الله تعالى:" وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا . ." فإن العادة تحكم بأن الوزير لايبنى بنفسه و إنما يأمر غيره وإما أن تكون القرينة فى المتكلم بالكلام المجازى، كأن يصدر من موحد كما فى كثير من الشعر ، والقرينة المعنوية هى أكثر من القرينة اللفظية .

صور المجاز العقلى باعتبار طرفيه

المراد بالطرفين هنا المسند والمسند إليه ، وهو يرد على أربع صور ، لأن اللفظ إما مجاز وإما حقيقة وهما طرفان فيكون الناتج أربع صور :

١- أن يكون الطرفان حقيقتين كقول الشاعر

لقد لمتنى يا أم غيلان فى السرى   ونمت وما ليل المطى بنائم

والشاهد فى قوله (وما ليل المطى بنائم) واللفظان حقيقتان (ليل) (نائم)

---

١) بغية الإيضاح ٥٨/١
٢) القنزع : الشعر المجتمع فى نواحى الرأس، والأصلع الذى سقط شعر مقدم رأسه

٢- أن يكون الطرفان مختلفين بأن يكون المسند مجازا والمسند إليه حقيقة كقول المتنبى

وتحيى له المال الصوارم والقنا ويقتل ما يحيى التبسم والجدا(١)

فقد أسندالشاعر (تحيى) إلى (الصوارم) والأول ، وهو المسند استعارة (والصوارم) حقيقة، وكذلك (يقتل) مسند مجازى ، و(التبسم) مسند إليه وهو حقيقة لغوية.

٣- أن يكونا مختلفين بأن يكون المسند حقيقة والمسند إليه مجازا ، كقولنا: أنبت الأرض شبابُ الزمان ، فأنبت مسند وهو حقيقة ، وشباب الزمان مسند إليه وهو استعارة

٤- أن يكون الطرفان مجازين ، وذلك كقولنا أحيا الأرض شباب الزمان فإن (أحيا) مسند وهو مجاز ،و (شباب الزمان) مسند إليه ، وهو مجاز أيضا ٠

هذه هي الصور التى يأتى عليها المجاز العقلى بالنظر إلى طرفيه ، وقد رأيناه يجامع المجاز اللغوى ، فهما يتعانقان فى إيراد المعنى ، ولا يتعاندان ، ويختص اللغوى باللفظ والعقلى بالإسناد ٠

استلزام المجاز العقلى الحقيقة :

ليس بالضرورة عند الشيخ عبد القاهر أن كل صور المجاز العقلى يمكن ردها إلى الحقيقة ، لأن من شواهد المجاز العقلى ماشاع حتى ظن أنه حقيقة ، ومعنى هذا أن الشيخ يرفض تكلف حقيقة لكل مجاز ،يقول الشيخ:"واعلم أنه ليس بواجب فى هذا أن يكون للفعل فاعل فى التقدير إذا أنت نقلت الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة ، مثل أنك تقول فى " ربحت تجارتهم " ربحوا فى تجارتهم. .فإن ذلك لايتأتى فى كل شىء ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل فى نحو : أقدمنى بلدك حق لى على إنسان فاعلا سوى الحق ، وكذلك لا تستطيع فى قوله:

١) الديوان ١/٢٨٢ ٠

وصيرنى هواك وبى   لحينى يضرب المثل

وقول أبى نواس :

يزيدك وجهه حسنا   إذا ما زدته نظرا

أن تزعم أن لـ "صيرنى" فاعلا قد نقل عنه الفعل ، فجعل للهوى ، كما فعل ذلك فى (ربحت تجارتهم . .) ولا تستطيع كذلك أن تقدر لـ "يزيد: فى قوله: يزيدك وجهه حسنا فاعلا غير الوجه (١)

هذا ما ذهب إليه الشيخ ، وهو الأولى لبعده من التكلف ، ولأن إعمال الذهن فى هذا لايفيد فى فقه الكلام ، واستكشاف أسراره ، وقد أوجب الخطيب القزوينى أن يكون لكل مجاز عقلى حقيقة عدل عنها إليه ، ثم أوّل ماذكر الشيخ عبدالقاهر أنه لا فاعل له على الحقيقة فقال فى قول أبى نواس ·

أى يزيدك الله حسنا فى وجهه لما أودعه من دقائق الجمال متى تأملت(٢) ولعمرى أى فائدة عادت على فقه النص من جراء هذا التأويل ؟ وعدم الفائدة من جراء ذلك ، هى التى دفعت الإمام عبدالقاهر إلى عدم تكلف الحقيقة متى لم تتضح وتظهر ، لأن الاشتغال بأسرار الكلام وفقهه أعلى من ذلك ، وهذا لايعنى أن الشيخ ينكر أن لكل مجاز حقيقة عقلية

وحجة من قال بوجوب أن يكون لكل مجاز عقلى حقيقة ، هى أنه من المحال وجود فعل دون فاعل ، وشىء آخر هو أن المجاز فرع عن الحقيقة، وكيف يتحقق الفرع بدون تحقق الأصل (٣)؟ وعند التأمل ترى أن الشيخ لم يخالف فى ذلك ولم يمار فيه ، وإذا كان مدار الأمر عنده على الفائدة التى تعود على معايشة الكلام واستخراج كنوزه وأسراره، فليس فى المسألة خلاف عند التحقيق · .

---

١) دلائل الإعجاز ٢٨٨

١) الإيضاح ١/٦٨ ، ٦٩ ·

٢)نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ١٢٢، والمفتاح ٣٩٧، ٣٩٨ بتصرف

موقف السكاكى من المجاز العقلى :

يتحدث الشيخ السكاكى عن المجاز العقلى ، ثم يبين أن ماذكره إنما هو رأى (١) الأصحاب ، أما هو فيرى أن يسلك المجاز العقلى فى الاستعارة المكنية فالمجاز عنده لغوى كله وحجته فى ذلك تقليل الأقسام ،ولكن هذه الحجة يناقضها نهجه فى كتابه ، فإن تقسيماته كانت عقلية غير ناظرة إلى النصوص ، وبإمكانك إبصار هذا فى تناوله المجاز وتقسيمه إلى مفيد وغير مفيد والمفيد إلى استعارة.. إلى آخر ذلك .

وكيف يكون المجاز العقلى استعارة مكنية ، ومعلوم أن الاستعارة المكنية قائمة على علاقة المشابهة ، أما المجاز العقلى فقائم على علاقات متعددة ، ثم إن فى إلغاء المجاز العقلى مدعاة للتكلف فى تخريج شواهده على طريقة الاستعارة المكنية .

ولا ينبغى أن نهدر قدرا ضخما من أساليب المجاز العقلى فى اللغة وفى الذكر الحكيم ، لأن رغبتنا تقليل الأقسام !

وقوعه فى القرآن الكريم :

هذا العنوان الموجود فى الإيضاح ، كأنه رد على من أنكر وقوع المجاز فى القرآن الكريم والناس من المجاز بعامة على ثلاث طوائف ، طائفة تقول بالمجاز فى اللغة و القرآن وطائفه تقول بالمجاز فى اللغة وتنكره فى القرآن الكريم، وطائفه تنكره فى اللغة والقرآن الكريم (٢)وشبهة من أنكروا القول به فى القرآن الكريم،" أن المتكلم لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير ، وهو مستحيل على الله سبحانه وهذا باطل ، ولو وجب خلو القرآن

١) مفتاح العلوم ٤٠٠، ٤٠١ بتصرف .

٢) انظر البرهان ٢/٢٥٥، الإتقان ٢/٤٧

من المجاز لوجب خلوه من التوكيد والحذف ، وتثنية القصص وغيره ، ولو سقط المجاز من القرآن لسقط شطر الحسن (١)، وهذه القضية شاع القول فيها قديما وحديثا، ترى لها وجودا بين طوائف أهل العلم فتجدها عند اللغويين والمفسرين والمحدثين والنقاد والأدباء والبلاغيين والفقهاء والأصوليين (٢) والراجح من هذه الأقوال الثلاثة هو القول بالمجاز فى اللغة والقرآن الكريم وهو رأى جمهور علماء الأمة ٠

---

١) البرهان ٢/٢٥٥ ٠

٢) كتب أ٠د٠ عبد العظيم المطعنى كتابا مبسوطا فى هذه القضية سماه المجاز فى اللغة و القرآن الكريم بين الإجازة والمنع ط وهبة ٠

الفصل الثانى

أحوال المسند اليه

ينحصر حديث البلاغيين عن أحوال المسند إليه فيما يلى :

١- حذفه ٢- ذكره ٣- تعريفه ٤- تنكيره

٥- تقديمه ٦- وضع المظهر موضع المضمر وعكسه ٧- الالتفات

٨- أسلوب الحكيم ٠

القيمة البلاغية للحذف

العقول النابهة والأفئدة الذكية مولعة أبدا بالبحث والتنقيب ،وشغوفة بما يثير أحاسيسها ويحرك مشاعرها ،ويلفت انتباهها ، لذا ترى لها ولعا بالحذف ، إذ ترى فيه تلبية لرغبتها واحتفالا بهواها ، لذا تمج ماكان واضحا مبتذلا يتساوى فى إدراكه النابهون والغافلون ٠

والحذف من طبيعة العربية وعبقريتها إذ بنيت على الإيجاز والاختصار، واكتفت عن ذكر الشىء بذكر الدليل عليه ، وهذا كائن أبدا فى طرائق العربية فإذا عدلت عن هذا الطريق فإنما تعدل لمقصد بلاغى وإيحاء أسلوبى ٠

والحذف عند أئمة أهل العلم من سنن العربية كما ذكرنا ، قال السيوطى رحمه الله : ومن سنن العرب الحذف والاختصار ، يقولون : والله أفعل ذاك ، تريد لا أفعل ٠ وأتانا عند مغيب الشمس ، أو حين أرادت ، أو حين كادت تغرب (١) وهم فى ذلك يعتمدون دلالة الحال أصلا فى تشكيل المعنى المراد ، والحذف عندهم -اتكاء على دلالة الحال - جار كثير فى كلامهم ،ويكون الحذف عندهم في جزء الكلمة والكلمة والكلمات والجمل بتفاوت أعدادها ، وهو مانبه إليه العلامة ابن جنى -رحمه الله- حين عقد بابا فى الخصائص "فى أن المحذوف إذا

---

١) انظر المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ٣٣١/١

دلت الدلالة عليه كان فى حكم الملفوظ به ، إلا أن يعترض هناك من صياغة اللفظ ما يمنع منه. من ذلك أنك ترى رجلا قد سدد سهما نحو الغرض ثم أرسله، فتسمع صوتا فتقول . القرطاس والله ، أى أصاب القرطاس. ف (أصاب) الآن فى حكم الملفوظ به ألبتة ، وإن لم يوجد فى اللفظ غير أن دلالة الحال عليه نابت مناب اللفظ(١)،وقد ذكر - رحمه الله - أن العرب تعمد إلى هذا الطريق للتخفيف والاتساع .

وقد أورد كثيرا من شواهد الحذف بمستوياته التى ذكرناها وسماه "باب فى شجاعة العربية " قال فيه : "قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف ، والحركة، وليس شىء من ذلك إلا عن دليل عليه ، وإلا كان فيه ضرب من تكلف علم الغيب فى معرفته .(٢)وهو يشير -رحمه الله - إلى شرط مهم جدا فى الحذف ،وهو أن يكون فى الكلام دليل منصوب يدل على الحذف،وإلا كان الكلام ضربا من التعمية والإلغاز ،وخرج عن باب الكلام الممدوح . وقوله هذا تهذيب لتسمية الباب بشجاعة العربية ، إذ ليست الشجاعة تعنى التهور وعدم الانضباط، و إنما تعنى ضبط الخطى وتنظيم المسير،وقد تحدث الثعالبى أيضا عن الحذف ،وجعل عمدة مقاصد العرب من الحذف الاقتصار والإيجاز (٣)

وهو ما أشار إليه العلوى -رحمه الله- بقوله: اعلم أن مدار الإيجاز على الحذف لأنه موضوع على الاختصار ، وشرط لذلك شرطين أن يكون الحذف غير مخل بالمعنى وألا ينقص من بلاغة الكلام . بل أنه لايصار إلى الحذف عنده إلا إذا كان ذكر المحذوف ينزل من قدر الكلام عن علو بلاغته ويجعله مستركا مسترذلا مذهبا لطلاوة الكلام وحسنه ورقته ،وجعل خلو الكلام من الدليل على

---

١)الخصائص لابن جنى ٢٨٥/١ ، ٢٨٦

٢) الخصائص لابن جنى ٣٦٢/٢ .

٣) فقة اللغة للثعالبى ٢٢٣ .

المحذوف لغوا (١)

ودونك عبارة الشيخ الإمام – فإنها تكشف عن خطر هذا الباب وحلاوته وعذوبته –فى حديثه عن الحذف يقول:"هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق ،وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن ·(٢) والشيخ يومىء إلى أنه لايجترىء على الحذف إلا يد صناع خبرت دواعى الحال ومسالكه ،وعرفت سنن العربية فى الحذف وشجاعتها ، ووضعت فى حواشى كلامها مايكشف عن مرادها حلوا عذبا، بل تبنى كلامها على هيئة لايستساغ سواها، ولا يقترح غيرها هذا هو خطر هذا الباب كما نبه إليه أسلافنا·

ولعلك تسأل عن علة تقديم البلاغيين الحديث عن أحوال الحذف على الحديث عن أحوال الذكر نظرا إلى أن الذكر هو الأصل مما أغرى بعض أهل العلم فقدموا الحديث عن الذكر (٣) وقد أجاب سعد الدين على هذا التساؤل إجابة عقل جاس خلال الأشياء وخبرها ، وهو ممن له قدم ثابتة فى الأصول والبلاغة والنحو قال – رحمه الله – عن تقديم الحديث عن الحذف " قدمة على سائر الأحوال ، لأنه عبارة عن عدم الإتيان به ، وهو متقدم على الإتيان لتأخر وجود الحادث عن عدمه (٤)

وكلامه واضح فى أن الحذف هو الأصل وليس الذكر هو الأصل ، وهو جواب سديد ، يضاف إليه توجيه المغربى من أن الخطيب القزوينى –رحمه الله –

١) الطراز للعلوى ٢/ ٩٢.

٢) دلائل الإعجاز ١٤٦ ط شاكر ·

٣) انظر المعانى فى ضوء أساليب القرآن الكريم د/ عبدالفتاح لاشين ١٨١، ١٨٨ ، الأسلوب بناؤه وإيحاؤه د / عبد الموجود بهنسى ٢٥٤، ٢٩٢.

٤) المطول ص ٦٧ .

بدأ بالحديث عن الحذف ، لأن سائر أحوال المسند إليه متفرعة على ذكره ، لذا أخره (١) وقدقدم الحديث عن أحوال المسند على الحديث عن أحوال المسند إليه ، لأنه الركن الأهم فى الجملة العربية ، وهو المحكوم عليه ، فلا وجود للحكم بدونه.

شروط حذف المسند إليه :

مضى فى الحديث المنقول عن أهل العلم أنه لابد فى الحذف من :

١) قرينة دالة على الحذف كاشفة عنه ، وهذا يعنى أن تكون تراكيب الجملة نصبة على ماحذف من الكلام ، وهو شرط يضبط الحذف ويضع له حدودا لا يجوز تعديها .

أن يكون وراء هذا الحذف من تربية المعنى وتكثيره مايرجحه على الذكر ويجعل إيجاءات الحذف أثرى وأغزر ، وألطف وأرق .

المقاصد البلاغية لحذف المسند إليه :

من العبث أن يحاول أحد تحديد أسرار بلاغية لحذف المسند إليه، وذلك أن أسرار النفس لاتتناهى ، وأحاسيسها لا يمكن ضبطها لكثرة ما يعتريها ، ولأن الكلام كما يحمل إحساس المنشىء والأديب فكذلك يحمل إحساس المخاطب ، ويشى بالمقام ، ويطوى أسرارا لايمكن أن تضبط ولا يجوز أن يقال : إنه قد حذف المسند للاختصار لأن هذا المقصد هو مما تهدف إليه العربية فى كل حذف سواء كان فى الحرف أم فى الحركة أم فى الكلمة أم فى الجملة أم فى الجمل ، فهو مقصدعام تستطيع أن تذكره عند كل حذف فى الكلام تقع عينك عليه .

كذلك لاتستطيع أن تقول. إن المقصد من حذف المسند إليه فى جملة ما هو الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر والظاهر هذا هو أن يجمع بين الدليل والمدلول عليه فى الكلام ،وهو ما يجعل الكلام طويلا من غير فائدة مما يجعله شبيها

---

١) انظر مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٢٧٣/١ .

بالعبث، لأن ذكر جزء من الكلام لا يعد عبثا لأنك سترى فى أحوال الذكر شواهدجمع فيها بين الدليل والمدلول عليه فى الكلام ·

و إنما يقصدون بالعبث أن يكون الذكر خاليا عن الفائدة ، ولكنه فى الوقت ذاته لايفسدالمعنى· هذا ماتومىء به حواشى كلمات أهل العلم· ولا يمكن أن يكون هذا مقصدا خاصا بأسلوب ، و إنما تراه واضحا فىكل أسلوب بنى على الحذف·

كذلك لاتستطيع أن تقول فى أسلوب ما إن الحذف هنا وقع لإثارة الانتباه والحس وتنشيط الخيال، لأن ذلك كائن وراء كل أسلوب بنى على الحذف، فهذه ثلاثة مقاصد عامة من الممكن أن تبصرها وراء كل أسلوب وقع فيه الحذف·

ثم إنك مع هذه المقاصد العامة ترى وراء كل حذف سرا ومقصدا تنادى التراكيب عليه ، وتوحى به حواشى الكلام ،ويبقى فى كل جملة سرا خاصا بها وإيحاءا لا يوجد فى غيرها ·وقد ذكر البلاغيون لحذف المسند إليه أسرارا محدوده ، لايقصدون بها حصر الأحوال و إنما يدلون بها على غيرها لأن وراء كل أسلوب دواعى خاصة، "ترتبط بالتعبير فى نطاق وروده ضمن سياق خاص ، وهذا يتلمس فيما يوحى به السياق من معان وما يومىء إليه من اعتبارات ، فقد يوحى الحذف بمعنى معين فى سياق ، ثم يوحى بضده فى سياق آخر"(١) وسنذكر بعض الأسرارالبلاغية الكامنة وراء حذف المسند إليه بعدما أجملنا المقاصد العامة ، وهى ثلاثة كما مضى ·

١- *ضيق المقام:*

وهذا يعنى إبصار هذا المقام لاستكشاف سبب ضيقه ،وقدذكر البلاغيون أن ضيق المقام قد يكون بسبب الشعر ، ومعنى هذا أن الشعر بنظامه الصارم لايستطيع شاعر أن يخرج عليه ، فتمتد يده إلى بناء الكلام لتحذف منه

---

١)مستتبعات التراكيب بين البلاغة القديمة والنقد الحديث د· عبد الغنى بركة ص ٩٦ ·

ماسبب ذكره خروجا على هذا النظام ، وليس هذا مقصدا بلاغيا لأن الشاعر الحاذق يحيل اللغة بوسائلها أداة لمعناه وإيحاءاته وبث مقصوده ، وليس شاعرا من تعجزه قوانين الشعر وتسيطر عليه ، وقد استشهدوا لذلك بقول الشاعر :

قَالَ لِى كَيْفَ أَنتَ ؟ قلْت عَلِيل   سهر دائِم وَحُزن طَوِيل (١)

فليس الشعر هو الذى ألجأ الشاعر إلى حذف المسند إليه فلم يقل:(أنا عليل . .) بل إن لفظ الخبر كشف عن سر هذا الحذف ، فقد فعل به الإعياء مافعل، حتى لم يصر له ذكر فحذف نفسه من الجواب تلاؤما مع لفظ الخبر ، وإيحاء بحاله فى حواشى الكلام ترى هل يبقى السهر الدائم والحزن الطويل من بدنه شيئا ؟ فالأعلى أن يقال : إن الحذف هنا وقع للإيحاء بالإعياء، أو أن " إحساس الشاعر بالعلة قد تضخم حتى شمل مساحة عريضة من ذاته ، فأصبح ذكر ذاته لاقيمة له لأنها منسحقة تحت لفظ عليل (٢) ومما وقع فيه الحذف للإيحاء بالهلكة وضيق النفس قول بكر بن النطاح فى جارية كان يحبها، وحالت السعاية إلى قومه بينهما فلم يجتمعا فقال :

العَيْن تبدِى الحُبَّ والبُغْضَا   وتظـــهر الإبرام والنقضا
درة ما أنصفتنى فى الهوى   ولا رحمت الجسد المنضى
غضبـــى ولا والله ياقومها   لا أطعم البارد أو ترضـــى

ترى الشاعر المولع بالحب والشوق وألم الفراق قد بنى كلامه على هذا النحو المحكم ليوحى بذلك عن ضيق نفسه وأسى لوعته ، فهو قدأعطاها مهجة قلبه وسويداء فؤاده ، وهى لم تنصفه ،ولم ترحم جسده المتعب من السفر النفسى والحسى فى حبها، وتراه قد حذف المسند إليه فى البيت الثالث "غضبى" والأصل " هى غضبى " إلماعا إلى حالتـــه وشقاوته ألا تراه آلى على نفسه ألا

---

١) بغية الإيضاح ١/ ٧٦

٢) فلسفة البلاغة بين التقنيه والتطور د/ رجاء عيد ٨١ .

يطعم مطعوما باردا أو ساخنا ،وأن يظل على كبد حرى حتى ترضى عنه صاحبته

ومما هو رائع فى الدلالة على ضيق النفس ، وكشف أحاسيس الشعراء بحال الوطن قول حافظ ·

يقولون فى النشء خير لنا	وللنشء خير من الأجنبى
أفى الأزبكية مثوى البنين	وبين المساجد مثوى الأب ؟
وكم ذا بمصر من المضحكات	كما قال فيها أبو الطيب
أمور تمر ،وعيش يمر	ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحات	فرار السليم من الأجرب
وصحف تطن طنين الذباب	وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير	ويدعو إلى ظله الأرحب

لذع الأسى يحيط بالرجل من كل جانب ، لما يراه من انصراف الشباب إلى اللهو والمجون ،وانصراف الشيوخ إلى المساجد دون تفكير فى حال البلاد ، فكأنهم يفرون من الصالحات كأنها عدوى ترهبهم ، كما يفر السليم من الأجرب ، ولا قيمة للصحف فإن أثرها كأثر طنين الذباب والمرارة بادية من أول كلمة ، ولكن انظر إلى قوله :أمور تمر، وعيش يمر، وشعب يفر وصحف تطن ، فقد حذف المسند إليه فى أربعة مواضع -كما ترى- ولهذه الجمل وقع الصاعقة على النفس ،حيث ساقها غير مسبوقة بالمسند إليه ،ليباشر سمعك بها فتحس وقع الألم كما أحسه ،ولو أنه قال : هذه أمور تمر ، وهذا عيش يمر ، وهذا شعب يفر ، وتلك صحف تطن لما نقل إليك إحساسه بتلك الطريقة (١)·

ومن ذلك أيضا قول شاعر العربية المتنبى ،وقد أصابته حمى شديدة من جراء صنيع كافور الإخشيدى معه ، وتحديد إقامته ، فأنشأ قصيدة منها :

وملنى الفراش وكان جنبى	يمل لقاءه فى كل عام
عليل الجسم ممتنع القيام	شديد السكر من غير المدام

١) انظر الأسلوب د· عبد الموجود بهنسى ٢٢٩ ·

والأصل أنا عليل الجسم ، أنا ممتنع القيام ، أنا شديد السكر من غير المدام، لكن المتنبى حذف المسند إليه، لأن العليل يثقل عليه الكلام فهو نازع إلى الإيجاز دائما لضيق صدره عن إطالة الكلام بسبب ما يعتريه من توجع وضجر(١) ومعلوم أن الضيق ليس هو السبب ، بل إن الشاعر قد وضع الكلام على طريقة تكشف هذا الضيق ، وتوحى به ، وشىء آخر هو أنه بحذف المسند إليه الذى هو ضمير يرجع إلى المتكلم أوحى أن جسده من شدة النوازل به ، وإحاطة العلل به ، لم يصر جسده شيئا يرى أويبصر فهذا أيضا مما يوحى به الحذف ويلمع إليه ٠

ومما هو ذائع فى هذا الغرض أيضا قوله تعالى حكاية عن سارة زوج إبراهيم - عليه السلام - (فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴿ الذاريات/٢٩ ﴾ فالتقدير:أنا عجوز عقيم ، و إنما حذف المسند إليه لضيق مقام الدهشة والعجب عن إطالة الكلام ٠

وربما يقع فى صدرك أن هذا الغرض يتعارض مع قوله تعالى فى مقام كهذا "وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب ﴿ هود/٧١-٧٢ ﴾ فأنت تبصر أن المسند إليه مذكور والقصة واحدة٠ فما الجواب ؟ والجواب- إن شاء الله - هو أن المقامين مختلفان ،والذى يظهر أن آية الذاريات كأنها تصف حال سارة من البشارة فى أول استماعها إليها أبصرقوله : (فأقبلت امرأته فى صرة) أما فى سورة هود (وامرأته قائمة فضحكت) فالمفاجاءة واضحة فى سياق الذاريات ، أما هنا فليست ثمة مفاجأة ،وقد ذكر العلماء أن قوله (فضحكت)يعنى (فحاضت) وإن كان المعنى كذلك ، فإن الحيض قد أزال العجب ، وأخرج محاذير أخر ،وآية ذلك أنها فى الذاريات قالت : عجوز

---

١) من سمات التراكيب د٠ عبد الستار زموط ١١٧

عقيم ،وفى سورة هود لم تذكر العقم ، و إنما قالت : أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا " تقريرا بحالها وحال زوجها وما هما عليه من الضعف وتقدم السن ، فنخلص من هذا إلى أن الآيتين قد صورتا حدثين متتابعين تتابعا سريعا ، وأن الدهش والعجب قد جعل المقام ضيقا فى سورة الذاريات كما أوحى به حذف المسند إليه ٠ وأن طلب الرحمه لها ولزوجها قد دعيا إلى التقرير بحالهما والذكر من نكاته التقرير كما سيأتى ٠

ومما يجعل المقام ضيقا أيضا الحذر من خوف فوات فرصة ، كأن ترى غريقا فتقول : غريق ، والأصل هذا حريق ،وهذا الحذف ثابت فى فطر الناس تعبيرا عما يجدونه فى أنفسهم من ضرورة سرعة الإنقاذ فيقولون أيضا حريق ، لص، قاتل ، الخ ٠

٢- كون المسند لايصلح إلا للمسند إليه ، وذلك قائم على شهادة العقل أن هذا الخبر لايصلح لغير هذا المسند إليه من ذلك قوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) ﴿الرعد/٩﴾ فإن علم الغيب والشهادة لايوصف بهما غير الله تعالى، ومثل هذا البناء ... أن هذا الأمر ظاهر ظهورا بينا ، بحيث لا يحتاج إلى إسناد فى الظاهر ٠

من ذلك أيضا قولنا : شاعر العربية ، أمير الشعراء، عميد الأدب، العربى رب السيف والقلم ، فهذه أخبار معلومة علما ظاهرا لدى الناس كافة أنها تسند لأشخاص معينين فتقول : المتنبى شاعر العربية ، شوقى أمير الشعراء طه ،حسين عميد الأدب العربى ، محمود سامى البارودى رب السيف والقلم ، فكان الحذف تلاءم مع شيوع هذه الأخبار وذيوعها على سبيل الادعاء ٠

وحذف المسند إليه لهذا الغرض كثير من ذلك قوله تعالى : "كلا إذا بلغت التراقى وقيل من راق) ﴿القيامه ٢٦-٢٧﴾ والتقدير ٠ إذا بلغت النفس التراقى لأن الآية فى سياق ذكر الموت٠ومن ذلك قوله تعالى :(تولج الليل فى النهار

وتولج النهار فى الليل) ﴿آل عمران٣٧﴾ فالمراد الله سبحانه وتعالى لاسواه ٠

٣- إيهام صون المسند إليه عن اللسان تعظيما له ، فحينئذ يحذف المسند إليه للإشعار بأنه بلغ من كرم المنزلة وسمو المكانة حدا يخشى عليه بذلك من مجرد الجريان على اللسان ، وفيه أيضا إيهام للمخاطب أن فى جريان المسند إليه على اللسان وذكره تقليلا من شأنه ، ونقصا من طهارته من ذلك قول الشاعر :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

والتقدير هم نجوم سماء ، بيد أنه حذف المسند إليه إيهاما لصونه عن اللسان تعظيما له ، كأنه أجل من أن يذكر على اللسان ، وأكثر مقامات هذا الغرض تراها ظاهرة فى المديح ، فالحذف يتلاءم مع هذا الغرض ٠

من ذلك قول أبى البرج القاسم بن حنبل المرى فى زخر بن أبى هاشم بن مسعود بن سنان من قصيدته التى يقول فيها :

أرى الخلان بعد أبى خبيب وحجر فى جنابهم جفاء
من البيض الوجوه بنى سنان لو أنك تستضىء بهم أضاءوا

ذكر قوله :

هم حلوا من الشرف المعلى ومن حسب العشيرة حيث شاءوا
بناة مكارم وأساة كلم دماؤهم من الكلب الشفاء

فالتقدير: هم بناة مكارم بيد أنه حذف المسند إليه إيهاما لصونه عن اللسان تعظيما وتلاؤما مع المديح ، لذا يقول الإمام عبد القاهر : لا يجب أن يخطر المحذوف بالبال لأن الشاعر بنى الكلام على الحذف ،ومنه أيضا قول أسيد بن عنقاء الفزارى فى عملية الفزارى حين رآه عميلة، وقد ساءت حاله ، فقال له : ياعم ما أصارك إلى ما أرى ؟ فقال أسيد : بخل مثلك بماله وصون وجهى عن أموال الناس "فقال : أما والله لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك ، فلما

كان السحر سمع رغاء الإبل ، وثغاء الشاة ، وصهيل الخيل ولجيب الأموال فقال : ماهذا ؟ فقالوا : هذا عميلة ساق إليك أمواله ، فلما خرج ابن عنقاء إليه قسم عميلة ماله شطرين وساهم عمه (١) عليه فقال أسيد :

رآني على مابي عميلة فاشتكى   إلى ماله حالي أسر كما جهر

غـلام رمـاه الله بالخير مقبلا   له سيماء لاتشق على البصر

والسيمياء هي العلامة التي يعرف بها الخير والشر ، والتقدير : هو غلام بيد أنه حذف المسند إليه في مقام المدح لإيهام صونه عن اللسان تعظيما له،و إنما نقول إيهام ولم نقل لصون ، لأنه قد سبق ذكره في الكلام ، ومنه أيضا قول الشاعر:

سأشـكر عمرا إن تراخت منيتي   أيادي لم تمـنن وإن هي جلت

فتـى غير محجوب الغنى عن صديقه   ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها   فكانت قذى عينيه حتى تجلت

وقد ذكر بعض الباحثين أن المسند إليه حذف فيما مضى جريا على عادة العرب ، ولد لالة قوة الكلام عليه ، وهذا كلام عام يقال عند كل حذف فلابد أن تدل قوة الكلام على المحذوف ، ولابد أن يكون الحذف جاريا على سنة العربية ، فهما شرطان وليسا نكتتين ،ثم عاب البلاغيين في استخراج نكته لهذا الحذف ،فهو يرى أن المبتدأ محذوف والأصل " هو فتى " ولكن ذلك - على فرضه - يدفع إلى سؤال وهو أي مدخل للبلاغة في مثل هذا الحذف المزعوم ؟ إنا نرى ذلك أسلوبا يرتضيه العرف العربي في الأداء اللغوي ، فعمرو قد سبق ذكره في البيت الأول ، وما زال ذهن السامع متلبسا به ، ولا حاجة تدعو إلى القول في البيت الثاني " هو فتى " وسيبويه يقول في الكتاب والحذف جار في لغتهم ، وهو من عاداتهم (٢) وهذه غفلة عن طبيعة بناء الجملة العربية ، فلابد في مثل هذا من تقدير مبـتدأ

---

١) خصائص التراكيب ١٢٣ .

٢) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ٨٢ .

وقد سبق الرد على هذا ، ونحن وإن ذكرنا أن هذه نكتة حذف المسند إليه ، فليس ذلك يعني أنه لا نكتة سواها ،ولكن ذائق البلاغة قد يستخرج سواها .

٤- صون المسند إليه عن اللسان احتقارا له ، وهذا تراه واضحا في سياقات الهجاء والذم كقول النابغة الذبياني .

لئن كنت قد بلغت عنى وشاية   لمبلغك الواشى أغش وأكذب

أراد هو أغش وأكذب غير أنه حذفه احتقارا له لسوء ما أتى وقبح ما فعل من ذلك أيضا قول الشاعر في ابن عم له موسر سأله فمنعه ،وقال :كم أعطيك مالى وأنت تنفقه فيما لا يعنيك ، فتركه حتى اجتمع القوم في ناديهم ، وهو فيهم فشكاه إلى القوم وذمه ، فوثب إليه ابن عمه فلطمه فأنشأ يقول :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه   وليس إلى داعى الندى بسريع
حريص على الدنيا مضيع لدينه   وليس لما في بيته بمضيع

أراد هو سريع ،وهو حريص لكنه حذفه احتقارا وتبعيدا له على حد ما قاله بعضهم :

ولقد علمت بأنهم نجس   وإذا ذكرتهم غسلت فمى

ومن ذلك أيضا قوله تعالى:(صم بكم عمى فهم لا يرجعون)" ﴿البقرة/ ١٨﴾ أى هم صم (الكفار)، ويمكن أن يقال في هذين الموضعين إضافة إلى ماذكر أنه حذف للمبالغة في المدح أو الهجاء بناء على توارد المعاني وتكاثرها بالحذف .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) ﴿الفرقان/٥﴾ أرادوا (هذا القرآن) قال السكاكى أسباب حذف المسند إليه : كثيرا ما يقع في أساليب القرآن صيانة للسان ،وتطهيرا له

عن النطق باللفظ (١)٠

ومما حذف فيه المسند إليه صيانة له ،وتعظيما لشأنه قوله تعالى (قال فرعون وما رب العالمين ٠قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين٠ قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين ٠ قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون٠ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون٠٠) ﴿ الشعراء/٢٣-٢٨ ﴾ "حذف المبتدأ فى ثلاثة مواضع : هو رب السموات ، وهو ربكم ورب آبائكم ، هو رب المشارق٠٠(لذا قال السيوطى- رحمه الله- لأن موسى-عليه السلام - استعظم حال فرعون وإقدامه على السؤال فأضمر اسم الله -تعالى- تعظيما وتفخيما"(٢) ومثل هذا كثير فى الذكر الحكيم٠

٥- حذف المسند إليه لإخفائه على المخاطبين ، فتذهب النفس فى تقديره كل مذهب ، وذلك يأتى كثيرا فى مقامات التهديد والوعيد فى الذكر الحكيم من ذلك قوله تعالى : (قل مايعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما)" ﴿ الفرقان/ ٧٧ ﴾ فالتقدير : فسوف يكون جزاء التكذيب غير أنه حذف لتذهب كل نفس فى تقديره المذهب الذى يخيفها ، لذا يقول جار الله عند الآية " والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعدما علم أنه مما توعد به لأجل الإبهام ، وتناول مالا يكتنهه الوصف فمقام الوعيد مقتضى هذا الحذف(٣)٠

٦- تأتى الإنكار عند الحاجة إليه : كقولك:ظالم، فاجر، لعين حتى تجد مندوحة إذا ما تعرضت للمساءلة، وهكذا بالبلاغة تستطيع أن تقول ما تريد مع عدم وقوع الضرر عليك ٠

---

١)مفتاح العلوم ١٥٣ ٠
٢) معترك الأقران ٣٠٧/١ ط دار الفكر
٣) الكشاف ١٠٣/٣ ٠

٧- التعجيل بالمسرة أو المساءة كقولك لمن تبشره بالنجاح ناجح، أما التعجيل بالمساءة فيمكن الاستشهاد له بقوله تعالى : (وما أدراك ماهية ٠ نار حامية) ﴿القارعة/١١﴾ وقوله تعالى : (كلا لينبذن فى الحطمة وما أدراك ما الحطمة ٠ نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة) ﴿الهمزة/ ٤، ٧﴾ ٠

والتقدير : هى نار حامية ، وهى نار الله الموقدة ، غير أنه حذف المسند إليه تعجيلا بالمساءة على أنهم قد ذكروا أن الحذف هنا للاحتراز عن العبث ، لكن هذه النكتة أولى ٠

ومما ذكروه أيضا وقوع الحذف اتباعا للاستعمال الوارد كما فى المثل : قضية ولا أبا حسن لها " وذكروا أيضا أن الحذف يقع لأجل الوزن والقافية أو السجع ، وليس هذا مقنعا لأنها نكات لفظية والشاعر العاجز والكاتب الضعيف هو الذى يجبره وزن أو سجع على الحذف ، ولكن بجانب هذه العلل اللفظية علل معنوية ينبغى أن تكشف ٠

ذكر المسند إليه

تأخر الحديث عن ذكر أحوال المسند إليه ، لأن كل الأحوال التى ستعرض للمسند إليه مبناها على الذكر ، فهو حين يذكر يكون معرفا أو منكرا أو مقدما أو مؤخرا وإن كان مذكورا معرفا ، فالتعريف على أنواع تعريف بالإضمار وبالعملية وبالإشارة بالموصولية ، وبأل وبالإضافة ٠

والأصل أن يذكر المسند إليه لأنه الركن الأهم فى الجملة ، وقد يتضمن الكلام من القرائن ما يخير البليغ بين الحذف والذكر ، فيصطفى ما يلائم مكانه ، وما يوافق معناه ،ويفى بغرضه ، ومن هنا لم يكن تعارض بين الذكر الحذف ، فإن كنا قد ذكرنا أن البلاغة فى الحذف ففى الذكر بلاغة ليست فى الحذف ٠ وقد

ذكروا" أن يحيى بن خالد بن برمك أمر اثنين أن يكتبا كتابا فى معنى واحد ، فأطال أحد هما واختصر الآخر، فقال للمختصر ، وقد نظر فى كتابه: ما أرى موضع مزيد ، وقال للمطيل ، ما أرى موضع نقصان ، وقال الخليل : يختصر الكتاب ليحفظ ويبسط ليفهم وقيل لأبى العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم ٠ كانت تطيل ليسمع منها ، وتوجز ليحفظ عنها " (١)٠

وأن كنا قد ذكرنا أن الحذف إيجاز فى اللفظ وبسط فى المعنى لأن الحذف باب من أبواب ثراء المعانى وخصوبتها ، فالذكر إيجاز فى المعنى وبسط فى اللفظ فإنك كلما نصصت على الشىء حددته وعينته ،ومنعت سواه من الدخول معه ، وهو أمر يحتاج إليه فى مقامات الحديث عن الحدود الفاصله بين الأشياء من حلال وحرام وغير هذا ٠

فيما نعرض عليك من أسرار الذكر ترى المسند إليه معرفا بعدة أنواع من المعارف ،وقد يكون ضميرا ، لأننا بصدد الحديث عن أغراض الذكر بعامة دون تفصيل هيئة الذكر ، يذكر البلاغيون أن المسند إليه يذكر لأغراض منها ٠

١- أنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه، واستشهدوا لذلك بقوله تعالى:(والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ﴿البقرة/ ٢١٦﴾ ولا يمنع أن يكون فى ذكر المسند إليه فى قوله (وأنتم لا تعلمون) تقرير لهم بجهلهم بحقائق الأشياء وخفايا لطف الله- تعالى - فى النوازل ٠

٢-التقرير والإيضاح ، وذلك فى المعانى التى يكون لها فضل اعتلاق بالنفس وشغف بها ،وأكثر ما ترى ذلك فى شعر المديح والغزل والفخر والرثاء وغير ذلك ، وتراها فى الذكر الحكيم فى مقامات الحديث عن صفات المؤمنين وجزائهم ، ومقامات الحديث عن قدرة الله ونعمه ، والتوحيد والشرك والبعث وغير ذلك من المقامات التى تحتاج إلى تقرير وإيضاح ، ولاسيما مقامات الجدل

---

١) خصائص التراكيب ١٣٥ ٠

والخصومة والتقرير والإيضاح أهم أغراض ذكر المسند إليه تأمل قول الخنساء فى رثاء أخيها ، وكيف أشاعت ذكره فى الناس بقولها :

وإن صخرا لكافينا وسيدنا ... وإن صخرا إذا نشتو النحار

وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنـــه علم فى رأسه نار

فتعلقها بأخيها بدا فى الكلام من ذكر المسند إليه وتكرره ، وكذلك عن مرارتها ولوعتها وترى المسند إليه وسيله الشعراء حين الفخر والتيه على الدنيا فيما قال عمرو بن كلثوم :

وقد علم القبائل من معد ... إذا قبب بأبطحـــها بنينا

بأنا العاصمون إذا أطعنا ... وأنا الغارمون إذا عصينا

وأنا المنعمـــون إذا قدرنا ... وأنا المهلكون إذا أتيـــنا

وأنا الحاكمـــون بما أردنا ... وأنا النازلون بحيث شينا

وأنا التاركون لما سخطنا ... وأنا الآخذون لما هويـــنا

فحرص شاعرنا على تثبيت هذه المفاخر جعله يكرر ذكر المسند إليه ، ويملا به كلامه وشعره ، تعبيرا عن عمق إحساسه بها ومن ذلك أيضا قول حسان بن ثابت يهجو الحارث بن هشام :

ألا أبلغ أخا مخزوم عنـــى ... وبعض القول ليس بذى حويل

أما وأبيك لو لبثت شـــيئا ... لألحقك الفـــوارسُ بالجليل

ولكن قد بكيت وأنت خلو ... بعـــيد الـــدار مقتول القبيل

وهـــل يغنى اللهف عنك شيئا ... وهـــل يجدى اللهف عن قتيل

تراه كرر ذكر المسند إليه (لبثت - بكيت - وأنت) لتأكيد نسبة هذه المثالب إليه وتقريرها . ومثل ذلك ما قال البحترى فى هجاء وهب بن سليمان.

أليس طبـــعا فى بنى آدم ... أن يخجل الضارط من ضرطته

قدنال وهب عندها رفعة ... وزلفة فازداد فى سطوته

ارفق قليلا إنها ضرطـة لم تـأت بالفتح على هيئته

فتراه ذكر المسند إليه (وهب) تقريرا وإيضاحا لما أراد أن يلصقه به وتأمل ما قاله حسان بن ثابت يهجو أباسفيان بن الحارث وكيف أقام شعره على ذكر المسند إليه حين أراد تأكيد نسبة كل مثلبة إليه فقال :

عضضت بأير من أبيك وخالكا وعضت بنو النجار بالسكر الرطب

فلست بخير من أبيك وخالكا ولست بخير من معاظلة الكلب

ولست بذى دين ولا ذى أمانةٍ ولست بحر من لؤى ولا كعب

ولكن هجين ذو دناه لمقرف مجاجة ملح غير صاف ولا عذب

وهكذا ترى ذكر المسند إليه وسيلة أساسية من وسائل الهجاء ، وكذلك تراها فى المديح والنسيب ، ومن ذلك ما تراه فى الذكر الحكيم فى مقام التنزيه والتوحيد (هو الله الذى لا اله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم - هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى..) ﴿الحشر ٢٣-٢٤﴾ ومن ذلك أيضا قوله تعالى:(أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) ﴿البقرة/٦﴾

ومن ذلك أيضا قوله تعالى :(وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) ﴿النازعات/٤١﴾ وقوله:(فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى) ﴿النازعات/٣٩﴾ وقوله:(فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير﴿الحديد/١٥﴾ ومثل هذا كثير ترى التقرير والإيضاح فيه ظاهرا وواضحا فى المقامات التى ذكرناها

٣- التعريض بغباوة السامع، وذلك كقولك لمن يعصى والده : هذا أبوك وقد ذكروا شاهدا لذلك قول الفرزدق يهجو جريرا .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا ياجرير المجامع

فهو يتهم جريرا بالغباء إذا لا يدرك ما هو ظاهر علم يدركه كل الناس من مآثر آبائه ، وأكثر ما ترى هذا الغرض فى الهجاء أيضا ، من ذلك ما قاله حسان فى هجاء بنى المغيرة من مقطوعة مطلعها :

قد حان قول قصيدة مشهورة ... شنعاء أرصدها لقوم رضع

يقول :

ذهبت قريش بالعلاء وأنتم ... تمشون مشى المومسات الخرمع

فذروا المعالى وامنعوا أستاهكم ... وامشوا بمدرجة الطريق المهيع

أنتم بقية قوم لوط فاعلموا ... وإلى خناثكم يشار بأصبع

خاطبهم خطاب من يجهل نسبه ،ويجره غباؤه وغفلته إلى الفخر والتيه تغافلا عن نسبهم الخبيث .

٤- الاستلذاذ بذكر المسند إليه،وذلك تراه فى مقامات الغزل والمراثى : من ذلك قول جميل بثينة :

يا عاذلى من الملام دعانى ... إن البلية فوق ما تصفان

زعمت بثينة أن فرقتنا غدا ... لامرحبا بغد فقد أبكانى

تراه ذكر اسمها تلذذا به ، ولو نفضت دواوين المحبين لوجدت ذكر مرموز محبوبا تهم مالايخلو منه أكثر قصائدهم من ذلك قول جميل :

خليلى إن قالت بثينة ماله ... أتانا بلا وعد ؟فقولا لها : لها

أتى وهو مشغول لعظم الذى به ... ومن بات طول الليل يرعى السها سها

بثينة تزرى بالغزالة فى الضحى ... إذا برزت لم تبق يوما بهاءها

ومن ذلك أيضا قوله

وأنت التى إن شئت أشقيت عيشتى ... وإن شئت بعد الله أنعمت باليا

وأنت التى ما من صديق ولا عدى ... يرى نضو ما أبقيت إلا رثى ليا

وما زلت بي يابش حـــتى لو أنني　　من الوجد أستبكى الحمام بكى ليا

وقول ابن زيدون :

أيوحشـــنى الزمان وأنت أنسى　　ويظلم لى النهار وأنت شمسى

ومن ذلك أيضا قول قيس (مجنون ليلى)

يقولون : ليلى بالعراق مريضة　　فياليتنى كنت الطبيب المداويا

يقولون : ليلـى سودة حبشية　　ولولا سواد المسك ما كان غاليا

وهكذا يكثرون ذكر محبوباتهم ، لأن نفوسهم قد امتلأت حبا وشوقا ، فظهر الولوع والدله فى شعرهم دالا على تلذذهم بالذكر وحبهم للمذكور .

٥- الرغبة فى إطالة الكلام وبسطه وذلك يكثر فى مخاطبات العظماء والمحبوبين والشاهد العلم فى ذلك قوله تعالى : (وما تلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى) ﴿ طه /١٧-١٨ ﴾ فالسؤال كان عما فى اليد لاعن مهمتها وعملها ، وكان مقتضى الإيجاز أن يقول: عصا ولكنه أطال الكلام ، لأنه كان يحب المكالمة مع ربه ، فجعل ذلك كالوسيلة إلى تحصيل هذا الغرض كما قال الفخر (١)-رحمه الله- ،وقد ذكروا أن الله إنما سأله ليبسط منه ويقلل هيبته (٢)، وقد أبصر ابن عاشور وجها آخر لذكر المسند إليه،هو أن الأسلوب أسلوب كلام من يتعجب من الاحتياج إلى الأخبار ، كما يقول سائل لما رأى رجلا يعرفه وآخر لا يعرفه : من هذا معك ؟فيقول : فلان ، فإذا لقيهما مرة أخرى وسأله من هذا معك ؟أجابه: هو فلان ، ولذلك عقب موسى جوابه ببيان الغرض من اتخاذها لعله أن يكون هو قصد السائل"(٣)٠والمقصود من إيراد نص ابن عاشور- رحمه الله -أن موسى- عليه

---

١) انظر مفاتيح الغيب ١٠/ ٥٥٧ ٠

٢) انظر الكشاف ٥٣٣/٢ ٠

٣) التحرير والتنوير ٢٠٦/١٦ ٠

السلام - أجاب إجابة تقرير وإيضاح ٠

٦- يذكر المسند إليه لقصد تعظيمه كقوله تعالى :(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ٠٠) ﴿الفتح/٢٩﴾ ٠

٧- وقد يذكر لقصد إهانته كقوله تعالى :(يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان٠٠) ﴿الأعراف ٢٧﴾

٨- وقد يذكر للتسجيل على السامع ٠ وذلك كقول الفرزدق عن على بن الحسين مخاطبا هشام بن عبد الملك ٠

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك من هذا ؟ بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

٩- وقد يذكر المسند إليه حتى يتعين الخبر له كقول الشاعر :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وقول الآخر :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

فكل خبر فى البيتين السابقين يمكن أن ينسب إلى كثيرين بيد أن ذكر المسند إليه خص الخبر به ٠ فهذه بعض الأسرار وهى لاتعنى أننا حصرنا كل أسرار ذكر المسند إليه ، فكل مسند إليه فى سياقه إيحاءات خاصة لا توجد فى سواه واستقصاء مثل هذا أمر بعيد ٠

تعريف المسند إليه

أولا : تعريفه بالضمير

والضمير :إما أن يكون ضمير خطاب وإما أن يكون ضمير تكلم وإما أن يكون ضمير غيبة ٠

ومما جاء بضمير التكلم فى مقام الفخر للتقرير والإيضاح قول البارودى

أنا مصـــدر الكلم البوادى　　بين الـــحواضر والنوادى
أنا فـــارس أنا شـــاعر　　فـــى كل ملحمة ونادى

وأبلغ شاهد لذلك ماقيل على لسان النبى -ﷺ فى غزوه حنين ، وقد تملك الذعر من أفئدة المسلمين وقتها فنادى بأعلى صوت

أنا النبـــى لاكـــذب　　أنا ابـــن عبـــد المطلب

وواضح أن المراد التقرير والإيضاح بتكرار ذكر المسند إليه معرفا بضمير المتكلم مما كان له أبلغ الأثر فى التهدئة من روح المسلمين ،ومن ذلك أيضا قول المتنبى ، وهو يتيه على الدنيا بأن شعره ملأ الدنيا وشغل الناس فقال :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى　　وأسمعت كلماتى من به صمم

وأكثر ما يكون ذلك فى مقامات الفخر من ذلك قول عبد الله بن رواحة مجيبا قيس بن الخطيم ٠

ياقيس إن الأســلاب أحرزها　　من كان يغشى الذوائب القضبا
وأنـــت فى الدار غير محتضر　　حـــربا وتدعـــوها لنا لعبا
لو كنـــت فيهم والحرب لاقحة　　لكنـــت فيهم مغـــلبا ذنبا
نحـــن استبحنا مافى دياركم　　يوم صبحناكم بها حصـــبا
نحن حماة الآطام فى سالف الد　　هر وقد ما سقناكم جنـــبا

وترى المسند إليه معرفا بضمير التكلم أيضا فى مقامات إظهار الوجدولوعة الجوى

ومرارة النوى من ذلك قول جميل .

طـربت وهـاج الشوق منى وربما ... طربت فأبكاني الحمام الهواتف
وأصبحت قد ضمنت قلبى حزازة ... وفى الصدر بلبال تليد وطارف
وأصبحت أكمى الناس أسرار حبها ... وللحب أعـداء كثير وقارف

فهو بضمير التكلم يكشف عن لوعته وأساه ،وقد كرره فى صدر كل بيت ، ومن ذلك أيضا قول قيس .

تعشـقت ليلـى وابتليت بحبها ... وأصبحت منها فى القفار أهيم
كلفـت بها حتى أذابنى الهوى ... وصـير عظـمى بالغرام رميم
وأصبحت فيها عاشقا ومولها ... مضى الصبر منـى والغرام مقيم

وترى المسند إليه معرفا بضمير الخطاب فى مقام المدح من ذلك قول المتنبى يمدح كافورا :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا ... لمن بات فـى نعـمائه يتقـلب
وأنت الذى ربيت ذا الملك مرضعا ... وليس لـه أم هـناك ولا أب
وكنت له ليـث العـرين لشبله ... ومالك إلا الهند وانـى مخلب
لقيت القنا عنه بنفس كـريمة ... إلى الموت فى الهيجا من العار تهرب

فترى ضمير الخطاب قد تكرر فى ثلاثة أبيات تقريرا لنسبة هذه المفاخر إلى كافور ، ومن ذلك أيضا قول البحترى يمدح الفتح بن خاقان فى منازلته الأسد:

حملت عليه السيف ، لاعزمك انثنى ... ولا يدك ارتدت ، ولا حـده نبا
وكنـت متى تجمع يمينك تهتك الـ ... ـضريبة أو لا تبق للسيف مضربا
ألنت لى الأيام مـن بعـد قسوة ... وعاتبت لى دهرى المسىء فأعتبا
وألبستنى النعمى التـى غيرت أخـى ... على فأضحى نازح الـود أجنبا

تراه أيضا فى مقامات مخاطبة المحبوبين والقاء كل حبيب باللائمة على حبيبه من ذلك قول أميمة فى صاحبها ابن الدمينة معاتبة إياه :

وأنت الذى أخلفتنى ماوعدتنى ... واشمت بى من كان فيك يلوم
و أبرزتنى للناس ثـــم تركتنى ... لهم غرضـا أرمى وأنت سليمُ
فلو أن قولا يكلـم الجسم قد بدا ... بجســمى من قول الوشاة كلوم

فأجابها ابن الدمينة بقوله :

وأنت التى قطعت قلبى حـزازة ... وقـرقت قرح القلب فهو كليـمُ
وأنت التـى كلفتنى دلج الســرى ... وجـون القطا بالجلهتين جـــثوم
وأنت التى أحفظت قومى فكلهم ... بعيد الرضا دانى الصدود كظيمُ

مامن ريب أنك ترى لذكر المسند إليه معرفا بضمير الخطاب مواقع رائعة فى التظاهر على تقرير كل صاحبه بأنه المذنب فى حقه ، وذلك ما يجعل الكلام يفيض بدلائل الحب وسمات الغرام ومن هذا قول أميمة له أيضا ، وكان فتـى صبوحا :

أيا حســن العينين أنت قتلتنى ... ويا فارس الخيلين أنت شفائيا

فأنت تبصر أن حرصها على تقرير صاحبها قد كشفه إعادة ذكر المسند إليـه معرفا بضمير الخطاب فى قولها : أنت شـفائيا(١)وكان من الممكن أن يعبر بغير هذا:

ومما جاء معرفا بضمير الخطاب مرادا به العموم فى الذكر الحكيم قوله تعالى :

(ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنـا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنـون) ﴿ السـجدة/١٢ ﴾ ٠فليس المراد بالخطـاب سيدنا محمدا ﷺ فى قوله تعالى(ولو ترى) ولكن يراد منه مخاطبة كل من تتأتى منه الرؤية ،وذلك يكشف عن ظهور أمر العذاب ووضوح صورة المجرمين لدى كل مبصـر، مما يعلى من الترهيب والوعيد ، ومثل هذا كثير فى الذكر الحكيم ، كقوله

تعالى مثلا" ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) ﴿الأنفال/ ٥﴾ فليس المخاطب شخصا بعينه بل كل من تتأتى منه الرؤية ،وفي ذلك تفظيع لحال الكافرين عند الاحتضار .

ويقع التعريف بضمير الغيبة أيضا إلماعا إلى اشتهار معرفة المتحدث عنه وذيوع صيته ، وتراه في مقامات الحديث عن قدرة الله تعالى وتوحيده ، من ذلك قوله تعالى : "(قل هو الله أحد) فالملحوظ أنه لم يسبق ذكر لما يعود الضمير إليه، لذا قال أبو السعود:" الضمير للشأن ومدار موضعه مع عدم سبق ذكره الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد، والسر في تصدير الجملة به التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها وجلالة حيزها مع ما فيه من زيادة تحقيق وتقرير فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن مترقبا لما أمامه مما يفسره ،ويزيل إبهامه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن (١).

وشواهد هذا الموضع أكثر من أن تحصى في الذكر الحكيم خذ مثلا قوله تعالى : (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا . .) ﴿الشورى/٢٨﴾ وقوله (وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته . .) ﴿الفرقان/٤٨﴾

وقوله (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . .) ﴿الفتح/٢٨﴾ . وأنت ترى أن هذه المواقع تكشف عن وحدانية الله . . وقدرته فإنه لا يشركه شيء في هذا .

التعريف بالعلمية :

ذكر البلاغيون أسراراً لذكر المسند إليه معرفا بالعلمية منها :

١- إحضار المسند إليه بعينه في ذهن السامع ابتداء ومعلوم أن العلمية تحدد

---

١)إرشاد العقل السليم ٧٥١/٨ بهامش الفخر الرازي .

الشخص وتميزه ، ترى ذلك فى الذكر الحكيم فى الآيات التى تنص على أمور مختصة بالذات العلية من مثل قوله تعالى:(الله أعلم حيث يجعل رسالته . .) ﴿الرعد/ ٨﴾ وشواهده أكثر من تحصى فى الذكر الحكيم • فذكر المسند إليه معرفا بالعلمية فى هذه الشواهد يقطع المشاحة على الخصم•

٢- تعظيم المسند إليه ،وذلك تراه ظاهرا فى مقامات الفخر والغزل والمديح فإن المفتخر يريد أن ينسب كل منقبة لشخص بعينه ،ويريد أن يشيع مفاخره فى الناس ، وكذلك المادح ، أما الغزل فإنه يكثر من ذكر محبوبته تعظيما واستلذاذا يكشف بذلك عن مكنون فؤاده •

ومن الفخر ما يقول الفرزدق هاجيا الأخطل فى قصيدته التى يقول فيها

ماضـــر تغلب وائل أهجوتها أم بلت حين تناطح البحران

يقول :

يا ابـن المراغة إن تغلب وائل رفعـوا عناني فوق كل عنان

ويقول أيضا :

تدمى وتغلب يمنعون بناتهم أقدامهـــن حجارة الصوان

ويقول فيها فى غير شاهدنا أيضا •ويذكر اسم معن فى كثير من أبيات القصيده ،وليس ذلك طلبا لمال و إنما كان محبا له بصدق ، وآيه ذلك كثرة مراثيه فيه وشاهدنا فى قوله من هذه القصيدة :

تـدارك معـن قبة الدين بعدما خشينا على أوتارها أن تنزعا

ويقول أيضا :

لقد دوخ الأعداء معن فأصبحوا وأمنعــــهم لا يدفع الذل مدفعا

وترى ذكر المرثى بالعلمية شائعا أيضا ، لأن الرثاء أخو المديح ، من ذلك قول مروان بن أبى حفصة فى معن بن زائدة •

مضى لسبيله معن وأبقى مكارم لن تبيد ولن تنالا

ويقول أيضا :

وعطلت الثغور لفقد معن وقد يروى بها الأسل النهالا

أصاب الموت يوم أصاب معنا من الأحياء أكرمهم مغالا

وكل الناس كلهم لمعن إلى أن زار حفرته عيالا

وهى قصيدة طويلة فيها معان شريفة ورائعة تكشف عن صدق حبه له ومما هو شائع فى ذلك شعر الخنساء فى أخيها صخر ، وقد سبق ذكر شىء منه، ومراثى البحترى وغيره من النابهين فى الشعر ·

وترى ذكر اسم المحبوب يملأ دواوين العشاق ، يبدو لك هذا ظاهرا بمراجعة دواوين كثير عزة ، وجميل بثنيه ومجنون ليلى وغيرهم من العشاق الولهين خذ من ذلك قول قيس فى ليلى من قصيدة يقول فيها ·

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أحزان الفؤاد وما يدرى

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائرا كان فى صدرى

ينادى سواها أسخن الله عينه وليلى بأرض عنه نازحة قفر

ويقول :

تداويت من ليلى بليلى من الهوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

وتعزم ليلى أننى لا أحبها بلى والليالى العشر والشفع والوتر

وهو كثير فى شعره تراه حلوا عذبا كاشفا عن صدق العاطفة ، ولا سيما إذا عرفت أن ذكر الأسماء يثقل فى الشعر لكنك تبصره هنا رائقا حلوا ، ومن ذلك قول جميل ·

صدت بثينة عنى أن سعى ساع وآيست بعد موعودٍ وإطماع

ولا يقدح فى ذلك أنه من العيب أن يذكر العاشق اسم محبوبته ، لأنهم يرمزون إلى محبوباتهم بهذه الأسماء ·

٣- تحقير المسند إليه وإهانته ،وهو مقصد تراه واضحا فى الهجاء ، ولاسيما فى شعر النقائض ، لأن الشاعر يحرص أبدا على تأكيد نسبه كل منقصة إلى المهجو من ذلك قول جرير فى الأخطل وهو تغلبى نصرانى من قصيدة مطلعها٠

حيـى الغداة براقة الأطلالا رسما تحـمل أهله فأحالا

يقول :

لا تطلبن خؤولة فى تغلـب فالزنـج أكرم منهم أخوالا

والتغلبـى إذا تنحنح للقرى حك استه وتمثل الأمثالا

ويقول :

قال الأخيطل إذ رأى رايـاتنا ياما ر سرجس لا نريد قتالا

ورجا الأخيطل من سفاهة رأيه مـالم يكـن وأب له ليـنالا

ويقول:

تمت تميمـــــى يا أخيطل فاعترف خـزى الأخيطل حين قلت وقالا

ويقول فى قصيدة أخرى

إن الأخيـطل خنزير أطاف به إحدى الدواهى التى تخشى وتنتظر

والتغلبـى لئيــم حين تجهره والتغلبـى لئيـم حــــين يختبر

والتغلبى إذا تـمت مــــروءته عبد يسوق ركاب القـــوم مؤتجر

ومثل هذا قول جرير فى سدوس :

أخــلاى الكرام سوى سدوس وحالى فى ســدوس من خليل

إذا أنزلت رحلك فى سدوس فقد أنزلت مــنزلة الذليــــل

وقد علـمت سدوس أن فـيها منار اللؤم واضحــة السـبيل

فما أعطـت سدوس مـن كثـير ولا حامت سدوس عـن قليل

هذه هى المقاصد المهمة وراء تعريف المسند إليه بالعلمية ،وهناك أغراض يمكن ردها إلى هذه الأغراض ، من ذلك ما قولهم : إنه قد يعرف المسند إليه بالعلمية لقصد التبرك به كقولنا: الله ربنا ،ومحمد نبينا ولا يخفى أنك لاتتبرك إلا بمن تعظمه ، وكذلك ما ذكروا من أن المسند إليه قد يعرف بالعملية للاستلذاذ بذكره كذكر أسماء المحبوبات فيما مضى ولا يخفى أنه تعظيم أيضا ٠

ومن ذلك ما ذكروا من أن المسند إليه يعرف بالعلمية لقصد التسجيل على السامع ،وهو متقارب مع المقصد الأول الذى ذكرناه ، ومن ذلك أيضا قصد التفاؤل ، وهو متقارب مع التعظيم ، وقصد التشاؤم ،وهو متقارب مع التحقير ، والذى نراه أنها كثرة تشعيبات لاحاجة إليها ، ولا يمنع ما ذكرنا أن تكون هناك مقاصد أخرى يستنبطها النابهون من إبصار مواقع المسند إليه معرفا بالعلمية فى سياقات طوال ٠ فليست البلاغة من العلوم التى تخضع للقوانين الصارمة كالنحو وغيره ٠

التعريف باسم الإشارة :

١- قصد تمييزه أكمل تمييز، وذلك راجع لما فى طبيعة اسم الإشارة من تحديد المشار إليه أكمل تحديد بأن يكون مشاهدا مشارا إليه، أو منزلا هذه المنزلة ، مع مافى اسم الإشارة من تفاوت فى الدلالة ، ففيه ما يدل على البعد وفيه ما يدل على القرب ،وقد ينزل القريب منزلة البعيد ، وقد ينزل البعيد منزله القريب ومما يساق شاهدا لهذا المقصد، مع عدم تعارضه مع ما يمكن أن يستنبط ،قول البحترى فى رثاء سليمان بن وهب وتعزيته ابنه عبيد الله من قصيدة مطلعها :

أأخـــى نهنه دمعك المسفوكا إن الحَوَادِثَ يَنْصُرِ مُنَ وَشِيكًا

يقول :

هذا سليمان بن وهب بعدما طالت مساعيه النجوم سموكا

فلأنه فى مقام ذكر مناقب المرثى آثر اسم الإشارة على سواه ليميز المرثى ويحدده ولذا تراه وسيلة من وسائل بناء المعانى فى الفخر أيضا من ذلك قول الأخطل مفتخرا :

أُميةُ والعاصـــى وإن يدع خالد   يجبـــهُ هشـــام للفعال ونوفلُ

أولئك عين الماء فيهم وعندهم   من الخيفة المنجاة والمتَحوَّلُ(١)

فتراه قد شبه معروف من سبق ذكرهم بعين ماء قد جم وكثر ،ومن ذلك قول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

أولئك قومـــــى فـــإن تسالى   كرام إذا الضـــيف يوما ألَمْ

فالشعراء فى مقامات الفخر الرثاء والمدح يصطفون من وسائل اللغة ، ما يكشفون به عن التصاق المفاخر بالممدوحين ، ومن شواهد هذا المقصد فى الكتاب العزيز قوله تعالى : (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين) ﴿النور/١٢﴾ ومن ذلك ما كشف به الذكر الحكيم عن مراد الكافرين برمى القرآن بأنه أساطير الأولين قاصدين التمييز والتحديد (قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين) ﴿الأنفال/ ٣١﴾ وما ردوا به مقالة النبيين (لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطيرُ الأولينَ) ﴿النمل/ ٦٨﴾ يبغون تمام نفى البعث .ومن ذلك أيضا قوله تعالى : (قال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) ﴿الأحقاف/١١﴾ ومثل هذا كثير فى الذكر الحكيم.

٢- قصد تعظيم المسند إليه ،وذلك بتعريفه باسم الإشارة الموضوع للقريب تنزيلا له منزلة القرب من النفس ، وترى ذلك كثيرا فى الذكر الحكيم من ذلك قوله تعالى : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدقُ الذى بين يديه لتنذر أم القرى ومن

١) نقائض جرير والأخطل ٥٩ .

حولها . .) ﴿الأنعام/٩٢﴾ والشاهد فى قوله (وهذا كتاب) وقد وقع هذا الشاهد من بعد الثناء على التوراة المنزلة على سيدنا موسى -عليه السلام- والمراد تعظيم المسند إليه بتقريبه من النفس ،ومثله قوله تعالى:(وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه . .) ﴿الأنعام/٥٥﴾ ومنه قوله تعالى :(هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ماذا خَلَقَ الذِينَ مِنْ دُونِهِ) ﴿لقمان/١١﴾ .

وقد يعرف المسند إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد تعظيما لبعد منزلته وعلو درجته ، وهو كثير فى الذكر الحكيم ، تراه فى حديث الله عن المؤمنين وثوابهم والقرآن الكريم وتشريعاته والكتب السابقة ، وغطائهم نعمة الله -عز وعلا -من ذلك قوله تعالى : (ذلك الكتاب لا ريب فيه)" ﴿البقرة/٢﴾ وقوله : (تلك آيات الكتاب الحكيم) . ﴿ يونس/١ ﴾ وقوله (تلك آيات الكتابِ المبين) ﴿يوسف/١﴾ ومنه أيضا قوله تعالى : (أولئك على هدى من ربهم و أولئك هم المفلحون) ﴿البقرة/ ٥﴾ وقوله (أولئك هم المؤمنون حقا) ﴿الأنفال/٤﴾ .

ومن ذلك قول شوقى فى مدح عبد الرحمن الداخل "صقر قريش :

أى ملك من بنايات الهمم   أسس الداخلُ فى الغرب وشاد ؟

ذلك الناشيء فى خير الأمم   ساد فى الأرض ولم يخلق يساد

٣-قصد تحقير المسند إليه ، ومن ذلك قول ابن كعب العنبرى

تقول ودقت نحرها بيمينها   أبعلى هذا بالرحى المتقاعس

ففى الإشارة للقريب معنى الاستخفاف ودنو المنزلة ، وأنه لصيق بالتراب متقاعس يطحن بالرحى كما يفعل من لابلاء له ، ولهذا رد عليها الشاعر مشيرا إلى منزلته فى غير هذا الباب قال :

فقلت لها لا تعجبى وتبينى   بلائى إذا التفت على الفوارس

فأشار إلى منزلته فى الموقف الصعب (١)، ومن ذلك قول البحترى مجيبا

---

١) خصائص التراكيب ١٥٥ .

أبا صالح بن عمار ،وكان قد دعاه في يوم مطر فتخلف عنه ،وكتب إليه كتابا يمازحه فيه :

هذا كتابك فيه الجهل والعنف قدجاءنا ففهمنا كل ماتصف

ومن ذلك قول حسان بن ثابت يهجو بني لؤي :

فإمـا تثقفـن بنو لؤي جذيـمة إن قتلهم شفاء

أولئك معشر نصـروا علينا ففي أظفـارنا منهم دماء

ومن ذلك قول حسان يرثي خبيبا ،ويهجو بني الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب قتل الحارث بن عامر يوم بدر فقال في الهجاء :

بئس البنون وبئس الشيخ شيخهم تبا لذلك من شيخ ومـن عقب

تلكـم قبيلة حصـت وقللها دعوى خبيب التي حفت ولم تخب

وكان خبيب حين نصب على الجذع قال : اللهم أحصهم عددا ،واقتلهم بددا ، ولا تدع على الأرض منهم أحد إلا، فأنت تراه مذكورا باسم الإشارة تمييزا له لتمام إلصاق المثلبة به ·

ومن ذلك قول الله تعالى محقرا الكافرين ، تبعيدا لهم عن رحمته(أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿ الرعد/٥ ﴾ومن ذلك قوله تعالى : (أهذا الذي يذكر آلهتكم) ﴿ الأنبياء/٣٦ ﴾ ومنه قول الشاعر :

ولا يقيمُ على ضـيم يراد به إلا الأذلان عيرُ الحى والوتدُ

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشـج فلايرثى له أحد

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : (فذلك الذي يدع اليتيم ﴿ الماعون/٢٢ ﴾ وترى الذكر الحكيم يساق فيه اسم الإشارة دالا على التعظيم ، ويساق دالا على التحقير في تقابل بديع من ذلك قوله تعالى : (فمن ثقلت موازينه فـأولئك هم

المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون) ﴿ المؤمنون ١٠٢-١٠٣ ﴾

٤- قصد التعريض بغباوة السامع ، ويلوح اسم الإشارة بما فيه من الإشارة إلى الحس - أن المخاطب لا يدرك إلا المحسوس ، وذلك يعلى من الدلالة على غباوته وغفلته ، وقد مثلوا لذلك بقول الفرزدق يهجو جريرا ·

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم　　إذا جمعتنا ياجرير المجامعُ

ويمكن إرجاع ذلك إلى تعظيم المسند إليه ، ولا سيما أن المقام للفخر ·

٥- قصد تنزيل الغائب منزلة الحاضر ، والمعقول منزلة المحسوس، وهو كثير فى الآيات المسوقة فى الحديث عن الغيبيات ، مما يومىء إلى ظهورها وجلائها من ذلك قوله تعالى : تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار) ﴿ الرعد/٣٥ ﴾ وقوله (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين (﴿ فصلت /٢٣ ﴾ ومن أغراض التعريف بالعلمية أيضا إبراز المعقول فى صورة المحسوس كقوله تعالى : (إن هذا إلا أساطير الأولين ﴿ المؤمنون/٨٣ ﴾ وغير ذلك من الأغراض التى لا تنحصر لأن أحوال النفس لا تتناهى ، وما ذكرناه هو أظهر أسرار التعريف بالإشارة ·

التعريف بالموصولية :

هو من أكثر طرق التعريف إثراء للمعنى واكتنازا للإيحاءات والمعانى ، لذا كان التعريف بالموصولية من مسالك البلاغيين والفصحاء فى التعبير عن مقاصدهم ومن هذه المقاصد :

١) أن يكون فى مدلول الصلة تقرير للغرض المسوق له الكلام : والشاهد العلم فى ذلك قوله تعالى : (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت

هيت لك) ﴿يوسف ٢٣﴾ والكلام مسوق فى بيان نزاهته سيدنا يوسف - عليه السلام - وتركيب الجملة متظاهر على هذا الغرض فقوله : (وراودته) ظاهر الدلالة في أن المراودة كانت منها ،وهو مما يدل على نزاهته - عليه السلام - عن الفاحشة ، ثم تأمل جملة الصلة (هو فى بيتها عن نفسه) وكيف دل بناؤها عن تمكنها من المراودة ، وما فى إضافة البيت إلى الضمير العائد إلى المرأة من الدلالة على أنها كانت سيدة البيت ،وأنه لاسلطان لأحد عليها ، يفوت كل ذلك لو كان بناء الجملة (التى هو فى بيت زوجها) ثم تأمل : (عن نفسه)ومعنى هذا أنه - عليه السلام - لم يكن عنده أدنى ميول لاشتهائها ، لأن هذا التعبير أوحى أنه كان متأبيا عليها تأبيا شديدا ، جاء التعبير بالموصول (التى) وهو نص على الأنثى المفردة فى هذا السياق المتظاهر على بيان نزاهة الصديق - عليه السلام - فتآزرت كل كلمة مع الأخرى لتقرير هذا الغرض وكشفه .

وقد ذكروا أنه يمكن أن يكون الغرض استهجان التصريح بالاسم ، وهو فيما أرى - غرض ثانوي ، وليس غرضا أصليا كالتقرير المفاد من جملة الصلة والتى حتم الموصول المجيء بها ،وقد فسر سعد الدين المراودة بأنها عبارة عن التمحل لمواقعته إياها فالكلام مسوق لنزاهة يوسف وطهارة ذيله (١)ومن ثراء التعبير القرآنى أنه يمكن أن يكون الكلام تقريرا للمسند ، لأن كونه فى بيتها زيادة تقرير للمراودة لما فيه من فرط الاختلاط والألفة ، وهو دال أيضا على نزاهة الصديق عليه السلام .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : (قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ..) ﴿الفرقان/٢﴾ ففى التعبير باسم الموصول وصلته كشف عن

---

١) المطول ٧٤ .

إحاطته -عز وعلا- بجميع الأشياء ،وهو مسوق فى تقرير الوحدانية،ومثل ذلك قوله تعالى :(تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار . . .) ﴿الفرقان/١٠﴾ فالغرض من التعريف بالموصولية تقرير قدرة الله - سبحانه .

٢) التفخيم والتهويل : وذلك فى قوله تعالى : (فغشيهم من اليم ما غشيهم) ﴿طه/٧٨﴾ فقد وقع (ما) مسندا إليه معرفا بالموصوليه فأفاد ذلك التفخيم والتهويل جريا على نسق السياق ،والملحوظ أن القرآن الكريم اصطفى من الموصولات (ما) وهو أوغل فى الإبهام من الموصولات الأخرى الموضوعة للمذكر والمؤنث ،ومما يتآزر أيضا فى الدلالة على التفخيم اختيار غشى،وما فيها من تمام التغطية والستر ،وترى اسم الموصول المبهم وقع بين فعلين مكررين (غشيهم) فصورة الأسلوب تدل على تمام التغطية، وشىء آخر هو أنه قال (من اليم) واستعمالات القرآن الكريم تدل على أن البحر يأتى فى مقامات تتحدث عن إنعام الله - وتفضله ولا سيما أنه سبق على الشاهد (فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا) واليم يأتى فى مقامات الحديث عن قهر الله وغلبته، ولا يطعن فى ذلك بقوله تعالى (أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل ..) لأنه هنا مسوق أيضا فى بيان امتنان الله على سيدنا موسى -عليه السلام - وحفظه إياه من شر الأشياء اليم وغير ذلك

المهم أنك ترى الاسم الموصول يقع مسندا إليه فى مواقع لطيفة تتآلف مع سواها فى كشف خفايا المعانى ولطائفها ، والفروق بين استخدامات الأسماء الموصولة فى الأساليب باب جليل النفع فى الدرس البلاغى .

ومما هو شاهد على ذلك أيضا قول وصاف الخمر وصنيعها بالعقول

مضى بها مامضى من عقل شاربها وفى الزجاجة باق يطلب الباقى

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : (إذ يغشى السدرة ما يغشى) ﴿النجم/١٦﴾ . أى تغشاها أمور عظيمة يخفى أمرها فى الجلال والعظمة ، ومنه أيضا قول كثير عزة:

تجافيت عنى حين لا لى حيلة   وخلفت ما خلفت بين الجوانح

أى تركت فيه من العلة بتجافيها مالا يحيط به الوصف ، ولا تقيده العبارة ، وترى ذلك كثيرا فى مقامات المدح والفخر والهجاء والنسيب ، ومما هو شاهد لما نحن فيه أيضا قول أحد شعراء العصر الحديث كاشفا عن وقوع فتاة فى الرذيلة :

أسألت من نبذوك نبذ المنكر   كم بينهم من فاجر متستر ؟

نصبوا الرياء على خطاك حبائلا   أعماك بارقة فلم تستبصرى

أغراك ما أغرى الفراشة باللظى   فقضت ضحية جمره المتسعر

إن الألى أنحوا عليك بلومهم   هم أكرهوك على احتراف المنكر

والشاهد فى قوله (أغراك ما أغرى) تهويلا للأمر الذى أغراها .

٣) استهجان التصريح بالاسم الدال على المسند إليه ، وهو نهج عال من مناهج أدب الحديث ، من ذلك قول حسان بن ثابت - رضى الله عنه - مبرءا نفسه من تهمة المشاركة فى حادثه الإفك :

فإن الذى قد قيل ليس بلائط   ولكنه قول امرئ بى ماحل

فعبر عن اتهامه أم المؤمنين إياه فى حادثة الإفك باسم الموصول مضمنا إياه صلة تكشف عن قلة قدره ،وحقارة أثره ، وأنه لا يصدر عن عاقل أريب من ذلك ما يقال :الذى يخرج من فرج الرجل ينقض الوضوء ، وغير هذا مما تراه مغروسا فى أنفس الناس وطبائعها من الجنوح إلى التعبير باسم الموصول عما يقبح التعبير به صراحة .

٤) تنبيه المخاطب على خطأ وقع منه أو من غيره ، وذلك إذا كانت جملة الصلة تكتنز ما يلمح إلى هذا الخطأ ، من ذلك قول عبدة بن الطيب فى عينيته من أبيات طويلة يعظ فيها بنيه ، ملمعا إلى عدم انخداعهم بمن يظاهرونهم بالاخوة، ويكاتمونهم الحقد والبغضاء فيقول :

إن الذين ترونهم إخوانكـــم يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

فكما ترى جملة الصلة (ترونهم إخوانكم) كشفت عن خطئهم ،ونبهتهم إلى الحرص والتفطن ، من ذلك قول المتنبى : -

إن التـــى سفكـت دمى بجفونها لم تدر أن دمـــى الذى تتقــلدُ

قالت وقد رأت اصفرارى من به وتنــهدت فـــأجبتها المتنهد

فمضت وقد صبغ الحياء بياضها لونى كما صبغ اللجين العسجدُ

فقد نبهك المتنبى إلى خطأ محبوبته حين لم تدرك مسئوليتها فى سفك دمه و الأبيات كلها تفيض بالحزن ، والكشف عن جناية المحبوب نحوه ،وقد تأثر لونه وكل جوارحه ظاهرا وباطنا كما تنم به الأبيات ٠

ومن ذلك أيضا ما قيل لعمر بن عبد العزيز فيما رواه المبرد فى الكامل

إن الذين أمـــرتهم أن يعدلوا نبذوا كتابك واستحل المحرم

وأردت أن يلى الأمانة منهم بر وهيهات الأبـــر المسلمُ

فقد جاء فى جملة الصلة ما ينبه عمر بن عبد العزيز -رضى الله عنه - إلى خطئه حيث لم يضع الثقة فى موضعها الأليق بها ٠

٥) الإيماء إلى وجه بناء الخبر ، وذلك حين تشتمل الصلة على ما يشير إلى الخبر خيرا أو شرا من ذلك قوله تعالى : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) ﴿الكهف/٣﴾ فجملة الصلة (آمنوا وعملوا الصالحات) أشارت إلى أن الخبر يتضمن الثواب والرحمه للموصول ،وقد جاء ذلك متقابلا فى سورة البينة : (إن الـــذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين

فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) ﴿البينة/ ٦-٧﴾ ٠

والمثال العلم على ذلك فى الشعر عند البلاغيين هو قول الفرزدق مفتخرا على جرير :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

فجملة الصلة تشير إلى أن الخبر على نحو يلائم افتخاره وتيهه بأجداده ٠

٦) التشويق إلى الخبر حتى يقع من النفس أحسن موقع ،ويتمكن أفضل تمكن ترى ذلك فى قول أبى العلاء المعرى :

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

فتراه بنى جملة الصلة على نحو يشوقك إلى التعرف على خير البرية ٠

عرضنا عليك أبرز الأغراض البلاغية لتعريف المسند إليه بالموصولية ، وهناك أغراض أخرى من الممكن إرجاعها إليها ، ولكن أبصر معى موقع المسند إليه معرفا بالموصولية فى الذكر الحكيم (الذى خلقنى فهو يهدين ٠ والذى هو يطعمنى ويسقين ٠ وإذا مرضت فهو يشفين ٠ والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) ﴿ ٧٨-٨٢ ﴾ ٠

فقد تكرر تكرارا بديعا يكشف عن الطريقة المثلى فى الرجاء والدعاء والتحميد والتعظيم لذات الله -عز وعلا - بين يدى الطلب ٠ يقول ابن عاشور :وتكرير اسم الموصول فى المواضع الثلاثة مع أن مقتضى الظاهر أن تعطف الصلتان على الصلة الأولى للاهتمام بصاحب تلك الصلات الثلاث ، لأنها نعت عظيم لله - تعالى - فحقيق أن يجعل مستقلا بدلالته وأطلق على رجاء المغفرة لفظ الطمع تواضعا لله تعالى ومباعدة لنفسه عن هاجس استحقاقه المغفرة و إنما طمع فى ذلك لوعد الله بذلك (١)٠

---

١) التحرير والتنوير ١٩/ ٩٤٣ ٠

التعريف بأل

أغراض التعريف بأل محدودة عند البلاغيين ،وهم في الحديث عن هذه الأغراض ينظرون إلى اللفظ الذى دخلت عليه اللام ، فإن كان المراد معناه المعجمى من غير نظر إلى أفراد فاللام لام الجنس والحقيقة، وإن نظر إلى احتوائه على فرد معين دون نظر إلى عدده فهى لام العهد الخارجى ، وإن أريد مضمونه من حيث إطلاقه على فرد ما من الأفراد التى يدل عليها مضمونه المعجمى فهى لام العهد الذهنى ،وإن أريد مضمونه من حيث شموله لجميع مايصح إطلاقه عليه فهى لام الاستغراق .

وقد أجمل الخطيب هذا التقسيم فقال : "وإن كان التعريف باللام فإما للإشارة إلى معهود بينك وبين مخاطبك كما إذا قال لك قائل : جاءنى رجل فتقول : مافعل الرجل وعليه قوله تعالى : (وليس الذكر كالأنثى)وإما لإرادة نفس الحقيقة كقولك : الرجل خير من المرأة ،ومنه قول أبى العلاء :

والخل كالماء يبدى لى ضمائره ... مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

والمعرف باللام قد يأتى لواحد باعتبار عهديته فى الذهن لمطابقته الحقيقة كقولك: أدخل السوق ، وليس بينك وبين مخاطبك سوق معهود فى الخارج وعليه قول الشاعر :

ولقد أمر على اللئيم يسبنى ... فمضيت ثمت قلت لا يعننيى

وهذا يقرب فى المعنى من النكرة ، وقد يفيد الاستغراق وذلك إذا امتنع حمله على الأفراد(١).

١- التعريف بلام الجنس والحقيقة وتجد ذلك كثيرا فى شعر الحكمة كقول أبى تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حدهِ الحد بين الجد واللعبِ

---

١) الإيضاح ٣٠/٢ ، ٣١ ط خفاجى

فالشاعر لايريد سيفا بعينه ، كما لا يريد كتابا بعينه ولاحد ا معينا ، كما لا يقصد ما تحتويه هذا الألفاظ من الأفراد ، ولكنه يشير إلى حقيقة يتميز بها هذا الجنس (السيف) ومن ذلك أيضا قول الشاعر :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على　　حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وقوله :

والنفـــس راغبة إذا رغبتها　　وإذا ترد إلى قـــليل تقنع

فالمقصود تقرير هذه الحقيقة،وليس المقصود نفسا بعينها أو أفرادا معينين.

٢- لام العهد الذكرى الصريحى ،وذلك حين يراد من المعرف بعض الأفراد مع التعيين وذلك كقوله تعالى : إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا ﴿المزمل/١٥، ١٦﴾ وهذا فى المفعول به لأن (الرسول) مفعول به ،أما فى المسند إليه فقوله تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة. .) ﴿النور/٣٥﴾ فالمصباح والزجاجة عرفا بالألف واللام ، وقد سبق ذكرهما فى الكلام ، لذلك تسمى هذه اللام لام العهد الذكرى الصريحى.

٣- لام العهد الذكرى الكنائى ، وذلك حين يراد بالمعرف بها فردا معينا لا يسبق له ذكر صريح ، و إنما يكنى عنه،وذلك كقوله تعالى فى شأن مريم - عليها السلام (رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) ﴿آل عمران/٣٥، ١٣٦﴾ فقولها: (مافى بطنى) كناية عن الذكر .

٤- لام العهد الذكرى العلمى:وفيها يتكىء المتكلم على علم المخاطب ، والشاهد عـــلى ذلك من غير المسند إليه قوله تعالى: (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ

يبايعونك تحت الشجرة) ﴿الفتح/ ١٨﴾ فالشجرة معلومة عند المخاطبين .

٥- لام العهد الذهنى التى يراد بها فرد مبهم من أفراد الحقيقة كقوله تعالى (إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) ﴿يوسف/١٣﴾ فليس المراد الذئاب كلها ، و إنما المراد ذئب واحد لكنه غير معين .

٦- لام الاستغراق : وهى التى يراد بدخولها جميع الأفراد، وهى نوعان : لام الاستغراق الحقيقى حين يطابق الاستغراق الواقع كقوله تعالى : (إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿العصر/٢-٣﴾ فلما أراد العموم فى (الإنسان) صح الاستثناء ولام الاستغراق العرفى ، وذلك حين يراد بدخولها كل أفراده بحسب العرف والعادة كقولنا : جاء الطلاب ، وأقبل الشباب ، فالمراد استغراق أفراد فى متعارف المخاطب والمتكلم .

التعريف بالإضافة

١- أن تكون هى الطريق الوحيد للتعيين عند المتكلم فيلجأ إليها رغبة فى الإيجاز من ذلك قول قيس بن الملوح :

فحسبك أنسانى الشراب وبرده   وحبك أبكانى بكل مكان
وحبك أنسانى الصلاة فلم أقم   لربى بتسبيح ولا بقران

فكما ترى الإضافة أخصر طريق كشف به الشاعر عن نفسه الملتاعة ، وأثر حبها فيه .

٢- الإغناء عن التفصيل المتعذر أو المتعسر ، وذلك كقولنا أجمع أهل العلم على أن كتاب الله هو الحق ، فأهل أضيف إلى العلم إضافة أغنت عن تفصيل طويل جدا لا يستوفى كل أهل العلم بالذكر، وذلك قولنا : أهل القرآن هم أهل

الله وخاصة فتفصيل هؤلاء يطول ، فهذا التفصيل متعذر وقد يكون متعسرا إلا أنه ممكن وذلك كقول ابن زيدون :

ولولا بنو جهور ما أشرقت شمس غيد السوالف فى أجيادها تلع

يقول : لولا بنو جهور ما ظهرت آثارى رائعة فتانة مختالة كما تختال الغيداء بجيدها الطويل ، وتميل بعنقها فى تيه ودلال ، وهذه الإضافة تعنى أن بنى جهور جميعا كان لهم يد فى هذا الفضل ، فقد أغنت الإضافة عن التفصيل، وأفادت فوق هذا أنهم على حد سواء ، لأن التفصيل يوحى بالتفاوت •

ومن ذلك أيضا قول مروان بن أبى حفصة فى معن بن زائدة :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لها فى غيل خفاق أشبل

وبنو مطر بطن من شيبان، التفصيل متعسر إلا أنه ممكن، ومن عدم التفصيل أيضا قول مروان وهو من أبيات الحكمة يرثى معن بن زائدة :

وأيام المنون لها صروف تقلب بالفتى حالا فحالا

وفيها مع الإيجاز إيحاء بتهويل شأن المنون أيضا، وكثرة أيام المنون فقد أبصرنا فى الشواهد السابقة كيف أن الإضافة طريق الأذكياء وسبيل النبهاء فى التعبير عن مرادهم دون غمز أحد •

٣- قصد التعظيم ، وذلك حين يكون المضاف أو المضاف إليه عظيما من ذلك قوله تعالى: (إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت) ﴿البقرة/٢٥﴾ ومن ذلك قوله تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) ﴿الفرقان/٦٣﴾ ومن ذلك قوله تعالى : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) ﴿الجن/١٩﴾ ففى الإضافة إلى أسماء الله وصفاته فى الشواهد السابقة تشرف ما بعده تشرف •

٤- قصد التحقير ، وذلك حين يكون المضاف إليه حقيرا ، ومثاله من غير المسند

إليه قوله تعالى:(فقاتلوا أولياء الشيطان. .) ﴿النساء/٧٦﴾ ومن المسند إليه قوله تعالى : (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) ﴿النساء/٧٦﴾ ومنه قوله تعالى : (ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون) ﴿المجادلة/١٩﴾ فالمقصود فى كل مامضى تحقير المضاف ، وقد يقصد تحقير المضاف إليه ، وذلك حين يكون المضاف حقيرا كقولنا:جاء زنديق بنى فلان، أو جاء عربيد بنى فلان ٠

٥- قصد الحث والاستعطاف ،وذلك بأن يضاف المسند إليه لما يجلب العطف والحنو وذلك كقوله تعالى : (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا) ﴿النساء/٨﴾ فقوله : أولو القربى فيه حث على العطف عليهم ، وتقول : إن جاء آخر الفقراء فأعطوه ، وإن استعانكم آخر الضعفاء فأعينوه ،وإن لقيكم أخو المرض فادعوا له بالشفاء ،وهكذا ترى فى كل هذه المثل مسندا إليه مضافا إلى مايقتضى العطف والحنو ، وهناك أسرار أخرى تستنبط من خلال النصوص فى سياقاتها ٠

تنكير المسند إليه :

فى التنكير عموم وإبهام هذا العموم والإبهام أكسب النكرة مرونة فى التجاوب مع إيحاءات السياق ، فتتوالد لها معان توحى بها قرائن الحال والمقال ، ومن أجل ذلك كثرت المعانى التى يوحى بها التنكير من هذه المعانى:

١- أن يكون المقصود الحكم على فرد غير معين كقوله تعالى : (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين) ﴿القصص/٢٠﴾ فليس المقصود رجلا بعينه ٠

٢- تخصيص نوع من أنواع جنس المنكر من ذلك قوله تعالى : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) ﴿ البقرة/٧ ﴾ فالمراد نوع خاص من أنواع الأغطية لايتعارفه الناس ، ومن أجل هذه الدلالة كان للسكاكى أن يحس التعظيم فى هذا التنكير ، وهما نكتتان لا تتناقضان بل تتآزران ٠ ومن ذلك أيضا قول الشاعر :

لكـل داء دواء يستطـــب به ... إلا الحماقة أعيت من يداويها

فالمراد أن لكل داء خاص دواء يعالجه ،ومنه أيضا قول المتنبى يهجو كافورا :

ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن ... يسىء بى فيه كلب وهو محمود

فالمراد أنه نوع خاص من أنواع الكلاب غير ما يعرفه الناس ، وهو ألذع فى مقام الهجاء ٠

٣- قصد التعظيم ،وهو كثير فى مقامات الفخر والمديح من ذلك قول حسان :

إما سألت فإنا معشـــر نجب ... الأزد نســبتنا والماء غسان

شم الأنوف لهـــم مجد ومكرمة ... كانت لهم كجبال الطود أركان

تبصر أن التنكير وسيلة عليا للتعظيم عندما يديرها من يحسن سياسة التراكيب فالتنكير فى قوله مجد ، مكرمة ، أركان ، والمراد أنها جميعا عظيمة عظمتها فوق أن تحصر وأن تحاط بوصف ، ومنه أيضا قول النابغة فى مدح النعمان والاعتذار إليه :

لئن كنت قـد بلغت عنى خيانة ... لمبلغك الواشى أغـش وأكذبُ

ولكننى كنت امرأً إلى جانب ... من الأرض فيه مستراد ومذهب

مـلوك وأخوان إذا مـا أتيتـهم ... أحـكم فـى أموالهـم وأقرب

فقوله:(جانب ومستراد ومذهب)وقع منكرا يراد منه تعظيم هذا الجانب الذى كان يركن إليه يريد بذلك النعمان ، والمستراد هو الإقبال والإدبار يقصد من التنكير الكشف عن عظمة سعة حاله٠ وتمنكه حين كان يركن إلى النعمان٠

ومن الذكر الحكيم قوله تعالى :(ولكم فى القصاص حياة) ﴿البقرة/١٧٩﴾ نكر الحياة تعظيما لها، ومنه قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) ﴿البقرة ٢٠﴾ أى هدى لايقادر قدرها ولا يعرف كنه عظمتها ، ومن شواهد تنكير المسند إليه للتعظيم أيضا قول الشاعر :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

فالمقام مقام مدح، لذا فالمراد التعظيم فى قوله : (همم) وقد يجتمع التعظيم والتقليل فى بيت واحد ، فيكون أعلى فى مقام المدح كقول الشاعر :

له حاجب عن كل أمر يشينه وليس له عن طالب العرف حاجب

أراد أن يعظم ممدوحه فنكر فى قوله (له حاجب) أي حاجب عظيم يمنعه من كل ما يشينه ،وليس له حين تقصده فى طلب معروف أدنى حاجب.
وتأمل بدائع التنكير فى قصيدة مثل قصيدة المتنبى فى سيف الدولة حين يذكر ظفره ببنى عقيل وبنى العجلان وبنى كلاب حين خالفوه .

طوال قنا تطاعنها قصار وقطرك فى ندى ووغى بحار

وفيك إذا جنى الجانى أناة تظن كرامة وهى احتقار

فأنت ترى مرونه التنكير فى مثل هذه القصيدة تأمل (طوال قنا- تطاعنها قصار) يراد من الأول التعظيم ،ويراد من الثانى التحقير ، وتأمل كيف جعل بالتنكير قطر سيف الدولة بحارا ، وتأمل عظمة التنكير فى قوله (أناة) أى أناة عظيمة ، وشواهد هذا السر كثيرة جدا .

٤- قصد التحقير . . من ذلك قول إبراهيم بن العباس ،وكان عاملا على الأهواز من قبل الوثق با لله ، ثم عزل فى وزارة محمد بن عبد الملك الزيات، فقال مخبرا عما صار إليه حاله من تخلى الأصحاب،وتسلط الأعداء .

فلو إذنبا دهر وأنكر صاحب وسلط أعداء وغاب نصير

تكون عن الأهواز دار ى بنجوة ولكن مقادير جرت وأمور

ترى التنكير فى قوله(دهر)(صاحب)(أعداء)(نصير) وكلها تدل على التحقير ،والتنكير يكشف عن تألم الشاعر وتحسره من انقضاء الناس من حوله من بعد ما عزل حتى أحقرهم شأنا ، ومنه قول مروان بن أبى حفصة السابق :

له حاجب عن كل أمر يشينه وليس له عن طالب العرف حاجبُ

٥- قصد التكثير : والفرق بين التعظيم والتكثير أن التعظيم يكون فى علو الشأن ورفعته ، أما التكثير فيكون فى الكم ، وترى التنكير يأتى للتكثير فى مقامات التسلية فى مثل قوله تعالى: (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك . .) ﴿ فاطر/٤ ﴾ فقد نكر لفظ (رسل) للتكثير وللتعظيم أيضا والمقام لتسلية الرسول- ﷺ - ومن ذلك قوله تعالى : (قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين) ﴿ الشعراء٤١ ﴾ فالمراد كما يومض به السياق أن يكون أجرا كثيرا ٠

٦- قصد التقليل وذلك فى مثل قوله تعالى : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر . .) (التوبه٧٢) والشاهد فى قوله (ورضوان) أي ورضوان قليل من الله أكبر من كل ثواب من جنات وسواها ومما يحتمل التقليل والتعظيم قوله تعالى:(يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) ﴿ مريم/٤٥ ﴾ فمن الممكن أن يكون المراد عذابا عظيما ،وممن الممكن أن يكون المراد أدنى عذاب ،وهو الأليق بسياق خوف إبراهيم وشفقته على والده فالأعلى أنه يشفق عليه من أدنى عذاب كما يلمح إليه السياق القرآني٠

ومن ذلك أيضا قوله تعالى:ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ﴿ الأنبياء/٤٦ ﴾ أى أقل نفحة،وهو الأعلى فى مقام الترهيب والمتلائم مع قوله : (مستهم) وإن وقع المس مع ذكر العذاب العظيم كقوله تعالى : (لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴿ النور ١٤ ﴾ فلا يمنع مما ذكرنا لأن

آية النور فى سياق حديث الله عن الإفك ،وأدنى عذاب فى جانب المؤمنين يعد عذابا عظيما .

٧- قد يكون التنكير لجهل المخاطب بجهات التعريف كقول من رأى رجلا مقبلا من بعيد فقال : أقبل رجل لأنه يعرف جهات التعريف وليس فى هذا شئ من البلاغة ،و إنما البلاغة فيما إذا سيق دالا على تجاهل المسند إليه ،وذلك كقولك فى نجاح بليد ورسوب مجتهدين نجح طالب فأنت لم ترد أن تعرفه لأنك لم تأبه به .

٨- وقد يمنع من التعرف مانع فينكر المسند إليه لهذا المانع كقول الشاعر :

إذا سئمت مهندهيمين لطول الحمل بدلها شمالا

فقال: (يمين) ولم يضفه ، سيترتب على الإضافة نسبه السآمة إلى يمينه، وهو غير مستساغ فى مقام المدح وأسرار التنكير لا تتناهى ، ولكل شاهد فى سياقة نكتة مختصة به .

تقديم المسند إليه :

ربما يكون التقديم من أعظم الفنون إثراء لهذه اللغة العبقرية ، وحسبك ما قدم به الإمام عبد القاهر –رحمه الله – لهذا الباب بقوله:"هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطفك عندك، أن قدم فيه شيء ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان(١)

وهو باب يحتاج إلى لقانة لاستنباط ما أشار إليه من أحوال نفس بانيه فضلا عن التمرس عليه ، واختراق السبيل إلى استخدام وسيلة بيانية ، تأمل قول الشيخ: واسع التصرف بعيد الغاية ، فهو باب كأنه لا آخر له ، وهو يومض بالغرض للنابهين ، ويتلفع بثوب الإبهام عن الغافلين ، وكثيرا ما يرفع التقديم شعرا ويقدم كلاما على كلام.

وقد نقض الشيخ كلام السابقين عليه في باب التقديم ،وانتهى إلى أن العلماء الذين سبقوه ذكروا أن العرب : يقدمون الذى بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم (٢) ثم بنى الشيخ كلامه فى التقديم على هذه الكلمة النفيسة التى التقطها من الأسلاف ، وفرع عليها ، وأنبتها نباتا حسنا ، وهذا شأن النابهين من علماء الأمة فى توليد كلام السلف رضوان الله تعالى عليهم .

والتقديم عند الشيخ على ضربين ، تقديم يقال إنه على نية التأخير ، ومعنى ذلك أن يظل المقدم على حكمه الإعرابي، كقولنا : ضرب عمرا زيد ، فإن تقديم " عمرا " على زيد ، لم يغير حكمه الإعرابى .

---

١) دلائل الإعجاز ١٠٦

٢) السابق ١٠٧ .

الضرب الثانى : تقديم لاعلى نية التأخير ، وهو أن يأخذ المقدم حكما جديدا ، وذلك كقولنا :المنطق زيد ، وزيد المنطلق، فإن المقدم منهما يعرب مبتدأ، والمؤخر يعرب خبرا ، ولم يزد السابقون على الشيخ على أن التقديم للعناية وللاهتمام ، وأشار الشيخ إلى ضرورة تفسير وجوه العناية والاهتمام فى كل مثال :

وقد ذكر البلاغيون أغراضا للتقديم منها : -

١- أن يقدم المسند إليه لكونه الأهم ، ولا مقتضى للعدول عنه كقولك : زيد دخل وعمرو خرج ، والحق أن هذه نكتة لا يعول عليها ، ففى الأساليب متسع للأديب الحاذق ، لإنشاء كلامه على نحو يوحى بما ينطوى عليه فؤاده، وحين تطالع كتب البلاغيين فى هذا الموضع لا تراهم يذكرون شاهدا فصيحا لهذا الغرض ، لكنهم يذكرون مثالا صناعيا ولسنا مع القائلين : إنه جاء على الأصل وما جاء على الأصل لا يسأل عن سره ،وإنما لابد من غرض من اجله قدم.

٢- يقدم المسند إليه لتمكن الخبر فى ذهن السامع ، وذلك لأن فى المبتدأ تشويقا إليه ، وذكروا فى هذا الغرض قول أبى العلاء المعرى: -

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

وما من ريب فى أن المسند إليه يوحى بتلهف النفس إلى الوقوف على ذلك الذى حارت البرية فيه ، ولكن ألست معى فى أن هذا الغرض يعود على المسند لا على المسند إليه، فيقال أخر المسند للتشويق إليه ، ولإثارة انتباه النفس، فيقع لها بعد طول تلهف وانتظار ؟ فالحاصل بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب كما قالوا.

وأقول لك : إن تقديم المسند إليه هنا غرضه التشويق إلى الخبر ، ويمكن أن يمثل لذلك بقولنا : الذى حصل على تقدير ممتاز محمد ، فقد اشتمل المسند

إليه على ما يشوق إلى ذكر الخبر ومنه أيضا قول ابن زيدون يمدح الوزير محمد بن جهور

وإن الـذى أملـت كدر صفوه   فأضحى الرضا بالسخط منه يشاب (١)

وقوله أيضا فى نفس القصيدة

سرور الغنى ما لم يكن منك - حسرة   وأرى (٢) المنى ما لم ينل بك صاب (٣)

النفس حين ذكر المسند إليه وخالطها أو لا ، أثار فيها انتباها وتلهفا لمعرفة ما ألم بأمل ابن زيدون ، وقوله فى البيت الثانى سرور الغنى جعل العقل يتلفت لشأن سرور الغنى ،ومنه قول شوقى :

إن المغـالط فـى الحقيقة نفسـه   باغ على النفس الضعيفة عـاد

وقوله :

إن الـذى قسـم البلاد حـباكم   بلـدا كأوطـان النجوم مجيـدا

وقوله :

وإن الذين أست جراحك حـربهم   قتلتك سـلمهمو بغير جراح

وقوله

إن الـذى مـلأ اللغات محاسنا   جعل الجمال وسره فى الضاد

وهو كثير فى الشعر والنثر :

٣- التعجيل بالمسرة ،أو المساءة وذلك حين تسارع بقذف ما يوحى بالسرور أو المساءة فى صدر المخاطب كقولك المرحوم المؤمن ، والملعون الكافر ، ولعل من التعجيل بالمساءة قول المتنبى:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا   لمن بات فى نعمائه يتقلب

---

١) يشاب : يخلط

٢) الأرى : العسل

٣) الصاب : عصارة شجر مر

فإنه قد عاجل الحسود بسمته بأشنع الصفات ،وأبغضها إلى النفوس ، وذلك مستفاد من ذات اللفظ، ومن تقديم وافتتاح الكلام به ومن التعجيل بالمساءة قول حسان:

واللؤم خير من ثقيف كلها   حسبا وما يفعل لئيم تفعل

٤-يقدم المسند إليه لإظهار تعظيمه : كقولك الشجاع مر بنا ، والكريم أقبل علينا ، فمع أن معنى لفظ المسند إليه يفيد التعظيم، إلا أن التقديم أيضا ، أوحى إلى المخاطب أنك تعاجله بإظهار التعظيم ، ويمكن أن يكون من هذا الباب قوله تعالى : " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم " ﴿التوبه/١٠٠﴾ فلا يخفى أن فى ذات لفظ المسند إليه (والسابقون) . . إيحاء بعظيم شرفه ، مع ما يومىء به أيضا من وجه بناء الخبر ، ومن التشويق إلى مجىء الخبر، فكل التراكيب فى الآية الكريمة تتظاهر على التشريف ٠

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا" ﴿الفرقان/ ٦٣﴾ ففى التقديم هنا مبادرة لإظهار تعظيم المسند إليه ، فلا أعلى من أن ينسب العبد إلى ربه ٠

٥- يقدم المسند إليه لإظهار تحقيره : من ذلك قوله تعالى : والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون "﴿البقرة/ ٣٩﴾ فلا أشنع من الكفر، ففى تقديم المسند إليه مع شناعته معاجلة لهم بهذه الصفة القبيحة تنفيرا للمؤمنين عنها ، وتقبيحا لما عليه الكافرون ٠ ولعل منه قول سيدنا رسول الله ﷺ "ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا ، فإن أعطاه منها رضى ، وإن لم يعطه منا سخط ، ورجل أقام سلعته بعد العصر

فقال : و الله الذى لا إله غيره ، لقد أعطيت بها كذا وكذا ،فصدقه رجل. ثم قرأ هذه الآية " إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا . . .(١)

المبتدأ هنا وصف بما يفيد تقبيحه ،وفى تقديمه إيماء إلى المعاجلة بالوصف الشنيع ، حتى الآية الكريمة التى ختم بها هذا الحديث الشريف داخلة فى هذا الباب أيضا ،وهذا دأب الكتاب والسنة فى الترغيب والترهيب،فى الترغيب يعاجل بالتعظيم ، وفى الترهيب يعاجل بالتحقير فالأول ادعى للامتثال ، والثانى ادعى للانتهاء .

ولا يخفى أن فى تقديم المسند إليه بهذا البناء للغوى إيماء إلى وجه بناء الخبر فبناء المسند إليه يوحى بتمام إبعادهم وطردهم عن رحمه الله -عز وعلا-

٦-تقديم المسند إليه إيماء إلى أنه لا يغيب عن الخاطر ، وأكثر ما ترى ذلك فى النسيب ، فلا ألذ عند الأحبة من ذكر المحبوب ، فهو لخاطرهم ملازم أبدا فلذكر محبوبهم أثر بالغ فى قلوبهم تأمل قول ابن أبى ربيعة

ما يذكر اسمك فى حديث عارض إلا استخف له الفؤاد فطارا

فإن ذكر اسمها عرضا يفعل بفؤاده الأفاعيل ، فيهيج إحساسه ويلهب مشاعره وربما يكون من ذلك قول جميل فى بثينة :

بثينة صف قلبن أيدى الـ رماة ،وما يحملن قوسا ولا نبلا
ولكنما ظفرن بالصيد كلما جلون الثنايا الغر والأعين النجلا(٢)

ومنه قوله :

بثينة تزرى بالغزالة فى الضحى إذا برزت ، لم تبق يوما بها بها

. فهو يكرر اسمها ويقدمه تلذذا ، وإلماعا إلى أن بثينة فى خاطره لا تغيب عنه أبدا ومن ذلك قول ابن ربيعة فى نعم :

---

١) أخرجه الشيخان فى كتاب المساقاة والشهادات والأيمان

٢) ١) الأعين النجل : هى العيون السوداء الجميلة

نعم الفؤاد مزارها محظور بعد الصفا وبيتها مهجور

وتراه أيضا فى الرثاء كقول الخنساء

ألا ابكى على صخر وصخر ثمالنا إذا الحرب هرت (١)واستمر مريرها

وتقول :

فصخر لديها مدره (٢)الحرب كلها وصخر إذا خان الرجال يطيرها

وقد ذكر أنه قيل للخنساء : صفى لنا أخويك صخراو معاوية ، فقالت : كان صخر جنة الزمان الأغبر وذعاف الخميس الأحمر(٣) ، وكان معاويه القائل الفاعل ، قيل لها : فأيهما كان أسنى وأفخر ؟ قالت : أما صخر فحر الشتاء ، وأما معاوية فبرد الهواء ، قيل لها : فأيهما أوجع وأفجع ؟ قالت : أما صخر فجمر الكبد ، وأما معاوية فسقام الجسد: وهو من البيان العالى، تراها تكثر من ذكر أخويها ، وتقديم ذكر المسند إليه على المسند إلماعا إلى عدم غيابهما عن الخاطر ، وقد شاع ذكر صخر فى شعرها وكان ذكره عظيم الموقع فى التراكيب التى ورد فيها.

١) هرت : ظهرت أماراتها وخايل الشر فيها

٢)مدره الحرب : أى سيد الحرب وشريفها

٣) ذعاف الخميس الأحمر : هو السم سريع القتل للجيش الجرار

تقديم المسند إليه على خبره الفعلى

عنى البلاغيون بتناول هذا الأسلوب ، وكأنه شىء غير تقديم المسند إليه ودارت حوله مناقشات طويلة ، الذى يهمنا منها مذهب الشيخ وهو أن المسند إليه إذا كان خبره فعلا وقدم عليه ، فإنه يفيد أمرين

١) التخصيص ·

٢) تقوية الحكم

وقد ذكر أن التقديم يفيد التخصيص قطعا إذا سبق المسند إليه بأداة نفى، وإن لم يسبق بنفى فينظر فى الأسلوب إلى المسند اليه فإن كان نكرة أفاد تقديمه التخصيص قطعا ، وإن كان معرفة ، فتارة يفيد التخصيص وتارة يفيد التقوية والتوكيد ، أما السكاكى فلم يشترط أن يسبق المسند إليه بنفى ، وإنما المعول عنده فى إفادة الاختصاص شرطان الأول : أن يصح تأخير المسند إليه وتصير العبارة فى أنا قمت – قمت أنا ، والشرط الثانى : أن تقدر أن أصل العبارة هو التأخير أى أن يعتبر المتكلم أن أصل العبارة قمت أنا ، وهذا كما قال شيخنا الدكتور أبو موسى – يتجافى مع فطرة اللغة ويسر أدائها (١)

والمهم فى هذا الأسلوب أنك ترى أن الفعل أسند إلى فاعله مرتين من هنا يفيد التقوى أو التخصيص ، فإذا قلت محمد يضرب ، فإنك تقدر فاعلا ليضرب يعود على محمد ، فكأنك أكدت إسناد الفعل إليه ، وتقديم المسند إليه على خبره الفعلى من الأساليب الشائعة فى الذكر الحكيم وفى لغة العرب، وخلاصة القول أن المسند إليه إذا قدم على خبره الفعلى وولى النفى أفاد القصر قطعا عند الإمام عبد القاهر وجمهور البلاغيين ، أما إذا لم يسبق بنفى لم يفد القصر قطعا ، وإنما يرجع ذلك إلى سياق الكلام وملابساته ·

---

١) خصائص التراكيب ص ١٧٨

ب. إزالة الشك لدى السامع

وقد ذكر المقامات التى يحلو فيها هذا الأسلوب

١) مقام الإنكار تراه فى قوله تعالى : ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴿آل عمران /٧٥، ٧٨﴾ وذلك أن الكاذب من أشد المنكرين وأكبر المعاندين ، فجاء الأسلوب مبنيا على التوكيد ، ملاءمة للمقام ٠

٢) مقام الشك ، تراه فى قوله تعالى:وإذا جاء وكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ﴿ المائدة/ ٦١﴾ فقولهم (آمنا) دعوى عريضة منهم أنهم لم يكفروا ، فهم يحاولون التشكيك فى أنهم من الكافرين ، فبنى الأسلوب على هذا ، تلاؤما مع المقام ٠

٣) يحسن فيما لا يلائم العقل ، ترى ذلك فى قوله تعالى : (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون ﴿الفرقان/ ٣﴾ فقوله (وهم يخلقون) فيه توكيد لنفى ماهم عليه من عدم العقل فى القياس ، فكيف يدعون الخالقية للمخلوق ؟!

٤) الوعد والضمان : فالذى يعد لابد وأن يؤكدوعده ليضمن الموعود نيل مأربه، كأن تقول : أنا أعطيك ٠

٥) المدح والفخر : وذلك أن المادح متهم بالنفاق والتزلق ، فيورد مناقب الممدوح مؤكدة ، وذلك كقول زهير بن أبى سلمى :

ولأنت تفرى ماخلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لايفرى (١)

ومنه قول طرفه بن العبد أيضا :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لاترى الآدب فينا ينتقر (٢)

فمن شأن المادح والمفاخر أن يمنع الشك عن السامعين ، فيصطفى هذا الطريق

---

١) تفرى : تقطع ، ماخلقت ماهياته لقطعه وخرزه

٢) يريد نعم بدعوتنا إلى الطعام ولا نخص أحدا فى الشتاء

وسيله لغرضه ، يدفع بها كيد الحسود . ويمحو بها الشك من الصدور .
ومن ذلك أيضا قول الشاعر :

هم يفرشون اللبد كل طمرة   وأجرد سباح يبذ المغالبا (١)

وكما ترى هذا الأسلوب وسيلة مصطفاة حين إرادة تأكيد المناقب ، وإثبات المفاخر ، تراه أيضا فى الهجاء ، إذ يريد الشاعر به أن يؤكد نسبة المثالب إلى من يهجوه .
من ذلك قول حسان بن ثابت رضى الله عنه فى بنى قريظة .

تعاهد معشر ولوا بكفر   وليس لهم ببلدتهم نصير

هم أوتوا الكتاب فضيعوه   فهم عمى من التوراة بور

فتراه أكد نسبة هذه المثلبة بإسناد الفعل إليهم مرتين ،ومنه قوله يهجو هذيلا:

هم غروا بذمتهم خبيبا   فبئس العهد عهدهم الكذوب

وتراه أيضا فى هجاء الأخطل بنى زيد اللات من قصيدة مطلعها

فولا لزيد (يش) عنا لسانه   ولا يدن منا فى الزحام فيظلعا (٢)

يقول :

فأنتم أكلتم جاركم فى بيوتكم   كما قد أكلتم قبل ذاك المقنعا

ونحن وفينا بالمزنم كله   وأنتم أكلتم ذا الجواعر أجمعا (٣)

وغير ذلك كثير يمكن أن تقع عليه فى أشعار العرب ، وتراه أيضا فى

---

١) اللبد : الصوف يوضع على الفرس ، الطمرة انثى الطمر وهى الفرس والجواد ، الأجرد الفرس القصير الشعر ، السباح الذى يشبه عدوه السباحة ، يبذ يغلب

٢) يش : يطوى يطلعا أى يصيبه العرج فى الرجلين الديوان ٢٠٤، ٢٠٥ .

٣) المقنع هو المقنع الكندى شاعر أموى أنفق ماله وكثر دينه ، فعيره أبناء عمه بفقره ولم يصاهروه المزنم : هى الكريمة من الإبل التى كثر لحمها ، ذو الجواهر : البعيد الهزيل يريد بهاتين البيتين ذمهم بالجبن وعدم المروءة والبخل .

الرثاء فإن الرثاء أخو المديح ، فإن الراثى يورد من الأساليب ما يؤكد نسبة المناقب إلى المرثى وربما يكون من ذلك قول أبى ذؤيب :

وكلاهما قد عاش عيشة ماجد   وجنى العلاء لو أن شيئًا ينفع

والبيت هو آخر الأبيات التى ختم بها قصيدته فى رثاء أولاده الخمسة الذين أصابهم الطاعون وكانوا رجالا ولهم بأس ونجدة قد جاء بضمير المثنى فى نهاية صورة رسمها لنهاية صراع بين الثور والحمار ، وقد ختم هذه القصة بهذا البيت وكأنه نغمة ينوح فيها على هذين الفارسين .

تقديم مثل وغير

ذكر البلاغيون أن تقديم هاتين الكلمتين فى الأساليب الرفيعة كالشىء اللازم وأن تقديمهما من طبائع العربية

ولما كانتا بهذه المثابة اختصهما البلاغيون بالبحث ،وكأن هذا الأسلوب طريق خاص من طرق تقديم المسند إليه مع أن تقديمهما مقصودا بهما غير ما أضيفتا إليه يفيد تقوية الحكم وتقريره ، إلا أن التقديم بهذا الأسلوب فيه زيادة تقوية وقد اشترطوا لدلالتهما على التقوية أن يراد بهما غير ما أضيفتا إليه من غير تعريض.

تقول مثلك يعفو عن العظيم ، وغيرك يأخذ بالذنب اليسير . أنت لاتريد بمثل ولا غير هنا الضمير الذى يليهما ، وإنما تريد غير هذا الضمير ، وهذا تعبير كنائى بمثابة دعوى الشىء ببينه ، فإذا ماكان المثل يعفو ، فعفو الأصل الذى يقاس عليه أولى ، والكناية فى ذلك من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم

ومن أجل هذه الدلاله قال المتنبى

ولم أقل مثلك أعنى به ــــ سواك يافردابلامشبه

ومما استشهدوا به لهذا اللون قول المتنبى :

مثلك يثنى الحزن عن صوبه ــــ ويسترد الدمع عن غربه

البيتان من قصيدة للمتنبى فى تعزية عضد الدولة فى عمته ، يريد أنه يقدر على دفع الحزن عن قصده ، ويغلبه بالصبر،ويرد الدمع إلىقراره ومجراه ، بأن يصرفه عن المجرى ، وكيف لاتفعل هذا ،وأنت لاشبه لك . وقد أسعف المتنبى هذا الأسلوب فى توكيد المراد ، وقد شرح المتنبى معنى (مثلك يثنى) بالبيت الذى جاء بعد ذلك والمذكور هنا قبلا ، والذى كشف به أنه يريد نفس المخاطب لاغير، وكيف يريد غيره وهو الذى لامثل له فى زمانه ؟!

ومنه قول البحرى يمدح عبيد الله بن يحيى بن خاقان

ولى غير حق واجب إن رعيته   فمثلك يـرعى مثله ويؤيد (١)

فاستخدام مثل فى موضعيها هو الألصق بمقام المدح

ومن ذلك أيضا قول القبعثرى للحجاج لما توعده بقوله(لأحملنك على الأدهم والأشهب فقال الرجل " مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب " أى من كان على هذه الصفة من السلطة وبسطة اليد ، ولم يقصد أن يجعل أحدا مثله ·

ومن ذلك ماقال البحترى ما دحا المعتز بالله

ومثـلك أعـطاها وأضعاف مثلها   ولا غرو للبحر انبرى يتدفق(٢)

لئن صنت شعرى عن رجال أعزة   فإن قوافـــيه بوصفك أليـق

يريد مدحه بالجود والكرم فبنى مدحه على هذا الأسلوب توكيدا لمراده وتقوية لكلامه ومنه أيضا ما عاتب به البحترى الفتح بن خاقان :

لى الذنب معروفا وإن كنت جـاهلا   به ، ولك العتبى على وأنعما

ومثـــلك إن أبدى الفعـــال أعاده   وإن صنـع المعروف زادوتما

ومن ذلك أيضا قول المتنبى يمدح سيف الدولة و يرثى ابن عمه تغلب أبا وائل:

ومثله أنكر الممات على   غير سروج السوابح القود (٣)

فهو يريد الرجل ولا يريد مثله غير أن هذا البناء أكد شجاعته ،وقوى دلالة إقدامه ومنه أيضا قول المتنبى فى سيف الدولة : -

مثل الأمير بغى أمرا فقـــربه   طول الرماح وأيدى الخيل والإبل

فهو لايريد غير سيف الدولة ، ولكنه يريده هو ، فإنه إذا ما أراد أمرا قربه

---

١) الديوان ١/٥١٧

٢) ديوان البحترى ١٥٣٤ ·

٣) الديوان ١/٢٦١ المعنى على ان مثل هذا الرجل لشجاعته ينكر الموت على غير السروج فى الحرب لأنه مارس الحروب ولقى الأبطال السوابح : جمع سابحة أو سابح ،وهو الشهيد الجرى، كأنه يسبح فى جريه والقود : الطوال من الخيل ·

بالرماح والمطايا ومنه أيضا قوله فى رثاء أبى الهيجاء بن سيف الدولة :

ومثلك لا يبكى على قدر سنه ولكن على قدر المخيلة والأصل

وقال أيضا فى مدح كافور :

ومثلك من كان الوسيط فؤاده فكلمه عنـــى ولم أتكلم (١)

والمعنى مثلك فى كرمك وسماحتك ، يكون فؤاده بينه وبينى وسيطا ، فيكلمه عنى ولا يحوجنى إلى الكلام ، وكما أبصرت هذا الأسلوب وسيلة عالية من وسائل توكيد المناقب ، تبصرها فى المثالب بقول المتنبى فى هجاء كافور :

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا (٢)

ما من ريب أنه يريده هو لاسواه ، غير إنه كنى عن مراده ، إقذاعا فى الهجاء وتوكيدا لإثبات المثلبة ، وكان المتنبى قد نظر إلى قدمى كافور فضحك منهما فكتب عشرة أبيات فى هذا المعنى هذا البيت آخرها ، والمعنى فيه أننى إذا نظرت إليك طربت وضحكت ، لأنك يؤتى بك من البلاد البعيدة ليضحك الحزان والبواكى ، لأنك عجب من رآك ضحك ،وقد صرح فى هذا البيت بجميع ماكان أخفاه فى مدحه بقوله فى غير هذه .

ومـا طربـى لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب (٣)

ومن شواهد غير فى هذا الباب قول أبى تمام

وغيرى يأكل المعروف سحتا وتشحب عنده بيض الأيادى

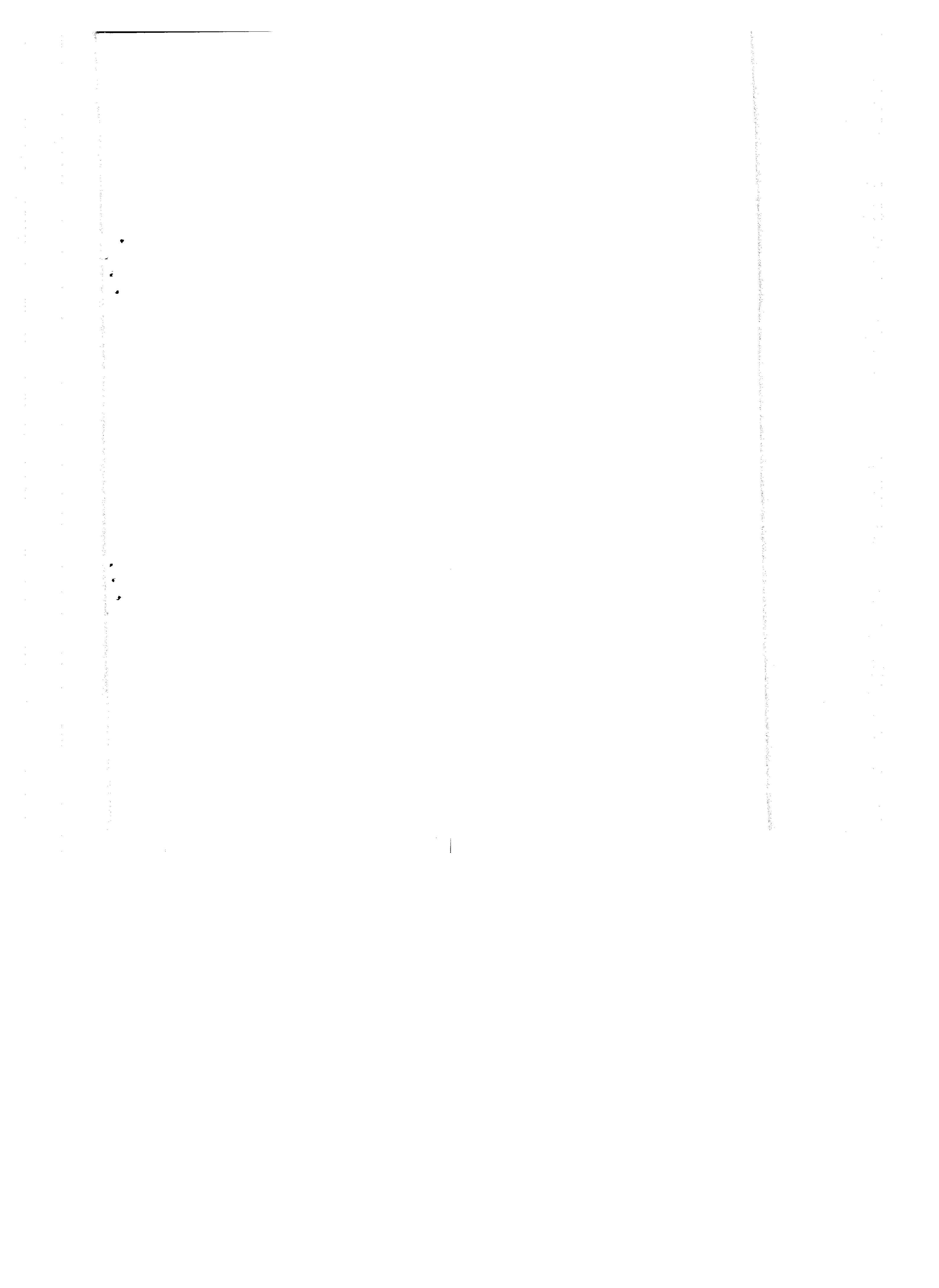
فإنه لم يرد أن يعرض بشاعر سواه ، فيزعم أن الذى قرف به عند الممدوح من أنه هجـاه كان من ذلك الشاعر لامنه ، بل أراد أن ينفى عن نفسه أن يـكون

---

١) الديوان ٤/١٤٢ .

٢) الديوان ٤/٢٩٦ .

٣) التبيان للعكبرى ٤/٢٩٦ .



عموم السلب وسلب العموم

هذا لون آخر من ألوان تقديم المسند إليه ، فإذا تقدم المسند إليه وهو لفظ يدل على العموم والشمول مثل (كل)و(جميع) وسبق بنفى ، دل على سلب العموم وعلى أن الحكم غير مستغرق للأفراد ، أما إذا تأخرا النفى عنه دل ذلك على عموم السلب فمن الأول قول أبى الطيب :

ماكل مايتمنى المرء يدركه تأتى الرياح بما لاتشتهى السفن

فالنفى هنا مسلط على العموم ، أى لم يدرك المرء جميع ما يتمناه ،وإنما يدرك بعضه ، وهو من أبيات الحكمة ، فكأن هذه الصياغة تكثر فى مواطن الحكمة.

ومنه أيضا قول أبى العتاهية :

ماكل رأى الفتى يدعو إلى رشد إذا بدا لك رأى مشكل فقف

فأبو العتاهية لم يقصد استغراق الآراء رأيا رأيا ، وإنما نفى أن تكون آراء الفتى رشدا كلها ، وإنما بعضها رشد وبعضا غير ذلك.

ومنه أيضا قول أبى الطيب .

وما كل وجه أبيض بمبارك ولا كل جفن ضيق بنجيب

وقوله :

ليس كل السراة بالروذبا رى ، ولا كل ما يطير بباز (١)

يريد أن يقول ليس كل سيد كهذا الممدوح ، ولا كل ما يطير كالبازى ، وليس أحد كهذا الممدوح .

وقوله :

وما كل من يهوى يعف إذا خلا عفافى ، ويرضى الحب والخيل تلتقى

---

١) السراه : جمع سرى . والروذبارى : هو الممدوح أبو بكر على بن صالح الكاتب ، وروذبار نسبة إلى بلدة أبيه روذبار ،وهى بلدة من بلاد العجم .

يقول: ليس كل عاشق عفيفا شجاعا مثلى يعنى أنه يشجع فى الوغى ويعف عند الهوى ·

وقوله :

وما كل سيف يقطع الهام حده   وتقطع لزبات الزمان مكارمه (١)

يقول : هو افضل من السيف ، فقد ينبو حد السيف فلا يقطع ، ومكارم هذا الممدوح تذهب شدائد الزمان ، وتقطعها عن كل إنسان ، فلا تشبه أفعاله فعل السيف حتى يسمى باسمه ، فقد بان له على السيف فضل ظاهر ، وشرف بين فاخر ، وأنه يقصر عنه ، ويتواضع دونه كما قال العكبرى ·

أما إذا تأخر النفى ، فإن تقديم المسند إليه حينئذ يدل على عموم السلب من ذلك قول أبى النجم :

قد أصبحت أم الخيار تدعى   على ذنبا كله لم أصنع

فالشاعر فى مقام دفع التهمة عن نفسه ، فيريد أن ينفيها عنه نفيا قاطعا فبناها بأسلوب يستغرق كل جزئياتها ، وذلك التوجيه جار على رفع (كله) أما على النصب، فلا يصلح البيت شاهدا لما نحن فيه

فهذا الأسلوب من الأساليب التى تستغرق كل أفراد الجنس ، فإذا قلنا كل الطلاب لم يرسبوا ، فمعنى هذا أن الطلاب جميعا قد نجحوا فردا فردا ، هذا ما قرره جمهور البلاغيين

على أن الأمر أغلبى ، وإلا فقد تقدم النفى على كل فى مواضع من الذكر الحكيم والمراد الاستغراق ، وذلك كقوله تعالى :(والله لا يحب كل كفار أثيم ﴿ البقرة/ ٢٧٦ ﴾ وقوله "والله لا يحب كل مختال فخور) ﴿ الحديد/٢٣ ﴾ وقوله (ولا تطع كل حلاف مهين) ﴿ القلم /١٠ ﴾ وغير ذلك كثير ، والحق أن الذى يقرر هذه الدلالة هو السياق فالسياق ذو أثر فاعل فى تحديد الدلالات·

---

١) اللزبة الشدة ديوان المتنبى ٣/٣٤٢ والتبيان للعكبرى الصفحة نفسها

أغراض تأخير المسند إليه :

قال الخطيب : وأما تأخيره فلا اقتضاء المقام تقديم المسند (١) وهذا يعنى أنهم استغنوا بما ذكروه فى أغراض تقديم المسند ، من ذكر أغراض تأخير المسند إليه ، وفى المقابل تراهم استغنوا عن أغراض تأخير المسند بما ذكروه فى أغراض تقديم المسند إليه ٠

وبوسعك أن تقول يؤخر المسند إليه للتشويق ، أو لأن التفاؤل متعلق بذكر المسند ، أو لأن التشاؤم متعلق بذكر المسند ، فتريد معاجلة المخاطب بالتشاؤم ، أو بالتفاؤل ، ومن الأغراض التى من أجلها يؤخر المسند إليه إرادة القصر ، فإن تقديم المسند على المسند إليه يفيد قصره عليه ، ومعلوم أن التقديم من طرائق القصر وسبله ٠

---

١) الإيضاح ١/١٤٤.

وضع المضمر موضع المظهر وعكسه

هذا الفن من المباحث الملحقة بأحوال المسند إليه وقد ذكره البلاغيون بعد أحوال المسند إليه لأنه متعلق بالمسند إليه وهو يرد فى كلام العرب على ضربين وضع المظهر موضع المضمر ، ووضع المضمر موضع المظهر، وكان ما مضى من الأحوال هو الظاهر ·

وهذه المباحث على خلاف مقتضى الظاهر، والكلام إذا ماكان على خلاف الظاهر ازداد ثراء ، وكثرت نكاته ، وتشعبت أغراضه ، والعموم الذى تدور عليه نكات خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، هو إثارة الانتباه ، وزيادة الاهتمام فإن النفس إذا ما كانت تنتظر إيراد الكلام على نحو ما ، ثم باغتها بخلافه ، أثار ذلك التغيير حسها ،وجاذب عقلها ، فكأنك تمكن لكلامك ، وتهيىء لمرادك ·

أولا : وضع المضمر موضع المظهر :

وقد شاع هذا الأسلوب فى موضعين :

الأول : أن يكون المسند إليه ضمير شأن أو قصة ، وهو لون من عقد قلب المخاطب بما يجب أن يكون مرتكزا فى الذهن والخاطر لا يغيب عنه أبدا ، فالضمير فى العربية لابد له من مرجع يعود عليه ، وذلك لما فيه من الإبهام والتعمية فهو كالمستطيع البيان بغيره ، ومما هو ذائع فى هذا الباب قوله تعالى: "قل هو الله أحد" ﴿الإخلاص/١﴾ ذكر العلماء : أن الضمير للشأن ، ومدار موضعه مع عدم سبق ذكره الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد ، والسر فى تصدير الجملة به ، التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها ، وجلالة حيزها ، مع مافيه من زيادة تحقيق وتقرير ،

فإن الضمير لايفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن مترقبا لما أمامه مما يفسره ، ويزيل إبهامه ، فيتمكن عند وروده له فضل تمكن(١)

ومن ذلك نعلم أن الغرض من وضع المضمر موضع المظهر هو الإيذان بشهرته ونباهته ،ونعلم أيضا أن الغرض من تصدير الجملة به : الإيذان من أول الأمر بفخامة مضمونها وجلاله حيزها، وفى ذلك من التحقيق والتقرير مافيه ، ولا يرد مثل هذا الأسلوب إلا فى المهم من المواطن .

وعلى هذا النحو وردت آيات كثيرة فى الذكر الحكيم منها قوله تعالى : إنه لا يفلح الكافرون " ﴿المؤمنون/ ١١٧﴾ ، وقوله "فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور "﴿الحج/ ٤٦﴾الماعا إلى أنه لاينبغى أن يغيب عن الخاطر عدم فلاح الكافرين ، وكأن هذه القضية ينبغى أن تكون من العلم بمثابة المركوز فى الطباع ، وقل مثل ذلك فى الثانية ، وفى هذا الأسلوب من التقرير والتمكين مافيه

ومن ذلك قول الشاعر :

هى الأمور كما شاهدتها دول   من سره زمان ساءته أزمان

فإنه لم يسبق مرجع لهذا الضمير ، غير أنه وضع المضمر موضع المظهر إلماعا إلى عظيم الأثر الذى تركته هذه الأمور ، فأصبح للنفس بها إلف ، فلا يغيب ذكرها عن الخاطر .

الثانى : إذا كان المسند إليه ضميرا فى (نعم وبئس) ، فالضمير المستتر فيهما لم يتقدم له مرجع فى الكلام ، ولم تدل عليه قرينة ، فكان الظاهر أن يؤتى باسم ظاهر، لأن شرط الإضمار مفقود ، ويكون السر فى ذلك هو التفصيل بعد الإجمال،والبيان بعد الإبهام، وذلك هو الأوقع فى النفس والأليق بمقام المدح أو الذم

١) تفسير أبى السعود ٧٥١/٨ .

من ذلك قول الشاعر : -

نعم امرأ هرم لم تعر نائبة　　　إلا وكان لمرتاع بها وزرا

أو مبتدأ محذوف الخبر ويصلح هذا البيت شاهدا على رأى من يجعل المخصوص خبر مبتدأ محذوف ، فيكون الضمير الفاعل عائدا على معقول معهود فى الذهن ، ولا يصلح شاهدا على رأى من يجعل المخصوص بالمدح (هرم) مبتدأ مؤخرا ،وما قبله خبر عنه ، فيكون الضمير الفاعل عائدا على مذكور متقدم رتبة ، فعلى الرأى الأول يكون فى البيت إيضاح بعد الإبهام ،والمقام مقام مدح كما ترى ·

ومما جاء منه فى الكتاب العزيز قوله تعالى :ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون " ﴿الأعراف ١٧٧﴾ فالمسند إليه هنا مضمر ، وكان الأصل إظهاره ، إلا أن الله أراد أن يجعل العلم بذمهم متكمنا فى النفس قارا فيها ومنه أيضا قوله تعالى : "إن تبدوا الصدقات فنعما هى . . . ﴿ البقرة ٢٧١﴾(١)

"هى " فى الآية الكريمة مخصوص بالمدح ، وقد علم السامع أنها الصدقات المبدأة فكأن الله -سبحانه - يريد بهذا البناء ترسيخ ذلك فى النفوس ،ولاسيما أن النفوس كانت تعاف إبداء الصدقات ، فذلك البناء هو أليق بأسلوب المدح الملحين على الثبات عليه بدلا من تركه والنفور عنه ·

ثانيا : وضع المظهر موضع المضمر :

وذلك يكون إذا تقدم فى الكلام اســـم ظاهر ، فإن مقتضى الظاهر أن

(١) نعما : أصله نعم ما فأدغم المثلان وكسرت عين نعم ، لأجل التقاء الساكنين ، وما نكرة تامة أى موغلة فى الإبهام لا يقصد وصفها بما يخصصها ، فتمامها من حيث عدم أتباعها بوصف لا من حيث إنها واضحة المعنى ولذلك تفسر بشىء ، ولما كان كذلك تعين أن تكون فى موضع التميز لضمير نعم المرفوع المستتر ، فالقصد منه التنبيه على القصد إلى عدم التميز·

يذكر بالضمير إن تكرر ذكره ، ولكنك تراه فى كثير من الأساليب يذكر اسما ظاهرا ، بالرغم من سبق ذكره فى الكلام ، فيؤذن هذا التغيير بأغراض بلاغية وإيحاءات أسلوبية ،ومجمل القول أن البلاغيين يذكرون أن ذلك يكون لزيادة التقرير.

والظاهر أن المسند إليه إذا جاء على خلاف الظاهر ، وكان اسم إشارة أفاد ذلك أسرارا منها .

١- كمال العناية بالمسند إليه لاختصاصه بحكم بديع ، فيوضع لذلك فى معرض الحس المشاهد ، لما فى اسم الإشارة من كمال التمييز من ذلك قول الشاعر:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه   وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هـذا الذى ترك الأوهام حائرة   وصير العالم النحرير زنديقا.

فالمسند إليه (هذا) كان حق المقام أن يكون ضميرا غير أنه خالف الظاهر، وجاء باسم الإشارة ، لأن الحكم المسند إلى اسم الإشارة - وهو جعل الأوهام حائرة والعالم النحرير زنديقا- حكم بديع ، أراد الشاعر أن يوليه مزيد عناية وفضل اهتمام ، وكمال تمييز فذكره باسم الإشارة حتى يتم له ما أراد.

٢- بيان ان الأمر بلغ من كمال ظهوره ، مبلغ المحسوس المشاهد وذلك فى قوله تعالى : مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴿الرعد/٣٥﴾ فكان مقتضى الظاهر أن يقول وهى عقبى غير أنه عدل عن ذلك إلى اسم الإشارة إلماعا إلى تلك المثوبة وذلك الجزاء مما يجعل هذا الأمر ، بمثابه المحسوس المشاهد كما يفهم من كلام ابن عاشور(١)

٣- ادعاء أن الأمر قد كـ[illegible]ـهوره حتى صار كأنه محسوس مشاهد مـن ذلك

١) التحرير والتنوير ١٣/١٥٦ وقد [illegible] بعض أهل العلم هذه الآيه تحت غرض ادعاء أن الأمر قد كمل ظهوره حتى صار كأنه محسوس ، والادعاء مما لا يليق مع الكتاب العزيز انظر معانى التراكيب د. عبد الفتاح لاشين ١/٢١٦

كقول مرة بن عبد الله الهلالي

تعالت كي أشجى وما بك علة ... تريدين قتلى قد ظفرت بذلك

وكان المقام للضمير (قد ظفرت به) غير أنه عدل إلى التعبير بالاسم الظاهر، إيماء إلى ظهور أثر علتها عليه ، والقتل هنا قتل نفسى لاحسى ، فكان الخروج على خلاف الظاهر ، هو الأليق بمقام الشكوى والعتاب .

وإن كان المظهر غير اسم إشارة ، فإن ذلك يكون لأسرار منها :

١- قصد التعظيم ، وذلك جار كثير فى الذكر الحكيم من ذلك قوله تعالى :واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم ﴿ البقرة/٢٨٢ ﴾ ، وقوله تعالى "أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴿ المجادلة/٢٢ ﴾ ،وقوله"واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴿ الحشر/٦ ﴾ "الله أحد الله الصمد ﴿ الإخلاص/١، ٢ ﴾

وقد وضع كذلك فى سورة الإخلاص ، إيذانا باستقلال كل جملة ، وذلك لما فى كل منهما من جلال المعنى ، وخطر البيان ،ومما هو ظاهر فى ذلك قوله تعالى :" وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴿ الإسراء/ ٧٨ ﴾ تعظيما للتعبد فى هذا الوقت والقراءة فيه .

وقوله تعالى: (الحاقة ما الحاقة) ﴿ الحاقة/٢٢ ﴾ (القارعة ما القارعة ﴿ القارعة /١،٢ ﴾ كان القياس -كما يقول الزركشى - الحاقة ماهى ، والقارعة ماهى لولا ما أريد به من التعظيم والتفخيم

ومثله قوله تعالى: وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ﴿ الواقعة/ ٨، ٩ ﴾ تفخيما لما ينال الفريقين من جزيل الثواب وأليم العقاب (١)

-قصد الإهانة والتحقير : من ذلك قوله تعالى : أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشطان هم الخاسرون ﴿ المجادلة/١٩ ﴾ و (إن الشيطان ينزغ بينهم إن

---

١) البرهان للزركشى ٢/ ٤٨٦

الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ﴿ الإسراء/ ٥٣ ﴾ ٠

ومنه قول الشاعر :

فما للنوى لابارك الله فى النوى وعهد النوى عند الفراق ذميم

وسمع الأصمعى من ينشد

فما للنوى جد النوى قطع النوى كذاك النوى قطاعـة للقرائن

فقال : لو قيض لهذا البيت شاة لأتت عليه (١) يشير - رحمه الله -إلى ما يومىء به بناء لغة البيت ، من تقطيع النوى ، لغاية تجعل الشاة التى لاتعقل تأكل البيت الذى أبان عن قبح هذا النوى ، ولا تبقى فيه شيئا ٠

٣-الاستلذاذ بذكره ، كقوله تعالى : (من كان يريد العزة فلله العزه جميعا) ﴿ فاطر/ ١٠ ﴾ كان حق الكلام فهى لهما جميعا ، غير أنه -سبحانه - عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر ، إيماء إلى التلذذ بذكره ٠

ومنه قول الشاعر :

يامطربى بحديث من سكن الغضا هجت الهوى وقد حت فى حراق

كــرر حديثك يا مهيج لوعتى إن الحديث عـن الحبيب تلاق (٢)

والحراق : هو ما تقع فيه النار عند القدح ، كان حق الكلام إنه عن الحبيب تلاق. . غير أنه أراد أن يكشف عن تلذذه بذكر الحديث عن الحبيب ، فذكره مظهرا بدل أن يضمر وهو طابع المحبين ، وديدن العاشقين يدلك على ذلك قول قائلهم :

كرر على السمع منى أيها الحادى ذكر المنازل والأطلال والنادى

فهم يتلذذون بذكر كل ماله بالحبيب صلة ، ولولا دنى ملابسة وبشرق البيان بقدر ما يكتنز من الأحاسيس ،وما يحمل من طيات النفوس والمشاعر٠

---

١) البرهان ٢/ ٤٨٧

٢) السابق ٢/٤٨٧

ومنه أيضا قول أحدهم :

فليت ركاب القوم لم تقطع الغضا وليت الغضا ماشى الركاب لياليا(١)

فكان حق الكلام وليته غير أنه عدل عن ذلك استلذاذا بكل ماله بالحبيب علاقة ٠

٤- إزالة اللبس، وذلك حيث يكون الضمير يوهم أنه غير المراد، هذا ماذكره الزركشى واستشهد له بقوله تعالى : يظنون بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء ﴿ الفتح /٦ ﴾ فلو قال عليهم دائرته ، لا التبس بأن يكون الضمير عائدا إلى الله تعالى (٢) وأرى أن ذلك يفيد زيادة التوكيد ، تشنيعا عليهم ، وإمعانا فى ذمهم ، ومنه فى غير المسند إليه فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴿ يوسف /٧٦ ﴾ إنما حسن إظهار الوعاء مع أن الأصل استخرجها منه لتقدم ذكره ، لأنه لو قيل ذلك لأوهم عود الضمير على الأخ فيصير كأن الأخ مباشر لطلب خروج الوعاء ، وليس كذلك لما فى المباشرة من (٣) الأذى الذى تأباه النفوس ،فأعيد لفظ الظاهر لنفى هذا ، وما ذكره الزركشى آخرا هو النكته البلاغيه ، فيقال فى مثل هذا إن المقصود بهذه المخالفه دفع الأذى عن أخى سيدنا يوسف -عليه السلام- ولا سيما أنها وضعت فى وعائه ولم يضعها هو ، فالإظهار أوضح أنه استخرجها من الوعاء ، لامن الأخ ٠

ومنه قوله تعالى "يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴿ المزمل /١٤ ﴾ فلو قال وكانت كثيبا لأوهم عود الضمير إلى الأرض، هذا ما ذكره الزركشى ، لكن الذى أبصره ،أن اللبس هنا غير وارد ، لأن القاعدة هى أن يرجع الضمير لأقرب مذكور ،ويمكن أن تكون النكته هى زيادة التوكيد ، وبخاصة

---

١)بسط سامع المسامر فى أخبار مجنون بنى عامر ص ٧٦.

٢) البرهان ٢/٤٨٨، ٤٨٩ ٠

٣) السابق ٢/٤٨٩ ٠

التوكيد ، وبخاصة أن صيرورة الجبال إلى هذا الحال مما يستغرب عند البشر ، فبنى الأسلوب على نحو يزيل هذا الاستغراب .

٥- أن يكون المقصد تربية المهابة وإدخال الروعة في ضمير السامع ويكون ذلك بذكر الاسم المقتضي لذلك كما يقول الخليفة لمن يأمره بأمر أمير المؤمنين يأمرك بكذا مكان : أنا آمرك بكذا)(١).

ويمكن أن يستشهد لذلك بقوله تعالى (الحاقة ما الحاقة)(والقارعة ما القارعة)

٦- قصد تقويه داعية المأمور ، أو حمل المأمور على الامتثال كقوله تعالى :واتقوا الله ويعلمكم الله و الله بكل شيء عليم﴿ البقرة /٢٨٢ ﴾وقوله: فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين (٢) ﴿ آل عمران /١٥٩ ﴾وكقول الوالد لولده أبوك يأمرك بالصلاة وينهاك عن اللعب .

٧- قصد العموم : كقوله تعالى: وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي .. ﴿ يوسف/ ٥٣ ﴾ فإنه لو قيل : إنها لأمارة لا قتضى تخصيص ذلك ، فأتى بالظاهر ليدل على أن المراد التعميم ،ومن ذلك قوله تعالى إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لايغني من الحق شيئا ﴿ النجم/ ٢٨ ﴾ فلم يقل وإنه لايغني . .لأنه لم يرد ظنا مخصوصا في أتباع عبادة الأصنام، وإنما أراد الظن عموما ،ومنه قوله :"وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمه فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴿ الشورى/ ٤٨ ﴾فلم يقل إنه كفور ، إيماء إلى أن شأنه كفر أن النعم عموما (٣)

٨- الإشارة إلى عدم دخول الجملة الثانية في حكم الأولى كقوله تعالى: فإن يشأ

---

١) البرهان ٢/٤٩٠ .

٢) السابق ٢/٤٩١ .

٣)السابق ٢/٤٩٤ ، ٤٩٥ .

الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل (١) ﴿الشورى /٢٤﴾ فلم يقل : ويمح الباطل إيماء إلى استئناف الجملة الثانية ،وفيه أن محو الباطل ثابت و مؤكد ٠

٩- إظهار الخشوع والخضوع كقول إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه

إلهى عبدك العاصى أتاك مقرا بالذنوب وقد دعاكا

فإن تغفر فأنت لذاك أهل وإن تمنع فمن يرجى سواكا

فكان حق الكلام إلهى أتيتك ،بيد أنه عدل عن ذلك إلى التعبير باسم الظاهر ،كشفا عن خضوعه وتذلله ومثل ذلك أن يقول الفقير ويكون هو المتكلم : الفقير يطلب منك الصدقة ٠

وغير ذلك كثير ، وهو من البحوث القيمة التى لم تنل حظها من دارسى البلاغه ولم تتبعها أحد من أهل العلم فى الذكر الحكيم بغية الوقوف على أسرارها ، وتناغيها مع السياق وتلاؤمها مع المقام ، فذلك ينتهى بالباحث فيه إلى نكتات رائعة ٠

---

١) البرهان ٢/٤٩٨ ٠

الالتـــــفات

عنى البلاغيون قديما وحديثا بدرس الالتفات ، ومن المحدثين من خصه بالبحث (١) ومادة (لفت)في معاجم العربية تدور حول التحول والانصراف (٢)، ولعلماء البلاغة في تحديد مفهوم الالتفات مذهبان :

الأول : مذهب الجمهور

وحدوه بقولهم : هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها (٣) وهو يرد عند الجمهور على ست صور كما سيأتي بيانه- إن شاء الله · وعليه فلابد عندهم من تحقق شروط في الالتفات أولا أن يكون التعبير الثاني على خلاف ما يقتضيه ظاهر الكلام ويترقبه السامع ، وعليه فليس قولنا أنا زيد وأنت عمرو التفاتا *ثانيا* : أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائدا في نفس الأمر إلى المنتقل عنه أي الملتفت عنه *ثالثا* : أن يكون الالتفات في جملتين ،وهو شرط أكثري لاكلي ، لأن في الذكر الحكيم - كما ذهب بعض أهل العلم التفاتا في الجملة الشرطية ·

والشرط والجزاء جملة واحدة ، وغير ذلك مثل قوله تعالى (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله ﴿ الفتح /٨، ٩ ﴾ ففي الآية التفاتان، فقد ذكر الضمير (أرسلنا) ثم ذكر لفظ الجلالة (بالله) وذكر ضمير الخطاب (ك) في أرسلناك ، ثم ذكر لفظ(رسوله)(٤) ولا يغيب عنك أن الالتفات لون من ألوان خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ·

---

١) كتب الدكتور نزيه فراج " أسلوب الالتفات دراسة تاريخية فنية ط الأمانة سنة ١٩٨٣ وكتب" د· عبد الله عليوه " بلاغة الالتفات والتغليب ط دار الأرقم سنة ١٩٩٣.

٢) انظر اللسان والقاموس والمصباح والمقاييس مادة (ل ف ت) .

٣) الإيضاح ١٥٢/١.

٤) اسلوب الالتفات ١٣ ·

الثانى مذهب السكاكى :

وحده عنده :نقل كل واحد من التكلم والخطاب والغيبة إلى الآخر ، ولا يختص الالتفات عنده بالمسند إليه ، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها إلى الآخر (١) لذلك يدخل وضع المضمر موضع المظهر وعكسه فى الالتفات ، فتعريفه أكثر اتساعا من تعريف الجمهور ، لذا قال السبكى : الالتفات عند السكاكى هو إتيان الكلام على أسلوب مخالف لأسلوب سابق مطابقا أو لم يسبقه غيره ، والمعنى يقتضى خلافه (٢)

ومذهب السكاكى فى الالتفات مأخوذ من مذهب الزمخشرى الذى فرع مسائل هذا الفن ،وشقق أبوابه وطرقه (٣)على أى حال فهذا المذهب هو الأوسع فى تحديد معنى الالتفات فكل التفات عند الجمهور هو التفات عند السكاكى من غير عكس .

القيمة البلاغية للالتفات

يدور كلام البلاغيين على أن فى الالتفات تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظا لحسة ، وإمالة لإصغائه (٤) وذكر ابن الأثير أن فوائد الالتفات لا تحد بحد ولا تضبط بضابط بل إنه يجعل الالتفات من خصائص العربية وشجاعتها (٥) وفى ذلك مجازفة منه كما قال شيخنا الدكتور أبو موسى ، فليس بعيدا فى اللغات الأخرى أن يخاطب الإنسان نفسه (٦)

---

١) المفتاح ٩٥ .

٢) عروس الأفراح ٤٦٦/١ ، وبلاغة الالتفات والتغليب د. عبد الله عليوه ص ١٩

٣) انظر البلاغة القرآنيه فى تفسير الزمخشرى ٤٤٣

٤) الكشاف ٦٤/١، الإيضاح ١٥٧/١، الطراز ١٣٢/٢، ١٣٣

٥) المثل السائر ٢/ ١٧٠

٦) خصائص التراكيب ١٩٤، ١٩٥

الالتفات من اى علوم البلاغة

من البلاغيين من جعله فى علم البيان (١)، ومنهم من جعله فى علم المعانى (٢)، ومنهم جعله فى علم البديع(٣) والصواب ما ذهب إليه القزوينى من جعله فى علم المعانى، لأنه من صور إيراد الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وعلم المعانى هو موضع هذه الدراسة

صور الالتفات :

للالتفات على مذهب الجمهور ست صور كما ذكرنا نتناولها فيما يلى:

أولا : الالتفات من التكلم إلى الخطاب .

من ذلك قوله تعالى : "ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ﴿يس/ ٢٢﴾ كان حق الكلام ، وإليه أرجع غير أن هذا التحول استرعى انتباه المخاطب واستمال سمعه ، قال الزركشى"وفائدته أنه أخرج الكلام فى معرض مناصحته لنفسه وهو يريد نصح قومه ، تلطفا وإعلاما بأنه يريد ه لنفسه ، ثم التفت إليه لكونه فى مقام تخويفهم ، ودعوتهم إلى الله ، و أيضا فإن قومه لما أنكروا عليه عبادته معه أخرج الكلام معهم بحسب حالهم ، فاحتج عليهم بأنه يقبح منه أنه لا يعبد فاطره ومبدعه ، ثم حذرهم بقوله (وإليه ترجعون)(٤)
المهم أن فى الالتفات فى هذا الموضع مجابهة للمشركين الذين خاطبهم المؤمن

ثانيا : الالتفات من التكلم إلى الغيبة

وفيه من البلاغة أن المتكلم يريد الإبقاء على المخاطب ، ولا يريد قرعه

١) الكشاف ١/ ٦٢
٢)المفتاح ٩٥، الإيضاح ١٥١/١١
٣) التبيان للطيبى ٢٣١، ٢٣٢ .
٤) البرهان ٣١٥/٣ .

في الوجه يساهم الهجر،فالغيبة أروح له،وأبقى على ماء وجهة أن يفوت،كقوله تعالى (إنا أعطينـاك الكوثـر فصـل لربـك وانحـر)فكـان حـق الكـلام فصـل لنـا وانحر) ﴿الكوثر/ ١، ٢ ﴾ حيث لم يقل " لنا تحريضا على فعل الصلاة لحق الربوبية

ومنه قوله تعالى " قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴿الأعراف /١٥٨﴾ ولم يقل "بى" .

وله فائدتان : أحدهما دفع التهمة عن نفسه بالعصبية لها ،والثانى تنبيههم على استحقاقه الأتباع بما اتصف به من الصفات المذكورة من النبوة والأمية ، التى هـى أكـبر دليـل علـى صدقـه ، وأنـه لايستحق الأتبـاع لذاتـه بـل لهـذه الخصائص(١)، وشيء آخر هو أن هذا الالتفات من التكلم (إنى رسول)إلى الغيبـة (ورسوله) لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها فى التوراة فى شخص سيدنا رسول الله ﷺ كما قال ابن عاشور(٢)

<u>ثالثا : الالتفات من الخطاب إلى التكلم</u>

وذلك كقول الشاعر :

طحا بك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشـــيب

يكلفنى ليلى وقد شط وليهـــا وعادت عواد بيننا وخطوب (٣)

والشاهد فى(بك) عدل عنه إلى المتكلم فى (يكلفنى) ،وقد عدل إليه كشفا عما آلمه وأرقه من الوجد ، ويمكن أن يمثل بقوله تعالى:(قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون) ﴿يونس/ ٢١﴾ على أنه سبحانه نزل نفسه منزلة المخاطب .

---

١) البرهان ٣/٣١٧

٢)التحرير والتنوير ٩/١٤١

٣) طحابك : ذهب بك واتلفك ، شط : بعد ، وليها : قربها

رابعا: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة

من ذلك قوله تعالى : (هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة . .) ﴿يونس/ ٢٢﴾ فقد خاطبهم أولا (كنتم)ثم عدل عن الخطاب إلى الغيبة (بهم)" وفائدة العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم تعجبه من فعلهم وكفرهم ، إذ لو استمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة ، وقيل : لأن الخطاب أولا كان مع الناس مؤمنهم وكافرهم ، بدليل قوله : (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) ولو قال : (وجرين بكم) للزم الذم للجميع ، فالتفت عن الأول للاشاره إلى الاختصاص بهؤلاء الذين شأنهم ماذكره عنهم فى آخر الآية ، فعدل عن الخطاب العام إلى الذم الخاص ببغضهم وهم الموصوفون بما أخبر به عنهم، وقيل : لأنهم وقت الركوب حضروا ، لأنهم خافوا الهلاك وتقلب الرياح ، فناداهم نداء الحاضرين ، ثم إن الرياح لما جرت بما تشتهى النفوس وأمنت الهلاك لم يبق حضورهم كما كان على ماهي عادة الإنسان ، أنه إذا أمن غاب ، فلما غابوا عند جريه بريح طيبه ذكرهم الله بصيغة الغيبة فقال : وجرين بهم (١)

ومنه قوله تعالى : (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه لله فأولئك هم المضعفون) ﴿الروم/ ٣٩﴾ومنه قوله تعالى (وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ﴿الحجرات /٧﴾ .

خامسا : الالتفات من الغيبة إلى التكلم

وهو كثير شائع من ذلك قوله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) ﴿الإسراء/ ١﴾ فقد جاء بضمير الغيبة فى (الذى أسرى)ثم انتقل إلى المتكلم فى (لنريه) ،وقد امتاز الالتفات هنا بلطائف منها (أنه لما استحضرت

---

١) البرهان ٣/٣١٨

الذات العلية بجملة التسبيح وجملة الموصولية صار مقام الغيبة مقام مشاهدة ، فناسب أن يغير الإضمار إلى ضمائر المشاهدة وهو مقام التكلم ، ومنها الإيماء إلى أن النبي ﷺ عند حلوله بالمسجد الأقصى قد انتقل من مقام الاستدلال على عالم الغيب إلى مقام مصيره في عالم المشاهدة (١) والآية فيها التفاتان فقد التفت من الغيبة إلى التكلم ، ثم عن التكلم إلى الغيبة .

ومن ذلك قوله تعالى أيضا : وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم " ﴿فصلت/ ١٢﴾ فقد جاء بضمير الغيبة (وأوحى) ثم عدل عنه إلى التكلم ، فالالتفات إلى نون العظمة ، لإبراز مزيد العناية بالتزيين المذكور (٢) مع مافيه من إثارة انتباه السامع وإيقاظ حسه .

ومنه قوله تعالى " والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد . . .) ﴿فاطر/ ٧﴾ فقد عدل عن الغيبة في (الذى أرسل) إلى التكلم بنون العظمتغي (فسقناه) لإظهار اختصاصه سبحانه وتعالى بسوق السحاب التى منها الأرزاق ، إيماء إلى أن ذلك بيد الله وحده ، وهذا معنى قول العلماء ، إنه عدل هنا عن لفظ الغيبة إلى التكلم ، لأنه أدخل في الاختصاص ، وأدل عليه وأفخم(٣) .

سادسا : الالتفات من الغيبة إلى الخطاب

وهو كثير شائع في الذكر الحكيم ، من ذلك قوله تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا ﴿مريم /٨٨، ٨٩﴾ فقد عدل عن الغيبة في (وقالوا) إلى الخطاب في (جئتم)، وفي ذلك زيادة توبيخ لهم ، ومواجهتهم بما

١) التحرير والتنوير ٢١/١٤
٢) الفتوحات الالهية ٣٤/٤ .
٣) البرهان ٣٢٠/٤ .

أنكر عليهم كمخاطبة المجرم بإجرامه ،ومنه أيضا قوله تعالى (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم . .) ﴿آل عمران/ ١٠٦﴾ وفيه إعلاء لنغمة التوبيخ كما ترى .

وتراه دالا على مزيد الاختصاص كقوله تعالى : (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) ﴿الفرقان ٤٥﴾ ومنه قوله تعالى أيضا (وسقاهم ربهم شرابا طهورا إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) ﴿الإنسان ٢١، ٢٢﴾

ومما جاء لقصدا لتعظيم قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين) فكل المذكورات بضمير الغيبة تعد تأهبا للقرب ، والاقبال على الله ثم يذكر لفظ العبادة ، مع الخطاب تعظيما لحال المخاطبة والمواجهة لتميزه بالصفات المذكورة .

أسلوب الحكيم

وهو مما جاء على خلاف المقتضى كما ذكره السكاكى ، وهو من الأساليب التى تجد النفس تفتقر إليها حين المآزق ، غير أنها تحتاج فى استخدامها إلى ذكاء نادر ، وفيه إرشاد لطيف لكل من المخاطب والسائل إلى ماهو الأليق بحالهما وما ينبغى أن يسأل عنه .

وقد عرفه البلاغيون بقولهم : هو تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له .

ومن هذا التعريف يتبين أن لهذا الأسلوب ضربين .

الأول : هو حمل كلام المخاطب على خلاف مراده تنبيها له على أنه الأولى بالقصد ومما يروى شاهدا فى هذا الضرب قصة ابن القبعثرى مع الحجاج حين قال له الحجاج : لأحملنك على الأدهم ، قال : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ، فالحجاج يريد أن يقول : لأعذبنك بوضعك فى القيد الأدهم ، فتلقى ابن القبعثرى كلام الحجاج تلقيا آخر غير الذى يقصده الحجاج ، تنبيها إلى ماهو أليق به، فكأنه يقول له : اللائق بالأمير أن يحمل على الأدهم الذى هو الفرس ذو اللون الأدهم والأشهب .وكذا قوله له لما قال له فى الثانية : إنه حديد ، قال ابن القبعثرى لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا ، ومن ذلك قول الشاعر

أتت تشتكي عندى مزاولة القرى وقد رأت الضيفان ينحون منزلى
فقلت كأنى ماسمعت كلامها هم الضيف جدى فى قراهم وعجلى

والشاهد فى أنه أجابها بغير ما تتطلب من الشكوى ، ومن الممكن أن يصلح هذان البيتان للضرب الثانى .

وذكروا فى ذلك قول الشاعر :

وإخوان حسبتـــهم دروعا   فكانوهـــــا ولكن للأعادى
وخلتــهم سهاما صائبات   فكانوهـــــا ولكن فى فؤادى
وقالوا قد صفت منا قلوب   لقد صدقوا ولكن من ودادى(١)

ومن ذلك أنه قد سأل رجل بلالا مولى أبى بكر -رضى الله عنه - وقد أقبل من جهة الحلبة فقال له " من سبق" قال : سبق المقربون : قال : إنما أسألك عن الخيل قال : وأنا أجيبك عن الخير " فترك بلال جواب لفظه إلى خير هو أنفع له(٢)

الضرب الثانى : هو جواب السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزله غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله والمهم له

وعلى ذلك جاء قوله تعالى : "ويسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج . . "﴿ البقرة/ ١٨٩ ﴾ فقد كانوا يتعجبون من الهلال يبدو ضئيلا ثم يكمل، ثم يقل ، ثم ينمحق ، فكان سؤالهم عن كيفية هذا التدرج فجاء الجواب على غير ما يترقبون ، تنبيها لهم إلى الأولى بالسؤال،وهو معرفة فوائد هذه الأهلة ٠

ويمكن أن يكون من ذلك على رأى بعض الباحثين ما روى من أن العباس - رضى الله عنه -سئل : آأنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال فى أدب جم : رسول الله أكبر منى ، ولكنى ولدت قبله ، فحمل السؤال عن كبر السن محمل السؤال عن كبر المنزلة ٠

ومن ذلك ماجرى بين المهلب بن أبى صفرة والحجاج حين سأل والحجاج : أنا أطول أم أنت ؟ فقال : أنت أطول ، وأنا أبسط قامة ٠ فقد سأله عن الطول الذى هو ضد القصر، فأجابه عن الطول بمعنى التفضيل ، تنبيها إلى ماهـــو الأولى

---

١) بحوث المطابقة المقتضى الحال ، ٢٠٤ د٠ على البدرى
٢) البيان والتبيين ٢/ ١٤٩.

والأجدر بالسؤال عنه (١)

وقد ذكر الجاحظ في باب اللغز بالجواب أن خالدا -رضى الله عنه -قال لأهل الحيرة : أخرجو إلى رجلا من عقلائكم فأخرجوا السيد عبد المسيح بن عمرو بن قيس ، وهو يومئذ ابن خمسين وثلاثمائة سنة . فقال خالد : من أين أقصى أثرك ؟ قال : من صلب أبي ، قال : فمن أين خرجت ؟ قال :من بطن أمي ، قال : فعلام أنت ؟ قال: على الأرض ، قال ففيم أنت ؟قال : في ثيابي ، قال : ماسنك؟ قال :عظم، قال : ألا تعقل لاعقلت ؟قال : أي والله وأقيد ، قال : ابن كم أنت ؟قال : ابن رجل واحد ، قال :كم أتى عليك من الدهر ؟ قال لو أتى على شيء لقتلني ، قال : ماتزيدني مسألتك إلا غما ، قال : ماأجبتك إلا عن مسألتك . قال : أعرب أنتم أم نبط ؟قال :عرب استنبطنا ونبط استعربنا . قال فحرب أنتم أم سلم ؟قال :سلم ، قال : فما بال هذه الحصون قال : بنيناها للسفيه حتى يجيء الحليم فينهاه ، . . "(٢) وهو قريب من الأسلوب الحكيم كما ترى ، لأنه ليس وراء هذا إلا الإلغاز .

ومنه أن الحجاج قال لرجل من الخوارج . أجمعت القرآن ؟ قال : أمتفرقا كان فأجمعه؟ قال أتقر أظاهرا ؟قال : بل أقرؤه وأنا أنظر إليه ، قال أتحفظه ؟ قال: أخشيت فراره فأحفظه ، قال : ماتقول في أمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال: لعنه الله ولعنك ، قال : إنك مقتول فكيف تلقى الله ؟ قال : ألقاه بعملي وتلقاه بدمي (٣) .

---

١) بحوث المطابقة المقتضى الحال د. على البدري ص ٢٠٥ .

٢) البيان والتبيين ٧٤/٢ أخبار الظرف والمتماجنين ١١١،١١٢ .

٣) السابق الصفحة نفسها .

الفصل الثالث
أحوال المسند

حذفة :

سبق الحديث عن أسرار الحذف فى الحديث عن حذف المسند إليه ، وأنه من شجاعة العربية ، وأنه ينشط الحس ، ويوقظ النفس إلى آخر ما ذكرنا ٠

والمسند هو العمده الثانى فى الجملة العربية ، فحين لاتراه فى الجملة تعلم أن فى إبعاده سرا بلاغيا ، ولطيفة أسلوبية ، وهذه الأسرار ، وتلك اللطائف لاتحد بحد ولا يحاط بها ، لأنها تشبه أحوال النفس ، فكما أن أحوال النفس لاتتناهى فكذلك أحوال الكلام وما نذكره من الأسرار ، إنما هى نماذج تهدى لسواها ويبقى من بعد ذلك لكل حذف مقامه ٠

وللحذف مقاصد عامة ٠ منها

١. الإيجاز :وهى تصفية العبارة ،وصيانة الكلام عن الترهل كما ذكر أهل العلم(١)

٢. إثارة الانتباه : وذلك أن الحذف من رموز اللغة العربية ، التى توقظ الحس ، لأنك – لامحالة – سائل عن المحذوف ، مجتهد فى البحث عنه ، ثم تبحث عن سر حذفه فى الكلام ٠

الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر : وذلك من دأب العربية فى الاعتداد بعقل المخاطب ، والثقة بأنه سيعرف مادل عليه الكلام ، وأومأت به نصبته ، وبلغ من اعتدادها بحق المخاطب ، أن جعلت ذكر الشىء مع مايدل عليه من العبث بعقل المخاطب ، اللهم إلا أن يكون المتكلم بليغا ، فيقصد من وراء ذلك أسرارا وإيحاءات نفسية ٠ هذا هو مقصد البلاغيين من ذكر هذا الغرض، وليس مقصدهم أن ذكر المسند من العبث ، إذ لا يستقيم أن يكون

---

١)خصائص التراكيب ١١١ .

ذكره عبثا ، ومكانته من بناء الجملة العربية على ما ذكرت لك ، فهو ركنها الثانى فى الكلام ، فلا يكون ذكره عبثا : لذا قالوا "بناء على الظاهر" فمن دأب العربية أنها تكتفى عن ذكر الشىء بالإشارة والتلميح والدليل ٠

شروط الحذف :

للحذف ضوابطه وشروطه التى لابد من توافرها ، وإلا كانت اللغة فوضى تحذف منها ما تشاء وتترك ما تشاء ، ومن أجل صرامة نظام هذه اللغة الشريفة والتى يعد الحذف فيها زيادة فى المعنى اشترطوا شروطا للحذف ٠

أولا : أن يكون فى المذكور دلالة على المحذوف ، وإلا كانت اللغة ضربا من التعمية ٠والإلغاز، وخرجت عن حد البيان ، وبذا تخرج عن مهمتها السامية ، ويفقد التواصل الذى هو أصل من أصول اللغات كلها ٠ وهذه الدلالة إما أن تكون مقالية وإما أن تكون سياقية أو حالية ٠ وهذا معنى قول أهل العلم : لابد أن يكون فيما أبقى دليل على ما ألقى (١) ، وهى مايسميه أهل العلم قرينة الحذف٠

وفى الذكر الحكيم من الممكن أن ترى قرينة المحذوف ذكره فى موضع آخر من الذكر الحكيم ، وكن على ذكر من أن القرآن العظيم سياق واحد ، من ذلك أنك ترى قوله تعالى : "هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك ﴿الأنعام /١٥٨﴾ يدل على المحذوف فيه ويعينه قوله تعالى :فى موطن آخر (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك .. ﴿النحل /٣٣٠﴾

ومن الممكن أن تكون القرينة وقوع الكلام جوابا عن سؤال محقق ، كقوله تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)٠﴿لقمان /٢٥﴾ ، أو جوابا عن سؤال مقدر كقول الشاعر :

---

١) البرهان للزركشى ١١١/٣

لبيك يزيد ضارع لخصومة وختبط مما تطيح الطوائح (١)

فالتقدير من يبكيه فيكون الجواب : ضارع لخصومة ، والتقدير : يبكيه ضارع لخصومة وهكذا .

ثانيا : أن يكون وراء الحذف فائدة ، فلا ينبغى أن يكون الحذف بلا هدف يقصد المتكلم إليه ، وإلا كان لونا من العبث

مقاصد الحذف :

أولا : ضيق المقام : وليس معنى ضيق المقام أن الشعر ومقاييسه الصارمة من الوزن والقافية ، هو الذى حمل الشاعر على الحذف ، أو أن المرض هو الذى قعد بالشاعر عن الذكر وألجأه إلى الحذف ، لأنهم ذكروا أن من أسباب ضيق المقام الشعر ، أو الحزن ، أو المرض ، أو الضجر . وإنما معنى ضيق المقام أن الشاعر أو الكاتب استخدم الحذف فى الكلام رمزا من رموز دلالة حزنه ، وإبراز ضجره كما مضى بيانه فى أحوال المسند إليه ، وليس شاعرا ذلك الذى يقيده الشعر بصرامة شروطه على أن يصطفى أسلوبا معينا ، وبناء محددا ، لايلائم ما يريده من كشف أحوال نفسه ، وقد ذكروا شاهدا لذلك قول ضابىء بن الحارث البرجمى :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإنى وقيار بها لغريب

وما عاجلات الطير تدنى من الفتى نجاحا ولا عن ريثهن يخيب

ورب أمور لاتضيرك ضيرة وللقلب من مخشاتهن وجيب

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب

وفى الشك تفريط وفى الحزم قوة ويخطى الحدث الفتى ويصيب

وأنت حين تعرف خبر هذه الأبيات والمقام الذى وردت فيه ، تعرف مدى دقة الشاعر وإصابته فى حذف المسند واصطناع الحذف طريقة بليغة فى التعبير

١) البيت للحارث بعد ضرار النهشلى أو الحارث بن نهيك فى رثاء يزيد بن نهشل بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى ١٧٧/١.

عن مراده، فقد قال هذه الأبيات "حين استعار كلبا من بنى نهشل ، وأطال مكثه عنده ، وطلبوه فامتنع ، فلما عرضوا له وأخذوه منه ، هجاهم ورمى أمهم به ، فحبسة عثمان بن عفان -رضى الله عنه- وقد كان فى ضابىء طيش حتى إنه هم بقتل عثمان - رضى الله عنه - يدل على ذلك قوله :

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى　　　تركت على عثمان يبكى حلائله

هذا من خبر هذه الأبيات (١)، والشاهد فى قوله : " فإنى وقيار بها لغريب وقيار هذا اسم لفرسه ، وتقدير الكلام : فإنى لغريب بها وقيار غريب غير أن ذكر (لغريب) ثانيا ، أغنى عن ذكره أولا ، وفى ذلك تعبير عن ضيق نفسه بالغربة ، لذا تراه باعد ذكرها إلى آخر البيت ، وفى تقديم (قيار) إلماع إلى أنه لا صديق له فى هذه الغربة وتلك الوحشة ، سوى هذا الفرس ، فلو أن له صديقا من العقلاء فى غربته ، لكان مؤنسا له صارفا لهمه ، إلا أنه لم يجد فى غربته ما يؤنسه سوى هذا الفرس ،وشىء آخر فى تقديم قيار هو أن الإحساس بألم الغربة وسجن الوحشة يشاركه فيه الفرس ، ومعنى هذا أن ألمه كان ألما قاسيا، وأن مانزل به من الضجر لا يطيقه عاقل ، كيف وقد أحس ضجر الغربة وألمها غير العقلاء، فقد صار من لذع ألمها أن جعلت ما لا يحس عظيم الإحساس؟! وذكروا فى ذلك أيضا قول عمرو بن امرىء القيس الخزرجى

يامال والسيد المعمم قد　　　يبطره بعض الرأى والسرف
نحن بما عندنا وأنت بما　　　عندك راض والرأى مختلف

وقد قاله مخاطبا به مالك بن العجلان حين رد قضاءه فى واقعة للاوس والخزرج ، ·والشاهد فى قوله نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض حيث حذف المسند (رضوان) لدلالة الثانى عليه ، وشيخنا الدكتور أبو موسى لايرى فضيلة

---

١) خصائص التراكيب ٢١٣ وما بعد بتصرف لشيخنا الدكتور أبو موسى

للحذف فى هذا البيت سوى الاختصار (١) والذى يظهر هو أن فى ذلك إبرازا لضيق نفس الشاعر ،ولاسيما أن رأيه فى الحكومة مردود غير مقبول ، فالشعر صادر عن نفس أصابها الضجر ، وانكسار الخاطر فلم ترد أن تسند الرضا إلى نفسها ولو ظاهرا · لذا لم يقل نحن بما عندنا رضوان

ومن ذلك أيضا قول المتنبى يمدح شجاع بن محمد الطائى المنبجى من قصيدة مطلعها

اليـــوم عـــهدكم فـأين الموعد ؟ هيهات ليس ليوم عـهدكم غد

يقول فيها :

لِنَ التـــى سفكــت دمى بجفونها لم تــدر أن دمـى الذى تتقلد

قالت :وقد رأت اصفرارى من به؟ وتنـــهدت فـأجـبتها المتنهد

فمضت وقد صـبغ الحياء بياضها لونى كما صبغ اللجين العسجد (٢)

والشاهد فى قوله فأجبتها المتنهد فالمتنهد مبتدأ خبره محذوف تقديره: الفاعل بى هذا المتنهد، أو قاتلى المتنهد ، والتنهد شدة التنفس والزفرات والمعنى : لما رأت تغير وجهى واصفراره ، قالت من به ؟ أى من قتله ؟ أو من فعل به هذا الذى أراه ؟ ثم تنهدت فعلا صدرها ، لشدة تنفسها ، وزفرت استعظاما لما رأت ، فأجبتها عن سؤالها : المتنهد المطالب بقتلى ، أو الفاعل بى هذا ·

فقد حذف المتنبى المسند ، إلماعا إلى شدة ضيقه ، وعظيم ما ألم به من جراء حبها وعظيم دلها ، وشىء آخر وراء هذا الحذف ، هو أنه تحاشى أن ينسب إلى صاحبته إضرارها به ، ولاسيما أنها لما رأت حاله ، تنهدت فدل تنهدها على عظيم تجاوبها لحاله ، فكأنه يكفى فى مثل ذلك التلميح دون التصريح·

---

١) خصائص التراكيب ٢١٥ وما بعد بتصرف لشيخنا الدكتور أبو موسى

٢) الديوان ٣٢٨/١

ولعل منه قوله تعالى : " وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا " ﴿الفرقان ٢١/ ٢٢﴾

والشاهد فى قوله تعالى : "حجرا محجورا "وقد حذف المسند والمسند إليه من الكلام ، والتقدير حجرنا حجرا محجورا كما قال العكبرى (١) وحجرا محجورا كلمة تقولها العرب عند رؤية ما يخاف من إصابته ، فهى عندهم بمنزلة الاستعاذة فهى تقال فى مقام الخوف ، ومعرض الضيق ، التى تجعل القائل لا يذكر إلا المهم فى الكلام فهى مترجمة عن حال الخوف الشديد ·

ومن مثل ذلك قوله تعالى فى سورة سبأ " ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ﴿سبأ/ ٥١﴾ والتقدير فلا فوت لهم ، غير أنه حذف المسند إشعارا بعظمة الفزع ، وإلماعا إلى ضيق فرصه الموت وامتناع ذلك عليهم ، وفى ذلك دلاله على تعظيم سلطان الله- عز وعلا - وقد ذكر الزركشى الآية فى حذف (٢) الخبر وربما يكون السر وراء حذف المسند إرادة إثبات امتناع الفوت أصلا ، دون نظر إلى الممنوعين ·

ويمكن أن يكون منه قوله تعالى : "يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴿البقره/٢٥٤﴾ والشاهد هو حذف المسند فى قوله(ولا خلة - ولا شفاعة) والتقدير لا خلة فيه ، ولا شفاعة فيه ، والقرينة هى ذكر المسند قبلهما لا بيع فيه " والآية مبنية على حذف المسند كما ترى لضيق المقام ، وذلك أنه من أيام يوم القيامة ، فنفوس الناس أضيق ما تكون وقتها ، وشىء آخر هو امتناع الخلان والشفاعة تماما فى بعض مواطن يوم القيامة ، مما ينبىء عن ضيق ذلك الوقت،

---

١) إملاء ما من به الرحمن بهامش الفتوحات الإلهية ٤/ ٩٦.

٢) البرهان ٣/ ١٣٩.

وفى ذلك من الإيجاز ما فيه ٠

ومنه قوله تعالى :"قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴿إبراهيم /٣١﴾

أى افعلوا من إقامة الصلاة وإنفاق الأموال وخير الأعمال ، فيما يتسع له المقام فى الدنيا ، من قبل أن يأتى هذا اليوم الذى يضيق المقام فيه عن هذا ، بل يمتنع أصلا ، والمراد من نفى الخلة نفى أثرها ، لا نفيها أصلا ، لأن الله أثبتها للمتقين "الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين" ﴿الزخرف /٦٧﴾ ٠

وحذف المسند هنا- مع ما ألمع به من ضيق المقام -أبرز توفر النفى على الخلة والشفاعة فى الآيتين الكريمتين ٠

ويحذف المسند مع المسند إليه لضيق المقام ، وللمسارعة إلى المطلوب حين يكون المطلوب متعلقا بغيرهما من ذلك ما روى عن عائشة - رضى الله عنها ٠ "أن رسول الله ﷺ بعث أباجهم بن حذيفة مصدقا (١) فلاجّه (٢) رجل فى صدقته فضربه أبو جهم فشجه فأتوا النبى ﷺ؟ فقالوا : القود (٣) يا رسول الله فقال النبى ﷺ؟" لكم كذا وكذا فلم يرضوا فقال : لكم كذا وكذا فرضوا . . .(٤) إلا ترى أن اهتمامهم بالقصاص لصاحبهم حملهم على بناء الكلام على القصاص ، حتى لم يقدموا نداء رسول الله ﷺ؟ على مطلوبهم ، فتركوا أن يقولوا يا رسول الله القود ، لأن فطرتهم على البلاغة تأبى هذا ، فلم يكن ملائما لحال أنفسهم وما أحاطها من الضيق ، وما ألهبها من الحمية أن يقولوا نطلب القود . . فقد ضاق المقام عن ذكر المسند بسبب الضجر ٠

---

١) مصدقا جامعا للصدقة

٢)فلاجه أى تمادى معه فى الخصومة

٣) القود : القصاص

٤)رواه ابن ماجه فى كتاب الديات باب الجارح يفتدى بالقود

ومثـــل ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أنس -رضى الله عنه- أن أخت الربيع أم حارثة جرحت إنسانا فاختصموا إلى النبى ﷺ؟ فقال رسول الله ﷺ؟(القصاص · القصاص فقالت أم الربيع : يا رسول الله أيقتص من فلانة والله لا يقتص منها (١) فقال النبى ﷺ؟ سبحان الله يا أم الربيع القصاص وكتاب الله . . .(٢) والشاهد فى قوله القصاص القصاص ، والتقدير أدوا القصاص وسلموه إلى مستحقه ، غير أن سيدنا رسول الله ﷺ؟ كانت تضيق نفسه مما يحدث من المسلم تجاه المسلم من المظالم فلم يذكر المسند ولا المسند إليه لضيق المقام عنهما ومسارعة إلى ذكر المطلوب ، وتوجيه العناية والاهتمام إليه ·

ثانيا : حذف المسند لقصد تعظيمه

ذلك حين يكون المسند إليه حقيرا ، فيحذف المسند تحاشيا من وضع العظيم بازاء الحقير، ومن شواهد ذلك قوله تعالى : أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون)﴿ الزمر/٢٤ ﴾ وتقدير الكلام كمن ينعم فى الجنة ، غير أنه حذف ثقة فى دلالة مساق الكلام عليه والسياق فى تباين حالى الضال والمهتدى ، فأشعر الحذف بانتفاء تساويهما فى الكلام ، فكان المنعم أكرم من أن يذكر فى جانب الشقى وشىء آخر، هو أن الحذف تذهب النفس فى تقديره كل مذهب ، وغالبا ما يكون مستنبطا من السياق ، فكأن الحذف من معاقد الكلام أيضا ، وكن على ذكر من أن المعادل وان لم يذكر فى مواضع، فقد ذكر فى مواضع أخرى من الذكر الحكيم ، من ذلك قوله تعالى :

١) رواه مسلم فى كتاب القسامه باب إثبات القصاص فى الأسنان وما فى معناها

٢) والله لا يقتص منها : ليس معناه رد حكم النبى ﷺ؟ بل المراد الرغبة إلى مستحقى القصاص أن يعفو وإلى النبى ﷺ؟ فى الشفاعه إليهم فى العفو·

أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمنا يوم القيامة " ﴿فصلت /٤٠﴾ وقوله أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ﴿الملك/٢٢﴾ .

والملحوظ أن ذلك راجع لأمر سياق الكلام ، فقد ورد الحذف على هذا النحو أربع مرات فى صورة الزمر الآيات﴿٩، ١٩، ٢٢، ٢٤ ﴾ والمسند محذوف فى كل هذه المواطن قصدا إلى تعظيمه فى موضعين ﴿ ١٩، ٢٤﴾ وقصد ا إلى تحقيره فى موضعين ﴿٩، ٢٢﴾ فكأن السورة بنيت على الحذف والإيجاز ،وفى الذكر إشارة إلى أن يتجه الهم كله إلى المذكور فيجىء الحذف مطلبا للسياق ومقتضى للمقام ، ففى الموطن الأول كانت العناية أعلى بالمخلصين من عباد الله ، لذا ذكرا المعظم تلاؤما مع سياق الحديث عنهم فأوهم الحذف أنه لا قيمة للمحذوف فى المقارنة أصلا ، وقل مثل ذلك فى الموضع الثانى "أفمن شرح الله صدره للإسلام . . . "ثم انتقل السياق إلى الحديث عن المعذبين والعصاة فأولاهم كبير عناية بالذكر ، لأن شغل السياق بهم أكثر.

ويذكر المعادل إذا كان المقام للتقرير ،ولا سيما أن الخطاب للملحدين إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى . . "﴿فصلت /٤٠) فكما ترى الخطاب للملحدين وإذا ما كان المخاطب ملحدا فالحاجة إلى تقريره بطريق الذكر هو الأعلى ، وقل مثل ذلك فى آيه سورة الملك "أفمن يمشى مكبا على وجهه . ." ﴿الملك/٢٢﴾ فقد جاءت الآية فى سياق تكاثر فيه الاستفهام المجازى ، وتكاثر فيه أسلوب الاستدلال فالألصق بمثل هذا السياق التقرير بطريق الذكر.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴿ فاطر/ ٨ ﴾ ، فالمسند محذوف وتقديره : كمن لم يزين له٠ ذكر البقاعى -رحمه الله -أنه حذف المسند هنا وطواه " لأن المقام يهدى إليه؛ وتعجيلا بكشف ما أ شكل على السامع من السبب الحامل على رؤية القبيح (١) بقصد قوله تعالى(فإن الله يضل من يشاء ..) فحذف المسند هنا مشعر بتعظيمه، لأن نفس البليغ تذهب فى تقديره كل مذهب ٠

ومن ذلك قوله تعالى (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ﴿ الزمر/ ١٩ ﴾ فالخبر هنا محذوف ، وذلك على أن (من) موصولة فى محل رفع بالابتداء وقد قدره أبو البقاء كمن نجا، وقدره الزمخشرى فأنت مخلصه حذف بدلاله أفأنت تنفذ عليه ، وقدره غيره تتأسف عليه (٢) وقد ذكر البقاعى نكته الحذف فقال حذف خبره ليكون أهول فتذهب النفس فيه كل مذهب (٣) .

ثالثا: حذف المسند لقصد تحقيره :

وذلك حين يكون المسند إليه عظيما والمسند حقيرا ، فيحذف المسند تبعيدا له عن الذكر بازاء المعظم ، وشىء آخر هو توفر العناية على المذكور وتوجيه اهتمام النفس إليه من ذلك قوله تعالى : أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمه ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴿ الزمر/ ٩ ﴾ فقد حذف المسند وهو المعادل للمسند إليه ، وقد أشعر الحذف بحقارة المعادل ، كأنه أهون من أن يذكر ٠

---

١) نظم الدرر ٦/ ٢٠٦

٢) الفتوحات الإلهية ٥٩٥/٣

٣) نظم الدرر ٤٣٤/٦ ٠

ومن ذلك قوله تعالى : (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ﴿ الزمر/ ٢٢ ﴾ .

فقد حذف المسند وتقديره كمن أقسى قلبه وجعل صدره ضيقا حرجا ؟ فقد أشعر الحذف بتعظيم المذكور ، وتحقير المحذوف ، إذ نحاه القرآن من أن يذكر بإزاء المعظم .

ومن شواهده أيضا قوله تعالى : " أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول . . . " ﴿ الرعد/ ٣٣ ﴾ ، فقد حذف المسند من الكلام ،وتقديره :كمن ليس كذلك ، وقد أشعر الحذف " بإهمال المسند وازدرائه ، وضن به على أن يذكر في مقابله الحق جل جلاله (١)، وهذا ما نبه إليه أبو السعود رحمه الله - إذ قال : " والخبر محذوف أي كمن ليس كذلك إنكارا لذلك ،وإدخال الفاء لتوجيه الإنكار إلى توهم المماثلة . . كأنه قيل : الآمر كذلك فمن هذا شأنه كمن ليس في عداد الأشياء حتى تشركوه به "(٢) ثم أعلى من ازدراء من هو من دون الله فحذفه من الكلام

رابعا : حذف المسند لقصد إظهار التسوية في المسند المذكور

من ذلك قوله تعالى "يحلفون بالله لكم ليرضوكم و الله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين " ﴿ التوبة/ ٦٢ ﴾ فقد حذف المسند وتقدير الكلام والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، غير أنه حذف المسند ، وقدم رسوله على المسند المذكور إلماعا إلى تسوية الإرضاءين ،ومما يؤكد ذلك توحيده الضمير (أن يرضوه) وكان الأصل يرضوهما لذا ذكر الأئمه أن توحيد الضمير لتلازم

---

١) خصائص التراكيب ٢١٦.

٢) إرشاد العقل السليم ٢٤/٥ .

الرضاءين (١)،وتدل على ذلك آيات أخرى من مثل قوله تعالى ، " من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا " (النساء ٨٠)

ومن أجل ذلك قال أبو السعود أيضا : وإفراد الضمير في يرضوه إما للإيذان بأن رضاه ﷺ مندرج تحت رضاه سبحانه ،وإرضاؤه ﷺ إرضاء له تعالى (٢)" فالمشهود أن في حذف المسند هنا إيماء إلى تساويهما في الإرضاء.

وقد ذكر ابن عاشور أن نكته حذف الخبر هنا الإشارة إلى التفرقة بين الإرضاء بين (٣) لكن المشهور هو الذي ذكر أولا ، ولأن في توحيد المسند إيهاما، بتمام التسوية لا بالتفاوت ، فالذكر هو الذي يؤدي إلى التفاوت ، فإذا لم تكن حاجة لإظهار التفاوت ، كان الاستغناء بالمذكور عن غيره هو الأولى .

خامسا : حذف المسند ثقة باقتدار المخاطب وقوة لمحه

من ذلك ما ذكر الجاحظ في "باب من الكلام المحذوف"أن المهاجرين قالوا يارسول الله "إن الأنصار فضلونا بأنهم آووا ونصروا وفعلوا وفعلوا.قال النبي ﷺ "أتعرفون ذاك لهم " قالوا :نعم قال " فإن ذلك)يريد أن ذاك شكر ومكافأة ، لكنه لم يذكر المسند اعتمادا على ثقافة المخاطبين ، وفي ذلك احترام لعقولهم .

ومن ذلك أيضا أن رجلا من قيس كلم عمر بن عبد العزيز –رحمه الله تعالى – في حاجة ، وجعل يمت بقرابة ، فقال : وإن ذاك ، ثم ذكر حاجته فقال: لعل ذاك لم يزده على أن قال : فإن ذاك ولعل ذاك ، فحذف المسند في العبارتين، فبنى الكلام على إسقاط المسند اعتمادا على نباهة المخاطب ، ومنه

---

١) تفسير الجلالين ٢/٢٩٥ .

٢) إرشاد العقل السليم ٤/٧٧.

٣) التحرير والتنوير ١٠/٢٤٥.

أيضا قول عبد الله بن قيس :

بكـــرت علـــى عواذلى   يلحيننـــى وألـو مهنه
وقلن شيب قـــد عـــلا   ك وقد كبرت فقلت إنه

فحذف المسند من الكلام والتقدير فقلت إنه ما قلتن ، غير أنه لم يذكر المسند ، لأنه مما تبغضه النفس ولا تحبه ، واهتمام العرب بلقانه المخاطب أمر ثابت عندهم ، وقد كان الأمراء يخلعون بعض العمال عند عدم اقتدارهم على الفهم، من ذلك ما روى عن أبى الزناد أنه قال : كنت كاتبا لعمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - وكان يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب فى المظالم فيراجعه ، فكتب إليه : ليخيل إلى أنى لو كتبت إليك أن تعطى رجلا شاة ، لكتبت إلى أضأن أم ماعز ؟ وإن كتبت إليك بأحدهما كتبت إلى : أذكر أم أنثى ؟، فإن كتبت إليك بأحدهما كتبت إلى صغير أم كبير؟ فإذا أتاك كتابى فى مظلمة فلا تراجعنى والسلام " فأنت تراه قد قرعه على عدم حسن فهمه وتصرفه ، وحال سيدنا عمر -رضى الله عنه - مع هذا أهون من غيره ، فقد كتب أبو جعفر إلى سلم يأمره بهدم دور من خرج مع إبراهيم وعقر نخلهم ، قال : فكتب إليه سلم : " بأى ذلك نبدأ : بالدور أم بالنخل؟ فكتب إليه أبو جعفر : أما بعد فإنى لو كتبت إليك بإفساد ثمرهم لكتبت إلى تستأذننى بأيه نبدأ بالبرنى أم بالشهريز ، وعزله وولى محمد بن سليمان (١).

وذلك مما يكشف عن اعتدادهم بنباهة المخاطب ، وحسن تعقله .

وحتى تذهب نفس البليغ فى تقدير المحذوف كل مذهب ، ويمكن أن يكون منه قوله تعالى: " إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد " ﴿فصلت /٤١﴾ فخبر إن محـــذوف من الكلام قد دل عليه سياق الكلام والتقدير : إن الذين كفـــروا

١) البيان والتبين للجاحظ ٢/١٤٦ وما بعدها

بالذكر لما جاءهم خسروا الدنيا والآخرة ، أو سفهوا أنفسهم أو نحو هذا كما ذكر ابن عاشور (١) غير أن الحذف وقع تهويلا لشأن ماهم عليه من الخسارة ، واعتدادا بأن المخاطب سيقدر الخبر ، وغير هذا مما تستطيع نفس البليغ استنباطه.

سادسا : حذف المسند اتباعا للاستعمال الوارد

ذكر البلاغيون هذا الغرض ، ومرادهم من ذلك أنه قد جرت بعض الأساليب العربية على إسقاط المسند ، وذلك مذكور فى كتب النحاة.

ومن ذلك حذف خبر لولا، وإذا الفجائية ، والأمثال ، لأنه لا تغيير فيها ، ومنه قول الأعشى يمدح سلامة ذا فائش بن يزيد الحميرى.

إن محلا وإن مرتحلا ... وإن فى السفر إذ مضوا مهلا (٢)

والتقدير : إن لنا محلا وإن لنا مرتحلا ، بيد أنه حذف المسند اتباعا للاستعمال الوارد كذا ذكره البلاغيون ، ولا يمكن أن يكون اتباع الاستعمال الوارد داعيا بلاغيا ، بل هو داع تصحيحى ، والراجح ما ذهب إليه شيخنا الدكتور أبو موسى ، من أن الحذف فى مثل هذه الأساليب دال على قوة امتلاء نفس المتكلم وإحساسه بالمعنى ، وقد ذكر أن سيبويه فى هذا البحث يرشد إلى أن الحذف باب من أبواب الحسن (٣)

والذى يدلك على صدق ما ذهب إليه الشيخ أنك ترى ذلك كثيرا فى

---

١) التحرير والتنوير ٢٤/٣٠٨ .

٢) ديوان الأعشى ١٥٤، محلا ومرتحلا مصدران ميميان بمعنى الحلول والارتحال ، السفر (بتسكين الفاء الموحدة الفوقية) اسم جمع بمعنى المسافرين والمراد بهم هنا الموتى والمهل بمعنى الإمهال ، والمعنى أن فى غيبة الموتى طولا وبعدا ، لأنهم مضوا مضيا لا رجوع معه إلى الدنيا.

٣) انظر خصائص التراكيب ٢٢٠.

شعر الحكمة ، ومنها البيت الذى ذكره البلاغيون آنفا ، وهو للأعشى فهو من شعر الحكمة الذى قدم به للمديح ، والبيت بنى على الحكمة ، من أجل ذلك لم يذكر المسند (لنا) حتى يدل على شيوع مقالته ، وحتى يشمل قوله نفسه وغيره ومن غبر ومن حضر فالأليق بمعرضه ومراده تنحية المسند الذى يقتضى ذكره بناء الحكمة على المتحدث عنهم ، فيكون ذلك مخالفا لما أراد الشاعر أن يوحى به .

وقد ذكر الشيخ عبد المتعال الصعيدى أن الحذف فى البيت وقع بسبب ضيق المقام (١)، وذلك أن ذكر الموت ضيق نفس الشاعر ، فحذف المسند من أجل ذلك ، وهذا لا يتنافى مع ما ذكرناه فى البيت ، وكل شاهد ذكر البلاغيون أن حذف المسند جاء فيه اتباعا للاستعمال الوارد ، لو تأملته لوجدت له نكتة بلاغيه، بالإضافة إلى النكته التصحيحية .

وقد ذكروا من ذلك قوله تعالى : " قل لو أنتم تملكون خزائن رحمه ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا " ﴿ الإسراء/ ١٠٠ ﴾ والتقدير لو تملكون تملكون ، وقد أضمر الأولى وأظهر الثانية ، ودليل هذا التقدير وقوع الاسم بعد لو ولو مختصة بالدخول على الأفعال ، والداعى البلاغى لحذف المسند هنا هو إظهار اختصاص الناس بالشح المتبالغ فيه ، وهذا ما نص عليه أبو السعود -رحمه الله- فقال : " وفائدة ذلك المبالغة والدلالة على الاختصاص " وهو تلخيص لكلام الزمخشرى - رحمه الله (٢).

ومما هو ظاهر فى إظهار اختصاص الله بالدفع قوله تعالى : الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ﴿الحج/٤٠﴾ فقد حذف المسند هنا وجوبا كما يقتضيه علم الإعراب ، أماما

١) بغية الإيضاح ١/١٧٣.
٢) إشاد العقل السليم ٥/١٩٧، الكشاف ٢/٤٦٨.

يقتضيه علم البلاغة فهو أن التعبير بهذا الأسلوب يفيد اختصاص ربنا - جل وعز- بالدفع ، ومثله ما جاء فى قوله تعالى : فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين " ﴿البقره / ٢٥١﴾ ٠

وفى قولنا : خرجت فإذا زيد تلمح أن عناية المتكلم قد توفرت على إثبات المسند إليه إذ هو المهم فى الكلام ، والملائم للمقام ٠

وقد ذكر البلاغيون فى ذلك قول المتلمس :

ولو غير إخوانى أرادوا نقيصتى جعلت لهم فوق العرانين ميسما (١)

والتقدير :ولو أراد غير إخوانى ، قال البلاغيون فى تعليل إفادة الاختصاص : " وذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر برز الكلام فى صورة المبتدأ والخبر (٢) "أى فكأنه من باب تقديم المسند إليه على خبره الفعلى ظاهرا ، من هنا أفاد هذا الأسلوب الاختصاص

ومن ذلك قوله تعالى : وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون " ﴿التوبة/ ٦﴾ والتقدير : وإن استجارك أحد من المشركين استجارك فأجره ، فحذف الفعل الأول ، وفسره بالثانى ، والذى يدل على هذا التقدير اختصاص إن بالدخول على الأفعال، " والغرض من الحذف هنا المسارعة إلى المطلوب بلا تراخ ، وذلك لأن حذف الفعل الأول و الإحالة إلى مفسره هو الذى حقق هذا الغرض المفهوم من نظم الآية، وللفاء فى هذا التعبير موقع جليل ، فقد وصلت بين الفعلين ،وهما طلب المشرك

---

١)العرانين : الأنف جمع انف ، والميسم العلامة

٢)الإضاح١/١٧٥ .

أن يجار ، وقبول الرسول ﷺ لهذا الجوار ، وجعلهما كالفعل الواحد (١)٠

ومما ورد على هذه الطريقة من الحذف حذف خبر لاحين يكون المراد توجيه العناية بالنفى نحو المسند إليه ، وهو كثير من ذلك قول حسان بن ثابت - رضى الله عنه - فى القصيدة التى مطلعها ٠

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع (٢)

يقول فيها : لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع

فقد حذف الشاعر المسند فى ثلاثة مواضع فى بيت واحد ، فبنى البيت كله على إسقاط المسند من الكلام ، إمعانا فى نفى المسند إليه عنهم ، ومن ذلك أيضا ما جاء فى حديث أم زرع " قالت الرابعة : زوجى كليل تهامة ، لاحر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة (٣)فقد وفرت عنايتها على نفى الأذى والمكروه منه ٠

سابعا : حذف المسند لتكثير الفائدة

وذلك حين يحتمل الأسلوب حذف المسند أو المسند إليه ، ومعلوم أن التقديرات إذا تكاثرت تعددت فوائدها ، من ذلك قوله تعالى : " قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل " ﴿يوسف /١٨، ٣٨﴾ فمن الممكن أن يكون التقدير : فصبر جميل أجمل أو أمثل ، وعلى هذا فالمحذوف هو المسند ، ومن الممكن أن يكون التقدير فأمري صبر جميل ، وعلى هذا يكون المحذوف هو المسند إليه ، ورجح العلماء الأخير ، لأن الحذف فيه أكثر وأغلب ،وشيء آخر هو أن

---

١) من مقال بعنوان من أسرار الحذف فى بعض آيات القرآن الكريم د٠ فتحى إسماعيل بمجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة ،العدد الثامن ١٤٣.

٢) ديوان حسان ص ٢٣٨، ٢٣٩.

٣) رواه البخارى فى كتاب النكاح باب حسن المعاشرة مع الأهل ، ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة ، والمعنى ليس فيه أذى بل هو راحة ولذاذه عيش كليل تهامة لذيذ معتدل ، ليس فيه حر ولا برد مفرط ، ولا أخاف له غائلة لكرم أخلاقه ، ولا يسأ منى ويمل صحبتى

الحذف من الأطراف أولى من الحذف من الأوساط ، ولأن المسند أيضا هو محط الفائدة ، ثم إن الآية مسوقه فى مديح سيدنا يعقوب -عليه السلام - فالمعنى على نسبة الصبر إليه هو الألصق بمساق المدح (١) ، بل إن المغربى جوز أن يكون المسند والمسند إليه محذوفين والتقدير : فلى صبر وهو جميل ، وفى الحذف احتمال يناسب المقام (٢) والمشهور عند العلماء هو أن الحذف هنا لتكثير الفائدة، وجوز العصام أن يكون لضيق المقام لكمال توجع المتكلم وتحزنه (٣) وهذا لا يتعاند مع الفائدة الأولى، وإنما يتعانق .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون " ﴿النور/ ٥٣﴾ فيحتمل التقدير حذف المسند ، أو المسند إليه ، والتقدير على الأول : طاعة معروفة أولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة وهو الألصق بالسياق ، وعلى الثانى طاعتكم طاعة معروفة ، والجملة تعليل للنهى عن القسم ، فعلى حذف المسند إليه، يكون المراد توجيههم للأولى ، وعلى حذف المسند يكون المراد تبكيتهم بكشف أمرهم ، ولا يمنع السياق أن يراد الأمران ، بل قد ورد الأسلوب على هذا النحو حتى يفيد المرادين بعبارة واحدة ، فالله أعلم .

ومنه أيضا قوله تعالى "سورة أنزلناها وفرضناها . ." ﴿النور/ ١﴾ فيحتمل أن يكون التقدير : هذه سورة . . ويكون المحذوف هو المسند إليه ، أو يكون فيما أوحينا إليك سورة . . بحذف المسند ، فعلى الأول يكون المراد من الحذف تعظيم المسند إليه ، وعلى الثانى يكون المراد من الحذف تأكيد شأنها فى الموحى به إلى النبى ﷺ وأنه أشهر من أن يذكر .

---

١) عروس الأفراح ١٢/٢ بتصرف.
٢) مواهب الفتاح ١١/٢، ١٢ بتصرف
٣) الأطول ١٦٤/١ بتصرف .

ومما يحتاج إلى كثرة تأمل وطول تعمل فى تقدير المحذوف قوله تعالى : يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا" ﴿النساء /١٧١﴾

والشاهد فى قوله : "ولا تقولوا ثلاثة" فيحتمل أن يكون المحذوف المسند.

والتقدير : لنا آلهة ثلاثة ،أو : فى الوجود ثلاثة آلهة ، فقد حذف الخبر ثم حذف التمييز المضاف إليه ، فصارت الآية ولا تقولو ثلاثة .

وعلى حذف المسند إليه يكون التقدير : ولا تقولو الله والمسيح وأمه ثلاثة، وعلى حذف المسند إليه يكون فى الكلام إشارة إلى إسقاط الاعتبار لكل معتقدات النصارى على اختلافها ،وشىء آخر هو أن حذف المسند إليه ضرورة اقتضاها المقام ،وألح عليها مساق الكلام ، إذ هذا الحذف يتيح تقدير المسند إليه بما يلائم اعتقاد كل فرقة من النصارى ، فقد اضطربوا فى حقيقة تثليث الإله ، كما جاء فى الذكر الحكيم ففى آيه " لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة. . . " ﴿المائدة ﴾ وفى أخرى : "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. . . ﴿المائدة ﴾وفى أخرى "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمي إلهين من دون الله . . . "﴿المائدة ﴾ وقد بسط العلامه ابن عاشور هذا الموضوع ، وختمه بقوله : " وقد بسطت هذا ليعلم حسن الإيجاز فى قوله تعالى : " ولا تقولوا ثلاثة "وإتيانه على هذه المذاهب كلها، فلله هذا الإعجاز العلمى "(١) هذا وقد نبه الزركشى على كثير من أسرار

---

١) التحرير والتنوير ٥٧/٦ .

الحذف فراجعه عنده (١)

وقد ورد الأسلوب على هذا النحو لتوفره على نفى التثليث بكل أنواعه ،وإثبات التوحيد، وكل تقدير للمحذوف يعين على هذا الغرض، وكن على ذكر من أن أمر تقدير المحذوف ليس هينا ، فقد يتعارض تقديرك المحذوف مع المذكور فى الكلام كما نبه إلى ذلك الإمام عبد القاهر(٢) فلا يمكن أن تقول : التقدير : ولا تقولو آلهتنا ثلاثة ، لأنك حينئذ نفيت أن تكون عدة الآلهة ثلاثة ،ولم تنف أن يكون الآلهة أربعة أو أكثر أو اثنين ، فالتقدير حينئذ يخالف المراد ، ويعارض المقصد ٠

هذا وقد نبهنا فى الحديث عن حذف المسند لضيق المقام إلى أنه قد يحذف المسند والمسند إليه من الكلام ، لتعلق الغرض بالمفعول ، وهو كثير فى القرآن الكريم وكلام العرب نكتفى بما ذكرناه هناك ٠

وقد نبه الزركشى -رحمه الله- إلى لون خاص من ألوان حذف المسند وذلك عند كلامه على أقسام الحذف فى النوع الرابع منه ،وهو أن يستدل بالفعل لشيئين وهو فى الحقيقة لأحدهما ، فيضمر للآخر فعل يناسبه، كقوله تعالى : "والذين تبوءوا الدار والإيمان "﴿الحشر/ ٩﴾ أي واعتقدوا الإيمان ،وهذا التقدير لتصحيح العطف هو قول الفارس والفراء وجماعة من البصريين والكوفيين لتعذر العطف ، أما أبو عبيدة و الأصمعى واليزيدى وغيرهم ، فقد قدروه آثروا الدار والإيمان . .وقد توسط أبو حيان ، فيحسن الإضمار عنده ، إذا كان العامل الأول تصح نسبته إلى الذى يليه حقيقة ، وإن كان لا يصح يحسن التضمين(٣)٠

---

١) البرهان ١٣٧/٣ وما بعدها ٠

٢) دلائل الإعجاز ٣٨٣ والإيضاح ١٧٧/١

٣) البرهان ١٢٤/٣ بتصرف

ورجح ابن عاشور أن تكون الواو للمعية ، فيكون الإيمان مفعول معه (١) غير أن جمهور المفسرين استحسنوا تقدير فعل يدل عليه الكلام ، وهذا الرأى هو المقدم عندهم وإن كانوا قد جوزوا حذف مضاف ، والتقدير ومواضع الإيمان ، بل قال بعضهم إن الإيمان هنا المدينة وسميت بالإيمان لأنه ظهر فيها وقوى (٢) ، ولا ريب أنك تبصر أنه بعيد ٠

المهم أنك ترى الحذف هنا يترتب عليه عدة تقديرات ، وتكاثر التقديرات يدل على وفرة الكلام وجودته وغزارة معناه فأنت تبصر أن تضمين الفعل معنى لزموا أوحى بعظيم تمكنهم فى الإيمان وشديد ملابستهم له ، وأنت تبصر أن حذف المسند أوحى لك بأن اعتقادهم الإيمان بمثابة تبوء الدار ، فالأمر كله دائر على كشف رسوخ الأيمان وتمكنه فى أفئدة هؤلاء الأخيار الأبرار

ومن ذلك قوله تعالى " وإذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا " ﴿الفرقان/ ١٢) أي وشموا لها زفيرا ، ومنه قوله تعالى " لهدمت صوامع وبيع وصلوات . . "﴿الحج/ ٤٠﴾ والتقدير : ولتركت صلوات ، وفيه إشارة إلى إن ترك الصلاة هدم عظيم إذ هى من أعظم البناء فى الأديان كلها ،وغير ذلك كثير وهو يحتاج إلى دراسة فى القرآن الكريم وكلام العرب ٠

ذكر المسند وأسراره :

المسند هو الركن الثانى فى الجملة ، وهو محط الفائدة كما ذكر العلماء ، ويدور البحث فى أسرار الذكر على ما يجوز فيه الحذف والذكر ، إذ ترجيح أحد الطريقين يقتضى سرا بلاغيا ، ولطيفة أسلوبية ،وقد ذكر البلاغيون أن المسند يذكر لأغراض منها ٠

---

١) التحرير والتنوير ٩٠/٢٧.

٢) انظر الكشاف ٨٣/٤،مفاتيح الغيب ٤٧٨/١٥، القرطبى ٦٤٩٩/٩ وما بعدها ، فتح القدير ٢٠٠/٥، نظم الدرر ٥٢٥/٧، الفتوحات الإلهية ٣١٧/٤، التحرير والتنوير ٩٠/٢٧.

أولا : كون ذكر المسند هو الأصل ولا مقتضى للعدول عنه ، كقولك فى ابتداء كلام : عميد الكلية آت فلا مقتضى للحذف هنا ٠

ثانيا : زيادة الإيضاح والتقرير : من ذلك قوله تعالى : " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم " ﴿الزخرف/ ٩﴾ ووضع هذه الآية تحت هذا الغرض أولى من وضعها تحت غرض ذكر المسند لضعف التعويل على القرينة كما قال العلامة سعد الدين التفتازانى (١)، إذ قد جاء نظير هذه الآية فى سورتى العنكبوت ولقمان والمسند فيهما محذوف ، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون " ﴿العنكبوت /٦١﴾ وقوله "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون " ﴿لقمان/ ٢٥﴾ رأى صاحب مواهب الفتاح أن ذكر المسند هنا لزيادة التقرير (٢)٠

وقد أجيب عما ذهب إليه بجوابين ، وذلك لأن العلامة السعد ليس مما يفوته هذا

أجيب بأن المسئولين لما كانوا أغبياء لاعتقاد كفرهم ، فتارة يتوهمون أن السائل ممن تجوز عليه الغفلة عن السؤال ، أو تجوز على من معه ممن يقصد إسماعه، أو ينزلونه منزلة من تجوز عليه الغفلة ، فيأتون بالجواب تاما لقصد التقرير، الذى أصله ضعف التعويل بزعمهم الفاسد، وتارة لا يتوهمون ذلك فيحذفونه للتعويل على القرينة ، فذكر الجواب عنهم مختلف باعتبار ما عسى أن يخطر لهم عن المجاورة والسؤال . .وقال عبد الحكيم إن وجود القرينة مصحح للحذف لا موجب فإن عول على دلالته حذف ، وان لم يعول عليها احتياطا بناء على أن المخاطب لعله يغفل عنها ذكر، وإن كان

١)المطول ١٤٥ .

٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ١٩/٢ .

المخاطب والكلام فى الحالين أي حاله التعويل وحالة عدمه واحدا (١)

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : "وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم " ﴿يس/٧٨، ٧٩﴾ فالسائل مجادل معادل، فكان الجواب ملائما لحاله مسوقا بنحو يفيد زيادة التقرير ، لذا ذكر الزركشى أن الأسلوب جاء كذلك قل يحييها " للتنصيص على الإحياء الذى ذكروه (٢)

وترى مثل هذا كثيرا فى الذكر الحكيم ، من ذلك قوله تعالى : "يسألونك ماذا أحل قل أحل لكم الطيبات . . "﴿المائدة/٤﴾ والشاهد فى قوله : قل أحل " فقد ذكر المسند – وكان من الممكن أن يحذف زيادة لتقرير الإحلال ٠

ومنه قوله تعالى :" قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع "﴿ يونس/٣٤، ٣٥﴾ فقد ذكر المسند ، وكان يمكن حذفه فى موضعين قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده . . قل الله يهدى للحق زيادة فى تقرير قدرته سبحانه ،وهدايته ، وفى ذكر إعادة الخلق فى الموضعين مع أنهم لا يعترفون بها ضرب من الإدماج فى الحجاج (٣)

وإن شئت أن تبصره واضحا ففى حكاية ربنا عن مشركى قوم سيدنا إبراهيم –عليه السلام –فى قوله تعالى" واتل عليهم نبأ إبراهيم ٠ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين﴿ الشعراء /٦٩، ٧٠، ٧١﴾ لما سألهم –عليه السلام –منكرا عليهم ، أرادوا الإجابة بالطريق التى تؤكد تمسكهم بمعبوداتهم ، فقالوا نعبد وكان حذفه ممكنا بدلالة ما قبله عليه ، غير أن

---

١) حاشية الدسوقى ١٩/٢

٢) البرهان ٤٩/٤ .

٣) التحرير والتنوير ١٦١/١١ .

الحذف يفوت غرضهم ، ويضيع مقصودهم .

ومما هو ظاهر فى ذلك قوله تعالى : وإذا أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قال من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير" ﴿التحريم/ ٣﴾ كان يجوز أن يكون :قال العليم الخبير ، غير أنه ذكر المسند زيادة فى التقرير ، وهو الملائم لإزالة استغرابها من حصول النبأ الذى أسرته .

وترى الذكر شائعا فى الرثاء وفى الغزل ، لأنه يلائم أحوال النفس الحزينة التى تتكىء على الذكر وسيلة لتفريج ما فى أنفسهم من الحزن والسآمة من ذلك قول الخنساء ترثى أخاها صخرا :

ياعين مالك لا تبكين تسكابا إذ راب دهر ، وكان الدهر ريابا
فابكى أخاك لأيتام وأرملة وابكى أخاك إذا جاورت أجنابا(١)
وابكي أخاك لخيل كالقطاعصبا فقـــدن لما ثوى سيبا وأنــهابا

لا ريب أن تكرار ذكر المسند بهذا اللفظ يكشف لك عن شديد حزنها ، وكبير أسفها على أخيها حتى كادت مدامع الكلام تسيل ، وترى ذكر البكاء شائعا فى شعرها تأمل :

أعـــيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصـــخر الندى ؟
ألا تبكيان الجرىء الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا ؟(٢)

ومن ذلك أيضا قولها

عينى جـودا بدمع منكما جودا جودا ولا تعدا فى اليوم موعـودا (٣)

تلح على البكاء بتكرار المسند الذى يكشف لك عن حالتها وحزنها ومن

١) الديوان ٩.
٢) السابق ٤١ .
٣) السابق ٥٥ .

ذلك أيضا قولها:

ياعين جودى بدمع منك مدرارا　　جهد العويل كماء الجدول الجارى
وابكى أخاك ولا تنسى شمائله　　وابكى أخاك شجاعا غير خوار
وابكـــى أخـــاك لأيتام وأرملة　　وابكى أخاك لحق الضيف والجار (١)

ومن ذلك قول حسان يرثى سليط بن قيس البخارى حين قتل يوم الجسر ، وكان أبو عبيد بن مسعود الثقفى غزا فى زمن عمر إلى الأكاسرة فلقى مهران بيوم الجسر فى قس الناطف

ومـالى لا أبكى على خير فتية　　بـاروسما (٢) أضحت دماؤهم تجرى
فإنـى لباك ما حييت ولو بكى　　ولهفى على ليث العرين أبى جبر (٣)

كذلك يجد العاشقون فى ذكر المسند منفسا لمكروبهم من ذلك قول عمر بن أبى ربيعة

نعق الغراب ببين ذات الدملج　　ليت الغراب ببينها لم يزعج
نعق الغراب ودق عظم جناحه　　وذرت به الأرياح بحر السمهج(٤)

ثالثا: الاحتياط لضعف التعويل على القرينة ، وذلك حين لاتكون هناك ثقة فى المخاطب أن ينسب كل شىء إلى موضعه ، فمثلا إذا سألك تلميذ فى المرحلة الابتدائية فقال : من أمير الشعراء ومن شاعر العربية ،ومن رب السيف والقلم ؟ فتجيب : شوقى أمير الشعراء والمتنبى شاعر العربية ،ومحمود سامى البارودى رب السيف والقلم ٠ وذلك لعدم ثقتك بأن المخاطب سيميز بين هذه الأمور ٠

---

١) الديوان ١٠٧ ٠

٢) باروسما :اسم مكان ٠

٣) ديوان حسان ص ١١٥.

٤) الديوان ٤٢، الدملج : سوار يحيط بالعضد السمهج : السهل ، يقال : ماء سمهج وارض سمهج

رابعا: التعريض بغباوة السامع ، والشاهد العلم على ذلك قوله تعالى :

" قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا .. ﴿الأنبياء/ ٦٢، ٦٣﴾ فقد عدل ، عن الحذف إلى الذكر " بل فعله " للتعريض بغباوتهم وضعف عقولهم ٠

خامسا : الاستلذاذ : وذلك حين يتعلق بالمسند استلذاذ يستدعى تكرره على اللسان كقولك مجيبا من سألك من الذى نجح بممتاز هذا العام ؟ فتجيب محمد هو الذى نجح بممتاز استلذاذا بذكر هذا الخبر ، وكقولك مجيبا من سألك من إلهك فتقول إلهى الله ٠ وهكذا ٠

مجيء المسند فعلا أو أسما :

من الثابت عند العلماء أن الفعل يدل على التجدد والحدوث ، والاسم يدل على الثبوت والاستمرار فالمتكلم إن أراد أن يثبت تجدد الشيء جاء المسند فعلا ، وإن أراد أن يبرز ثبوته ودوامه جاء به اسما ، وهذا راجع لطبيعة كل منهما ، فالفعل لابد أن يكون مقيدا بزمان ، و ارتباطه بزمان معين يضفى عليه لونا من التجدد ، فهو مركب من حدث وزمان، أما الاسم فليس كذلك فهو مجرد عن الزمان ، ففيه توفر على ثبات المعنى دون قيد بزمن ، ففرق كبير بين قولنا :محمد مجتهد ، وقولنا : محمد يجتهد ، فالأول لا محالة تفيد أن الاجتهاد أمر ثابت فيه ، أما الثانى : فيدل على أنه يجدد اجتهادا بعض اجتهاد ٠

مجيء المسند فعلا :

يجيء المسند فعلا لأغراض منها ١- إفادة تقيد الحدث الدال عليه الفعل بأحد الأزمنه الثلاثة ، فإذا قلت محمد خرج، فقد دل كلامك على حدوث ذلك

منه فى الماضى وإذا قلت ، محمد يخرج الآن ، دل كلامك على حدوث ذلك منه فى المضارع ، وإذا قلت محمد سيخرج دل كلامك على أن ذلك سيقع منه .

هذه هى الدلالات الطبيعية لهذه الصيغ ، غير أنك تجد فى بعض الأحيان تعبيرا عن الماضى بالحاضر ، والعكس ، وذلك لسر يعمد إليه البليغ من ذلك قوله تعالى: أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون " ﴿النحل/ ١﴾ فقد عبر عن المستقبل بالماضى تحققا للوقوع وفى ذلك إدخال للروع فى قلوب العصاه حتى يسارعوا فى ترك ماهم عليه .

ألا تراه قد أخرج الشىء لم يقع مخرج الواقع الكائن ، وترى فى العكس فى قولنا : يقول امرؤ القيس . .فأنت بذلك تبعث الحياة فيما اندثر وتستحضره أمامك ، وذلك هو خروج الكلام على خلاف الظاهر ، ودواعى البلاغة فيه أعلى من دواعيها فى ورود الكلام على طبيعته .

وشىء آخر أننا نلمح فى الفعل إيجازا واضحا إذ يدل على حدث وزمان فى آن واحد ، فلكل من الفعل والاسم باب فى الكلام لا يصلح فيه سواه.

ومن شواهد ذلك فى الذكر الحكيم " إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور" ﴿الحج/ ٣٨﴾ فقد جاء المسند فعلا ، ليدل على أن الله - عز وعلا - يجدد دفاعا عن كل مؤمن كلما تجدد له عداء من الكافرين ، وفى ذلك إدخال للطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، هذا موضع المسند فعلا ، ترى له مقابلا فى وقوعه اسما "ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين " ﴿الأنفال/ ١٨﴾ فقد جاء بالمسند اسما للدلاله على أن إزهاقه -تعالى - كيد الكافرين أمر ثابت أبدا، وقاعدة لا تتخلف ، ولا يصلح هنا أن يعبر بالفعل .

ومنه قوله تعالى " ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم . . ﴿البقرة/ ٨٥﴾ وفى التعبير بالفعل هنا إظهار لبشاعة صنيع اليهود بميثاق الله وتجديدهم لنقضه ، وهو كثير خذ من ذلك : "إن الله يرزق من يشاء

بغير حساب " ﴿آل عمران/ ٣٧﴾ أى يجدد الرزق ، ومن ذلك فى الشعر قول طريف بن تميم :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوسم (١)

والشاهد فى قوله : يتوسم وقد جاء فعلا لإظهار تجدد مراجعته وتكرار نظره وتأمله ، والشاعر يصف شجاعته وإقدامه ، فبينه وبين القبائل قاطبة دم دائم ، لكثره قتلاه فيهم ، فمن أجل ذلك ترسل كل قبيلة عريفها حتى تثأر القبائل منه ومنه أيضا قول عمر بن أبى ربيعة :

فهل تجرينى أم بشر بموقفى على النخل يوم البين والعين تسكب (٢)

أراد أن يكشف عن شديد حزنه وكبير أسفه بتجدد دموعه وتكرار حدوث انهما لها (تسكب) ومنه قول بشار·

بـجارة البيت هم النفس محتضر إذا خلوت وماء العين ينسكب (٣)

وقوله :

ياسلم عـرضى حمـى سأمنعه والعرض يحمى ويوهب الذهب

لا تذكرى ما مضى وشأنك بى اليو م فـإن الزمـان يتقلب (٤)

أراد أن يدل على تجدد حماية العرض ، وتجدد تقلب الزمان فذكر المسند فعلا وهو كثير جدا فى الكتاب العزيز وكلام العرب ·

مجيء المسند اسما :

يؤتى بالمسند اسما إذا ما أراد البليغ أن يدل على ثبوت المعنى " ودوامه

١) العريف : القيم بأمر القوم ، يتوسم) يتفرس الوجوه ويتأملها

٢) الديوان ص ١٨ .

٣) ديوان بشار ١/ ٢٣٠.

٤) السابق ١/ ٢٤٠.

وتبصر ذلك فى قوله تعالى " وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد "﴿الكهف /١٨﴾ وأراد الذكر الحكيم أن يدل على ثبوت كلبهم على هذه الهيئة ، فذكر المسند اسما ، وترى ذلك فى قوله تعالى : "وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون " ﴿البقرة /٧٢﴾ والشاهد فى قوله " مخرج " وقع المسند اسما ،وقد جاء كذلك لمواجهة اجتهاد القتله فى إخفاء أمرهم ، فكشف الله – تعالى – عن ثبوت فضح أسرارهم وكشف حقيقة أمرهم ، وترى ذلك فى قوله تعالى : "كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب " ﴿آل عمران /١١﴾ والشاهد فى قوله : شديد العقاب " دلاله على ثبوت شدة عقابه سبحانه لكل مكذب جبار

ومنه قوله : "ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴿آل عمران/ ٥٤﴾ كشفا عن ثبوت ودوام إزهاقه كيد الكافرين ، وثبوت ودوام نصره سبحانه للمؤمنين ، وهو كثير جدا فى الذكر الحكيم ، ومن ذلك فى الشعر العربى قول النضر بن جؤية ٠

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

فقد أراد مدح قومه بوفرة الكرم والسخاء فقال :وهو منطلق ،كشفا عن ثبوت ودوام انطلاق الدراهم فى الخيرات، وأن ذلك أمر دائم لا ينقطع ، فالتعبير بالمسند اسما هو الألصق بمقام المدح ، ومن ذلك قول حاتم :

مهلا وإن أقلى اللوم والعذلا ولا تقولى لشىء فات مافعلا

ولا تقولى لمال كنت مهلكه مهلا وإن كنت أعطى الحق والخبلا (١)

والشاهد فى قوله " كنت مهلكه " أراد أن يدل على ثبوت إهلاك ماله فى الجود ، وأنه لا يبيح لأحد بالغا ما بلغ من المكانة عنده أن يمنعه عن هذا حتى وإن كان يعطى الشيطان ، فذكر المسند اسما ليدل على دوام ذلك وثبوته

(١) ديوان حاتم ص ٣٩ .

ومنه قوله أيضا

وإنا نهين المال فى غـير ظنة ... ومـا يشتكينا فـى السنين ضريرها

إذا ما بخيل الناس هرت كلابه ... وشق على الضيف الضعيف عقورها

فإنى جبان الكلب بيتى موطأ ... أجود إذا ما النفس شح ضميرها (١)

والشاهد فى قوله : فإنى جبان مع ما فيه من الكناية ، فهو اسم أيضا دال على ثبوت ودوام هذا المعنى الذى يلزم منه دوامه على الكرم والجود ٠

ومن المفيد هنا أن نذكر أن المسند إذا جاء جملة فعلية فإنه يفيد تقوى الحكم أو القصر كما مضى بيانه فى باب تقديم المسند إليه على خبره الفعلى ويمكن مراجعة الشواهد هناك وخذ من ذلك قول المتنبى وهو من شعر الحكمة

والمرء يأمل ، والحياة شهية ... والشيب أوقر والشبيبة أنزق (٢)

تعريف المسند

ذكر البلاغيون أن البليغ يلجأ إلى تعريف المسند إذا كان يريد إثبات أمر معلوم إلى آخر معلوم فتتم الفائدة وتكمل بتعريف المحكوم عليه والمحكوم به ، وهو مقصد عام يكمن وراء كل تعريف ، وعند الخطيب فى تعريف المسند " وأما تعريفه فلإفادة السامع إما حكما على أمر معلوم له بطريق من طرق التعريف بأمر آخر معلوم له كذلك ، وإما لازم حكم بين أمرين كذلك(٣)والفرق بين الفائدتين راجع للمخاطب و السامع فإن كان جاهلا

---

١) ديوان حاتم ٣٠، ٣١.

٢) الديوان ٢/٣٣٦ والمعنى :أن الإنسان يكره الشيب ويحب الشباب ، والشيب خير له ، لأنه يفيده الحلم والوقار ، وهو يحب الشباب وهوشر له ، لأنه يحمله على الطيش والخفه ، فالشيب أوقر من غيره والشبيبه أنزق من غيرها ٠

٣) الإيضاح ١/ ٢٠٣.

بالحكم ، أفدته الحكم، وإن كان عالما به ، فقد أفدته أنك تعلم ذلك الحكم .
وبعد هذا المقصد العام تكون هناك مقاصد يعمد إليها البليغ من وراء التعريف منها :
أولا : إرادة العهد ، وذلك إذا كان المسند معهود لدى المخاطب كقولنا : محمد الناجح بممتاز فى العام الماضى ، فإن الالف واللام هنا لإرادة العهد .
ثانيا: إفادة القصر الا دعائى على سبيل المبالغة ، وترى هذا الغرض ساريا فى مقامات الفخر والمدح والرثاء وما يقاربها غالبا وهو أكثر أغراض تعريف المسند شيوعا خذ من ذلك قول المتنبى .

ودع كل صوت دون صوتى إننى ... أنا الصائح المحكى والآخر الصدى(١)

فهو يريد المبالغة فى شاعريته ، فالشاعرية مقصورة عليه ، بل إن كل شاعر يشعر فهو من وحى المتنبى ، وهذا ادعاء عريض ، وسنضع بين يديك كثيرا من شواهد العربية فى هذا الغرض يقول المتنبى فى سيف الدولة وقد تشكى من دمل :

وأنت المرء تمرضه الحشايا ... لهمته وتشفيه الحروب (٢)

فهو يريد إثبات المروءة له وحده فيقول : إنك الرجل ، لأنك إذا نمت على الفرش المحشوة وجدت ألما لا لذة فلا يصلح لك إلا الحرب ، لذا قال أبو البقاء وهذا من الكذب الذى يستحسنه الشعراء (٣)
وقال فى مدح كافور :

أنت الحبيب ولكنى أعوذ به ... من أن أكون محبا غير محبوب

فهو يريد إثبات أن كافور هو الحبيب إليه ولا حبيب له سواه ، وهـــذا

---
١)الديوان ١/ ٢٩١ .
٢) السابق ١/ ٧٣
٣) التبيان ١/ ٧٣ .

ادعاء بالقطع لأن المتنبى كان يكن لكافور عداوة وبغضا ، و قوله يمدح أبا أيوب أحمد بن عمران ٠

وتـرى الفتوة والـمروة والأبـ وة فـى كـل مليحـة ضراتها

هـن الثلاث المانعاتى لذتـى فى خلوتى لا الخوف من تبعاتها

أراد أن يثبت تعففه عن النساء فاتخذ سبيل تعريف المسند وسيلة لإثبات دعواه وتأكيد مزاعمه فلا يمنعه من الخلوة بالنساء إلا الفتوة والمروءة والأبوة فقصر ذلك عليهن ، وأثبته المنع لهن ، ونفاه عن سواهن ، فلا يمنعه عن المعصية إلا الخوف من خدش هذه الثلاث لا من الله ،وهذا سرف نعوذ بالله منه كما قال الأئمة، ومنه فى القصيدة نفسها قوله :

تلك النفوس الغالبات على العلا والـمجد يغلبها على شهواتها

ومنه قوله يمدح أبا الفضل محمد بن العميد

أنت الوحـيد إذا ارتكبت طرقـة ومن الرديف وقد ركبت غضنفرا

ثم يقول: فهـو المشـيع بالمسـامع إن مضى وهـو المضاعف حسنه إن كررا (١)

فهو يقتصر على فرديته فى أفعاله ، وما من فعل إلا ويشترك فيه الناس ، يقول له : أنت فى كل أمر تفعله فرد لا يقدر أحد أن يتبعك فيه ، كراكب الأسد لا يقدر أحد أن يتبعه ، ولا أن يكون رد يفاله ، ويريد قصره على أن كلامه تتبعه الأسماع إذا مضى حباله ، وإذا كرر ازداد حسنا ومن ذلك قول حسان :

هو الرجل الذى حـدثت عنه غـريب بين زمزم والمقام

هو الرجل الذى جلب ابن سعد وعثمان مـن البلد الحرام

ومنه قوله يمدح الزبير :

هـو الفارس المشـهود والبطل الذى يصول إذا ما كان يوم محجل (٢)

---

١) هذه الشواهد فى الديوان ١/١٧٦، ٢٢٧ ، ٢٣٠، ٢/١٦٧.

٢) ديوان حسان ٢٤٩، ٢٩٤.

ومنه قول أبى تمام يرثى عمير بن الوليد :

هـو الخطب الذى ابتدع الرزايا وقـال لأعـين الثقلين جودى

فقد قصر عليه الشجاعة والجود قصرا ادعائيا ، وفى البيت سـرف ، ومنه قوله يهجو غيره ويفخر بنفسه :

أنا الحسـام أنا الموت الزؤام أنا الـ نار الضرام أنا الضرغامة العبد

ألا تراه اصطفى تعريف الطرفين وسيلة لإثبات هـذه الصفـات لنفسـه ، نكاية فى المهجو ، ومنه قوله يهجو

فمـا أنت اللئيم إذن ولكن زمان سدت فيه هو اللئيم (١)

فقد رأيت تعريف الطرفين أقذع فى الهجاء وأوجع للمهجو .

ومنه قول يشكو الدهر ، وينعى وطنه :

رجـاء مايقـابله رجـاء هو البأس الذى عقباه شوم

وقوله هى الوطن الذى فارقت فيه وفارقنى المساعد والنديم (٢)

وكنت بها الممنع غير وغد ولا نكد إذا حل العظيـم

فقد اصطنع تعريف الطرفين وسيله لإثبات مر شكواه فى ثلاثة مواطن فى كل بيت موطن ومن احسن ذلك قول بشار يتغزل :

أنت الأمـيرة فـى الهوى وأنا المسـىء المـذنب

وقد ورد التعريف فى الشطرين ، والقصر فيهما ادعائى ، ومنه قوله

أخى أنت النصيح فلا تلمني فما دونى من النصحاء باب (٣)

أراد أن يدعى قصر النصيحة على أخيه ويمنعها عن سواه ومن ذلك قول الأعشى يفخر :

---

١) ديوان أبى تمام ٤/٥٥ ، ٣٤٣ ، ٤٢٨ .
٢) ديوان أبى تمام ٤/٥٣٧ .
٣) ديوان بشار ١/ ٣٦٠ ، ٣٧٦ .

ألسنا الـــمانعين إذا فزعنا   وزافـــت فيلق قبل الصباح

ســـوام الحى حتى نكتفيه   وجـود الخيل تعثر فى الرماح

ألســنا المقتفـــين بمن أتانا   إذا ما حــاردت خور اللقاح

ألسنا الفارجين لكل كرب   إذا مـــا غص بالماء القراح

ألسنا نحن أكرم إن نســبنا   وأضرب بالمهندة الصفاح (١)

ما من ريب أنك تحس إحساسا عميقا بقيمة التعريف فى مثل هـذه المواطن، وذلك ادعى لبهت الخصم ، وغلبة المخاصم ·

وتراه يفخر أيضا فيقول :

نحن الفوارس يوم الحنو ضاحية   جنبى "فطيمة" لاميل ولا عزل (٢)

ويوم الحنو هو نفسه يوم ذى قار ، وفطيمة :امرأة من بنى سعد كانت عند رجل من بنى سيار وقد اتخذ عليها ضرة من قومه ،وحدث أن تعايرت الزوجتان ، فما كان من الثانية إلا أن حلقت ذوائب فطيمة فدارت الحرب بين الحيين ، وكان الظفر فيها لبنى سعد ، وسمى ذلك اليوم يوم فطيمة والميل هو الجبان ، والأعـزل هو المجرد من السلاح ولا يغيب عنك ما ذكرناه من أبيات عمر و بن كلثوم فى تعريف المسند إليه بالضمير فراجعه هناك ومن ذلك قول البحترى يمدح سليمان بن وهب

نحـــن الفـــداء فمأخوذ ومرتقب   ينوب عنك إذا همت بك النوب (٣)

وقولة : وأنا النـــذير لمن تغطرس أو طغى   مـــن مارق يدع النحور جيوبا (٤)

---

١) الديوان ٤٠، زافت : ابتعدت ، الفيلق : الجيش العظيم ، سوام الحى : طراقه، نكتفيه : نحوزه بكامله ، حاردت : جف ضرعها ، الخور اللقاح : الإبل الغزيرة اللبن ، المهندة الصفاح : السيوف العريضة النصل المنسوبة إلى بلاد الهند

٢) الديوان ١٣٥ .

٣)الديوان ١/ ١٦٩ .

٤) الديوان ١/٨٦ والجيوب : الصدور

ومنه قوله يمدح الحسن بن مخلد :

أنت الكريم ، وقد قدمت مبتدئا وعـــــدا وكل كريم عند موعده

وقوله

وأنا الشجاع وقد بدالك موقفي بعقرقـــــس والمشرفية شهدى

وقوله :

تلك البخيلة ما وصلى بمنصرف عنها ولا صدها عنى بمصدود(١)

ومن البين فى ذلك قول الخنساء فى أخيها

أنت المهـند من سليم فى العلى والفـــرع لم يسب الكرام بمشهد(٢)

ومما يكشف عن شدة أساها قولها فى أخيها :

كنت المفـرج مــا ينوب فقـد أصبـحت لا تـحلى ولا تمرى (٣)

ومنه قولها فى أخيها :

أنت الفتى الماجد الحامى حقيقته تعطى الجزيل بوجه منك مشراق (٤)

وإنما أكثرنا من هذا الكلام الشريف فى هذا الموطن لشيوع ذلك فى الشعر العربى، والشعراء المجيدون لا يكثرون من لون إلا إذا استحنوه بل إلا إذا كان وسيلة عليا تكشف عما يخالج نفوسهم ويجيش بخواطرهم

ثالثا : إفادة القصر الحقيقى التخصيص من ذلك قول ابن الدمنيه :

ونـحن التاركون على سليل مــع الطير الخوامع يعترينا

والخوامع : هى الضباع ، أو لم يقتل سليلا ولم يتركهم للطير الضباع تأكــل

١) الديدان ١/٥٠٠، ٥٤٩، ٥٥٦ ، عقر قس واد فى بلاد الروم

٢) الديوان ٥٩، لم يسب : لم يبعد .

٣)الديوان ١٠٣ لاتحلى ولا تمرى : لا تتكلم بحلو ولامر

٤) الديوان ١٤٥ الحامى حقيقته يحمى ما لزمه الدفاع عنه

لحومهم سواهم وهو قصر حقيقى تحقيقى لأنه لم يفعل ذلك غيرهم (١) ومن البيّن فى ذلك قول الحق -جل وعز- هو الله الخالق البارىء المصور " ﴿الحشر/٢٤﴾ فهذه الصفات مقصورة عليه سبحانه وتعالى لاعلى شركائهم ويمكن أن تعد منه قوله تعالى: "فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم . . ﴿البقره /٢٦﴾ وقوله : ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم . ." ﴿البقرة/ ٩١﴾ وقوله " وكذب به قومك وهو الحق. . " ﴿الأنعام/ ٦٦﴾ ومنه قوله تعالى : " ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى . ." ﴿الحج/ ٦﴾ وقوله " ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل . ." ﴿الحج/ ٦٢﴾ فهو الحق سبحانه لا سواه، وغيره الباطل ومنه قوله " ويعلمون أن الله هو الحق المبين . . ﴿النور/٢٥﴾ ومثله كثير فى الذكر الحكيم ·

رابعا : إفادة القصر الإضافي ، من ذلك قوله تعالى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى "﴿ طه / ٦٧، ٦٨ ﴾ فليس المقصود قصره مطلق العلو على موسى -عليه السلام - وإنما المقصود أن العلو لا يتعداه إلى السحرة

ومن ذلك قول الأعشى :

هو الواهب المائة المصطفاة ... إما مخاضا وإما عشارا(٢)

أراد جنسا معنيا من الهبات والعطايا ، وقد تكرر هذا فى شعره ، ومنه قول الخنساء :

السيد الجحجاح وابن ... السادة الشم الجحاجح

الحامل الثقل المهم ... من الملمات الفوادح

---

١) خصائص التراكيب ٢٤١ بتصرف ·

٢)الديوان ٧٦، ١٩٣ ، ١٩٤.

الواهب المائة الهجان   من الخناذيذ السوابح

الغافر الذنب العظيم   لذى القرابه والممالح (١)

فالمسند المقصور فى كل ذلك مقيد بقيد ، وليس على إطلاقه ، فمن أجل ذلك كان القصر إضافيا

خامسا : تقرير المسند للمسند إليه : من ذلك قول الخنساء

إذ اقبح البكاء على قتيل   رأيت بكاءك الحسن الجميلا

فإنها لم ترد قصر الحسن على بكائه بحيث لا يتجاوزه إلى شىء آخر وإلا لم يحسن جعله جوابا لقوله :إذا قبح البكاء على قتيل ، إذ لا معنى للقصر فى قولنا إذا قبح البكاء على قتيل لم يحسن إلا بكاءك وهو مما لا يخفى على من له أدنى دربه بأساليب الكلام فظهر أن الغرض أن تثبت لبكائه الحسن ، وتخرجه من جنس بكاء غيره من القتلى . .ومعنى التعريف هنا أن اتصاف المبتدأ بالخبر أمر ظاهر لا ينكر عليه ولا يشك فيه (٢) ومنه قول حسان بن ثابت رضى الله عنه

وإن سنام المجد من آل هاشم   بنو بنت مخزوم ووالدك العبد (٣)

فقد أراد أن يثبت له العبودية ، وان يجعله معروفا كما قال الشيخ عبد القاهر (٤) وقد نبه الشيخ عبد القاهر إلى خطر هذا النوع فقال : وله مسلك ثم دقيق ولمحه كالخلس يكون المتأمل عنده كما يقال ويعرف وينكر ،وذلك قولك هو البطل المحامى . . ويزداد هذا المعنى ظهورا بأن تكون الصفة التى تريد

---

١) الديوان ٣١، الجحاجح :السادة المسارعون الكرم ، المهاجر : الذين يكسرون أعداءهم . الهجان : الكريمة الخناذيذ : الطوال المشرقة ، السوابح التى تسير كأنها تسبح ، الممالح : من مالحه أى: آكلة .

٢)المطول ١٨٠ .

٣) الديوان ١١٨ .

٤) دلائل الإعجاز ١٨٢ .

الإخبار بها عن المبتدأ مجراة على موصوف(١) كقول ابن الرومي :

هـو الرجل المشروك في جل ماله ... ولكنه بالمجد والحمد مفرد

فقد أراد أن يثبت بلوغه الكمال في الجود والكرم ، واستخراج هذا المعنى قائم على مراجعة النفس واستقصاء التأمل وهو - كما قال الشيخ - من سحر البيان الذي تقصر العبارة عن تأدية حقه ومنه قول الشاعر :

أنـا الرجـل المدعو عاشق فقره ... إذا لم تكارمني صروف زماني

ومنه قول ابن الرومي :

أهـدى إلي أبو الحسين يدا ... أرجو الثواب بها لديه غدا

وكذاك عادات الكريم إذا ... أولى يدا حسبت عليه يدا

إن كان يحسد نفسه أحد ... فلأزعمنك ذلك الأحـدا

والشاهد في قوله فلأ زعمنك ذلك الأحدا .

تعريف بالموصولية :

يعرف المسند بالموصولية للإيماء إلى كمال المسند إليه في الصفة أيضا من ذلك قول الشاعر .

أخـوك الـذي إن تدعه لملـمة ... يجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب

فأنت توهم أن الأخ الكامل في الأخوة ، هو ذلك الذي إن تدعه .. مع ما تثيره جملة الصفة أيضا من النجدة والدفاع ، وما تومىء به من اشتهارها بين الناس ، ومن ذلك أيضا قول بشار :

أخوك الذي إن ربته قال إنما ... أربت وإن عاتبته لان جانبه (٢)

والمعنى :أخوك الذي إن رأى منك ما يريبه ،وعلم منك الريبة لم يفضحك ،ولم يقطعك ، بل ينسب الريبة إلى نفسه ، كأنه هو المريب وحده ،وإن عاتبته لم يحمد

١) دلائل الإعجاز ١٨٢، ١٨٣.

٢) ديوان بشار ١/ ٣٠٨.

على العتاب بل يلعن جانبه ، وترى مثل هذا اللون كثيرا فى المديح والفخر ، ومن الأول قول المتنبى يمدح على بن منصور الحاجب :

هذا الذى أفنى النضـار مواهبا وعداه قتلا والزمــــان تجاربا

ومــخيب العــذال فيما أملوا فيه وليس يــــرد كفا خائبا

هذا الذى أبصرت منه حاضرا مثل الذى أبصرت منه غائبا (١)

فهو يريد مدحه بأنه أفنى الذهب بالمواهب والأعداء بالقتل وجرب الزمان ، وأنه بلغ الكمال فى ذلك ، فجاء المتنبى بالبناء اللغوى الذى يوحى بمراده ، ولا يبعد أن يكون قصرا ادعائيا قصد منه المبالغة ، ومنه قوله

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم (٢)

ويعرف المسند بالموصولية أيضا لإفادة القصر الادعائى من ذلك قول الأعشى

فتلك التى حرمتك المتاع وأودت بقلبك إلا شقيصا (٣)

والشقيص الشىء القليل ،وقد أتاح له الاسم الموصول أن يأتى بجملة الصلة التى أبرزت ألم الشيب ، وأفول نجم الشباب لأنه يقول قبله

لقد أغلقت حلقات الشباب فأنى لى اليوم أن استفيضا

ومن ذلك قوله يتغزل :

تلك التى كلفتك النفس تأملها وما تعلقت إلا الحين والحرقا (٤)

ومن البين فى ذلك قوله يمدح هوذه بن على الحنفى

---

١)الديوان ١/ ١٢٩ .

٢) السابق ٣/٣٦٧ .

٣) ديوانه ٩٨ .

٤) ديوانه ١١٧ الحين : الهلاك .

وأنت الذى عودتنى أن تريشنى   وأنت الذى آويتنى فى ظلالكا (١)

وقد أثارت جملة الصلة الممدوح أن يعطيه وأن يأويه ، مع ما يشير إليه الاسم الموصول من ادعاء قصر ذلك عليه .

ويعرف المسند بالموصولية أيضا لإفادة القصر الحقيقى التحقيقى وهو كثير فى الذكر الحكيم من ذلك قوله تعالى : " هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور " ﴿الملك /١٥﴾ ومنه قوله : " قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون ﴿الملك/ ٢٣، ٢٤﴾ ومنه قوله تعالى : "هو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان كفور ﴿الحج/ ٦٦﴾ وقوله " الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم . . " ﴿الروم /٤٠﴾ وهو كثير جدا فى الذكر الحكيم .

تعريفه بالإضافة

يعرف المسند بالإضافة لقصد تعظيم المسند إليه ، وذلك إذا أضيف المسند إلى عظيم ، وقد ورد ذلك كثيرا فى الذكر الحكيم .

ومن ذلك قوله تعالى :" محمد رسول الله والذين معه . . ." ﴿الفتح/٢٩﴾ فقد اكتسب المسند إليه التعظيم والتشريف بإضافة المسند إلى لفظ الجلالة ومنه قوله تعالى : " لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين " ﴿الصافات/ ١٦٨، ١٦٩﴾

ومنه قوله تعالى : " قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ﴿مريم / ٣٠﴾

ومن ذلك فى الشعر قول بشار فى أمير المؤمنين المهدى

فتى قريش دينا ومكرمة   وهبت ودى له بما وهبا (٢)

---

١) ديوانه ١٢٨ .

٢) الديوان ١/٢٥٧.

فالمسند إليه محذوف وفتى هو المسند ، وقد أكسبت الإضافة (قريش) المسند إليه تشويقا وتعظيما ، ومن ذلك قول الخنساء فى أخيها :

خطاب محفلة ، فراج مظلمة إن هاب معضلة سنى لها بابا

حمال ألوية ، قطاع أودية شهاد أنجية للوتر طلابا

سم العداة ، وفكاك العناة إذا لاقى الوغى لم يكن للموت هيابا(١)

ومنه قول المتنبى : أنا ترب الندى ورب القوافى : وسمام العدا وغيظ الحسود ٠

فإضافة المسند أكسبت المسند إليه تعظيما وتشريفا ، ومن الممكن أن يعرف المسند بالإضافة لقصد تحقير المسند إليه ، وذلك إذا أضيف المسند إلى حقير كقولك : أبو جهل عبد الشيطان ، فقد أفادت الإضافة تحقير أبى جهل لعنه الله ٠

ومن البين فى ذلك قوله تعالى : "أولئك حزب الشيطان . ." ﴿ المجادلة/١٩ ﴾ أرأيت كيف حقرت الإضافة المسند إليه ، وترى الإضافة وسيلة قرآنية لتقبيح ثمر شجرة الزقوم فى قوله تعالى : " طلعها كأنه رؤوس الشياطين " ﴿ الصافات /٦٥ ﴾ ومن ذلك قول الأخطل يهجو :

بنو كل متقال كأن جبينها إذا زحلت عنه جبين غراب (٢)

فهم أصحاب كل منتنة ،وجبينها إذا كشفت عنه جبين غراب ، فقد عاونته الإضافة فى تقبيح هؤلاء القوم وتحقيرهم ٠

تخصيص المسند بالإضافة أو الوصف

الغرض العام من تخصيص المسند بالوصف ،أو الإضافة هو تكثير الفائدة

---

١) الديوان ١١، المحفله : المجلس ، المعضلة : المشكلة المستغلقة ، سنى : سهل وفتح الأنجية المجالس ٠

٢) ديوانه ٥٠ ، المتقال : النتنة ، زحلت كشفت ٠

وتربيتها ومن التخصيص بالإضافة قول الشاعر :-

حمى الحديد عليهم فكأنه ومضان برق أو شعاع شموس

فقد أضاف الومضان إلى البرق، والشعاع إلى الشموس ، فدل ذلك على ومضان بعينه وشعاع بعينه ، ومن هنا كانت الفائدة ،من الإضافة وحتى تتبين ذلك فى الشعر لابد أن يكون المسند شيئا عاما ، ثم تأتى الإضافة ، أو يأتى الوصف لتخصيص هذا العام ، ومن ذلك أن تقول : شوقى أمير الشعر الحديث ، وامرؤ القيس أمير الشعر القديم وقس بن ساعده خطيب العرب وهكذا

ومن التخصيص بالوصف قول الشاعر :

وكنت امرءا لا أسمع الدهر سبة أسب بها إلا كشفت غطاءها

فقد خصص المسند " امرءا " بالوصف لتتم الفائدة وتكثر ، ومن ذلك قول البحترى

هى الراح تمت فى صفاء ورقة فلم يبق للمصبوح إلا مزاجها(١)

فهو لم يرد الراح عامة ، وإنما أراد الراح التى من صفتها تمام الصفاء والرقة ومنه قول المتنبى يهجو كافورا :

حصلت بأرض مصر على عبيد كأن الـــسحر بينهم يتيم

كأن الأســود اللابــى فيهــم غراب حوله رخم وبوم (٢)

فقد أراد أن يصف كافورا ، وحوله العبيد بأنه الغراب والجالسون حوله الرخم والبوم ، واللابى منسوب إلى اللابة ، وهى أرض ذات حجارة سود فقد وصف المسند بوصف يخصصه بحالة معينة ، فكثرت الفائدة

وربما يكون منه قول الشاعر :

حملت ردينيا كأن سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان

---

١)ديوانه ٤٢٧/١ .

٢) ديوانه ١٥٢/٤ .

فقد أضاف المسند (سنا) إلى اللهب تخصيصا له ، ثم اتبعه بوصف فعظمت الفائدة وتكاثرت ،وذلك راجع إلى لقانة الشعراء وحذقهم ، ومنه قول ابن المعتز

يطارح النظـــرة فى كل أفق ذى منسر أقنى إذا شك خرق
ومقـــلة تصدقه إذا رمق كأنـــها نرجسة بلا ورق (١)

فهو لم يرد نرجسة عامة ، وإنما خصص النرجسة بأنها بلا ورق فأضاف ذلك فائدة وهكذا .

تنكير المسند وأغراضه

يؤتى بالمسند منكرا لأغراض بلاغية منها

١. عدم إرادة القصر أو العهد ، فإن تعريفه مع تعريف المسند إليه يفيد ذلك ، فحين ينكر المسند لايراد ذلك ، من ذلك قولك زيد شاعر ، وعلى كاتب ، فأنت لا تريدان تقصر الشاعرية عليه ، من أجل ذلك نكرت
٢. ينكر المسند لإرادة النوع ، ومثل له الزركشى(٢) بقوله تعالى : هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ﴿ص /٤٩﴾ ، والتنويع هنا مفهوم من السياق
٣. قصد التعظيم ، من ذلك قوله تعالى : " ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين " ﴿البقره/ ٢﴾والشاهد فى "هدى " حيث وقع خبرا لمبتدأ محذوف، والمراد من التنكير التعظيم ، ومنه كثير فى الذكر الحكيم ، من ذلك قوله تعالى : هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين " ﴿آل عمران /١٣٨﴾ وقوله : " تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين " ﴿ النمل /٢ ﴾ .

---

١) راجع كثيرا من شواهد تفصيل التشبيه عند الشيخ عبد القاهر فى أسرار البلاغة ١٤٩ وما بعدها ط ريتر
١) البرهان ٤/٩١

وتنكير المسند لقصد تعظيمه كثير شائع فى شعر المديح والرثاء من ذلك قول الخنساء ·

فتـــى كان ذا حلم أصيل وتؤدة إذا ما الحبى من طائف الجهل حلت (١)

ومنه قولها أيضا :

جلـد جميل المحيا ، كامل ورع وللحروب غداة الروع مسـعار (٢)

ومنه قول حاتم يفخر :

كريم لا أبيت الليل جاد اعدد بالأنامل ما رزيت (٣)

ومنه قول الأعشى يمدح :

فتى لو ينادى الشمس ألقت قناعها أو القمر السارى لألقى المقالدا (٤)

ومنه قول أبى تمام يرثى محمد بن حميد الطائى :

فـتى كلما فاضت عيون قبيلة دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة تقـوم مقام النصر إذ فاته النصر (٥)

ومنه قول المتنبى يمدح أبا القاسم طاهر بن الحسين العلوى

مـتى علمـته نفسه وجدوده قـراع الأعادي وابتذال الرغائب (٦)

أراد أن يقول شجاعته وسماحته غريزتان موروثتان فيه ، وتنكير المسند كثير شـائع فـى الشعر العربى ذكرنا منه نماذج ندل بها على أنه صنعة شريفة فـى الكلام الجيد يصطنـعها البلغاء وسيلة يعظمون بها الممدوح والمرثى وغير ذلك ·

---

١) الديوان ٢٧ الحبى : واحدتها الحبوة : طريقة فى القعود ، وجدل حبوته : نهض

٢) الديوان ٧٠ .

٣) الديوان ١٠، الجادى : السائل

٤) الديوان ٦٢ .

٥) الديوان ٤/٨٠ .

٦) الديوان ١/١٥٢ .

٤- قصد التهويل ، ومن البين فى ذلك قوله تعالى : يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزله الساعة شىء عظيم " ﴿الحج /١﴾ فالتنكير هنا أفاد تهويل أمر الساعة وما يحدث فيها من الحادثات .

٥- الاستبعاد ومنه قوله تعالى : " أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد " ﴿ق٣﴾ومما يعلى من هذا الإيحاء أنه جاء بعد استبعاد أن يكون محمد ﷺ منذرا لهم " بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب " ﴿ق/٢﴾ فكأن الذكر الحكيم يصعد فى بيان استبعاد الكافرين أمر البعث .

٦- التحقير من ذلك قول قيس بن جروة يخاطب عمر و بن هند :

غدرت بأمر كنت أنت دعوتنا إليه وبئس الشيمة الغدر بالعهد

وقد يترك الغدر الفتى وطعامه إذا هو أمسى حلبة من دم الفصد

والشاهد فى قوله : حلبة " فهى خبر لقوله : " طعامه " والمعنى أن الوفى لا يغدر، ولا يخضع لإغراءات الغدر ، ولو كان طعامه من أصغر الطعام وأخبثه "حلبه من دم الفصد " ومن ذلك قول عويف فى هجاء قبيلة وبر

واللؤم داءُ لوبر يقتلون به لا يقتلون بداء غيره أبدا

يقصد داء حقيرا ،وترى التنكير شائعا فى الهجاء من ذلك قول بشار يهجو الباهلى

أبوك إذا غدا خنزير وحش وأمك كلبة فيها بذاء (١)

ويقول: أفرخ الزنج كيف نطقت باسمى وأنت مخنث فيك التواء

ومنه قوله يهجو يحيى بن صالح :

مالي وأنت ضعيف غير مرتقب أبقى عليك وتغرى غير إبقاء (٢)

---

١)الديوان ١/١٢١

٢) الديوان ١/١٢٢.

أي مالك لا أتعرض لك بالهجاء مع أنك ضعيف غير مشرف ولا عالي الخط ،ومن ذلك قول الأخطل يهجو بني زيد :

قبيلة لا يرفدون حلبا ولا ينالون لقوم سلبا (١)

والسياق هو الذى أشعر بأن التنكير للتحقير ،وهكذا ترى تنكير المسند شائعا فى شعر الهجاء ، لأن تحقير المهجو هو المقصود الأعظم للشاعر ، وليست أغراض تنكير المسند مقصورة على ما ذكرنا ، وإنما يمكنك استنباط غيرها حين تراجع الكلام الشريف ، فترى حسن مواقع التنكير فيه ، ودلالاتها وإيحاءاتها ، وإنما نبهنا على البعض منها فقط .

تقديم المسند وأغراضه

من المركوز فى الطبائع البشرية أنها إذا أولت الشىء مزيد اهتمام وعناية قدمته على غيره ،ذلك كائن فى طباع الخلق فى شأن الأشياء ، وهو كائن أيضا فى شأن الكلام ، فإن الكلمة الشريفة كائن حى تحمل فى حواشيها شرف صاحبها وأحواله وتقديم المسند هو الضرب الذى قال عنه عبد القاهر إنه تقديم على نية التأخير ولمح سر التقديم فى المسند ظاهر عنه فى المسند إليه ، إذ رتبة الأول التأخير ورتبة الثانى التقديم ، وقد قالوا إن وجه البلاغة أظهر فيما جاء على خلاف الأصل كما اشتهر بينهم أن ماجاء على أصله لايسأل عن سره . وقد ذكر البلاغيون لتقديم المسند أغراضا منها .

أولا : إفادة القصر ، وهو أظهر أغراض تقديم المسند وأكثرها شيوعا ومن البين فى ذلك قوله تعالى : لكم دينكم ولى دين ﴿الكافرون /٦﴾ وقد وردت الآية الكريمة فى امتداد سياق يبرز أن ثمة إلحاحا شديدا على محاولة الكافرين إمالة

١) الديوان ٦١.

الرسول ﷺ عن دينه إلى دينهم ، فجاء التقديم مبرزا اختصاص كل بدينه، فالتقديم ورد مستجيبا لدواعي السياق ، ومن ذلك أيضا قوله تعالى : " أم للإنسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى ﴿ النجم /٢٤، ٢٥ ﴾

جاء التقديم مبرزا للاختصاص الذى يقطع على كل إنسان أمنيته ، مع ما فى ذلك من مناسبته رؤوس الاى أيضا ،وقد ذكر الآخرة أولا لشرفها ، ومنه قوله تعالى : "ألكم الذكر وله الأنثى ﴿ النجم/٢١ ﴾ جاء التقديم كاشفا عما كان عليه أهل الجاهلية من ادعائهم اختصاص الله بالأنوثة ، واختصاصهم بالذكورة وهو من عجيب اعتقادهم ، وقد قدم ما ادعوه لأنفسهم على ما ادعوه لله ، إيماء إلى إبطال هذا الاختصاص أصلا ومن ذلك أيضا قوله تعالى " لله الأمر من قبل ومن بعد ﴿ الروم/ ٤ ﴾ " له الحمد فى الأولى والآخرة ﴿ القصص /٧٠ ﴾ .

وترى التقديم لإفادة القصر الادعائى شائعا فى شعر المديح والفخر والرثاء والغزل من ذلك قول الأعشى :

فيهم الخصب والسماحة والنجـ ـدة منهم والخاطب المصلاق(١)

أراد الشاعر أن يدعى قصر الخصب عليهم ، ومعلوم أنه فيهم وفى غيرهم ،ومنه قول أبى تمام يرثى محمد بن حميدة :

للسيف بعدك حرقة وعويل وعليك للمجد التليد غليل (٢)

أراد أن يبرز أن المرثى بلغ الغاية فى الشجاعة والجد فقصر الحرقة والعويل على السيف وجعل الجد غليلا عليه ومنه قول الخنساء(٣)

وفارس الخيل وافتة منيته ففى فؤادى صدع غير مجبور

أراد أن تقصـــر الصدع غير المجبور على فؤادها مبالغه فى إبراز شدة حـــزنها

---

١) الديوان ١٢٦

٢) الديوان ٤/١٠٢.

١)الديوان ٩٧.

وترى تقديم المسند من الوسائل العاليه فى الهجاء أيضا مبالغه فى إثبات المثالب من ذلك قول أبى تمام :

ألف الهجاء فما يبالي عــرضه	أهجاه ألف أم هجــــاه واحد
سمجت بك الدنيا فمالك حامد	وسمجت بالدنيا فمــالك حاسد
لأنكلنك أن تكـــــون لشاعر	من بعدها غرضا وأصلك فاسد
ولأشهرن عليك شنــع أو ابد	يحســــبن أسيافا وهن قصائد
فيـــها لأعناق اللئام جوامـــع	تبــقى وأعناق الكرام قلائد(١)

تبصر التقديم من غير موضع من هذه المقطوعه (فمالك حامد) (فمالك حاسد) (فيها لاعناق اللئام جوامع) غير ما تراه من تقديم أشياء أخرى غير المسند فى القصيدة ، فهو يقصر على المهجو ذلك ادعاء للتنكيل به والتشنيع عليه ·

ثانيا : التنبيه من أول الأمر أنه خبر لاصفة ، وذلك أن النكرة تطلب الصفة أكثر من طلبها الخبر، وبدهى أن النفس سرعان ما يزول عنها هذا اللبس (٢)، غير أن البليغ يريد أن يوقع معناه من أول وهله خاليا من أي لبس ، فيتمكن فى نفس السامع فضل تمكن ومن المشهور فى ذلك قول حسان بن ثابت رضى الله عنه فى مدح سيدنا رسول الله ﷺ ·

له هـــــمم لامنتهى لكبارها   وهمته الصغرى أجل من الدهر

فلو قال همم له " لوقع فى الوهم أن المسند صفة ، وليس خبرا ، ولا يغيب عنك أن فى هذا التقديم شائبة الاختصاص أيضا ولعل منه قول المتنبى يمدح سيف الدولة ·

---

١)الديوان ٣٤٧/٤، ٣٤٨.

٢)خصائص التراكيب ٢٥٠ بتصرف

وللحساد عذر أن يشحوا   على نظرى إليه وأن يذوبوا (١)

فلو قال وعذر للحساد، لوقع فى النفس أول الأمر أن المسند صفه ،مع ما يوهم به التقديم من الاختصاص أيضا وترى ذلك واضحا فى قول البحترى يهجو :

له همــــة لو فرق الله شملها   على الناس لم يجمع لمكرمة شمل

له حسب لوكان للشمس لم تنر   وللماء لم يعذب وللنجم لم يعل (٢)

ومنه قول أبى تمام فى المدح :

له هــمم ما إن تزال سيوفها   قواطــع لو كانت لهن مقاطع (٣)

ومن هذا الغرض فى الذكر الحكيم قوله تعالى : "لكل أجل كتاب" ﴿الرعد/٣٨﴾ وقوله : " ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين " ﴿الأعراف/٢٤﴾ وقوله: "ولكم فيهاجمال حين تريحون وحين تسرحون " ﴿النحل/ ٦﴾ وقوله " فمنهم شقى وسعيد " ﴿هود /٥﴾ "فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴿فاطر/ ٣٢﴾ .

ثالثا : التشويق إلى ذكر المسند إليه : ومن البين فى ذلك قول الشاعر :

ثلاثــة تشــرق الدنيا ببهجتها   شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

وذلك راجع لإطالة المسند ، والإبداع فى وصفه ، مما يثير النفس لمعرفة المسند إليه ولا تقل إن ذلك راجع إلى المسند إليه ، لأن المراد تمكين نسبة المسند إلى المســـــند إليه فى نفس السامع ومنه قولهم : ثلاثة يذهبن الغم والحزن الماء والخضرة والوجه الحسن .

ومن البين فى ذلك قول المتنبى :

---

١) الديوان ١/٧٥.

٢) الديوان ٣/ ١٦٦٥

٣) الديوان ٤/٥٨٣ .

ومن شرف الإقدام أنك فيهم   على القتل مرموق كأنك شـــاكد (١)

والشاكد هو المعطى ، أى أنت تقتلهم ،ومع هذا يحبونك كأنك تعطيهم شيئا فتقديم المسند شوق إلى ذكر المسند إليه فتمكن فى النفس فضل تمكن ومنه قوله أيضا .

فـــى شـأنه ولسانه وبنانه   وجنانه عجب لمن يتفقـــد (٢)

ومنه أيضا قول المتنبى :

مما أضر بأهل العشق أنهم هووا   وما عرفوا الـــدنيا وما فطنوا (٣)

رابعا : قصد التفاؤل من ذلك قول الشاعر :

سعدت بغرة وجـهك الأيام   وتزينـــــت ببقائك الأعـــوام

فقد تقدم المسند (سعدت) نعم حقه التقديم لكونه فعلا غير أن المسند لما كان التلفظ به مثيرا للتفاؤل بناه الشاعر جملة فعلية ليكون تقدمه واردا على الأصل فيعاجل به قلب الممدوح ، ومنه قول ابن الرومى .

يمن الله طلعـة المهرجان   كل يمـــن على الأمير الهجـــان

وقد يكون تقديم المسند للمعاجلة بما يثير التشاؤم من ذلك قول البهاء زهير .

غدرت بى بعدعهود جرت   يكفيك قول الناس:ياغادر(٤)

ومنه قوله :

لعـــن الله مـــــن ذكـــ   ـــرت وحـــاشاه تذكره

---

١) الديوان ١/٣٣٣.

٢) الديوان ١/٢٧٦

٣) الديوان ٤/٢٣٤ .أى ما أضر عشاق الدنيا إلا حبهم الأعمى للدنيا وجهلهم بغدرها.

٤) الديوان ١٢٠.

إن مـــــن فاه باسمه دجـــلة لاتطـــــــهره
وأرى ألـــف ركعـــة بعـــــده لا تكفـــره (١)

فذكر اللعن والغدر مقدمين معاجلة بما يثير التشاؤم ويثبت التهم ·

خامسا :إظهار الضجر والتألم ، من ذلك قول المتنبى

ومن نكد الدنياعلى الحر أن يرى عـــدوا له ما من صداقته بد(٢)

قدم المتنبى من الكلام ما يهمه كشفه وإظهاره مما يدل على شدة ضيقه (ومن نكد الدنيا على الحر) والمسند إليه أن وما دخلت عليه وبوســعك أن تستنبط أغراضا أخرى للتقديم عند تأملك الكلام الشريف، هـذا ويمكنك التعرف على أغراض تأخير المسند من أغراض تقديم المسند إليه فهـى ذاتها أغراض تأخير المسند ·

تقييد المسند بالشرط :

هذا العنوان يقتضى أن تكون الجملة فعلية ، وليس معنى هذا أن الجملة الاسمية ترد خالية من القيود فنحن نقول محمد جالس فى الكلية ، وعلى جالس فوق الشجرة فقد رأيت قيدين فى الجملتين ،وهذان القيدان هما محط الفائدة ، وذلك إذا قلت هاتين الجملتين فى التفريق بين سلوكى طالبين فى مرحلة واحده ولك أن تحذف القيدين ثم تنظر المعنى بعد الحذف ، ما من ريب أن الجملتين خلتا من الفائدة التى ترجوها ·

فالقيود فى الجملة تكثر الفائدة ، إن لم تكن عمادا للفائدة فى كثير من المواطن ،وقد يقع القيد بالحال والتمييز والجرور والظرف والوصف وغير ذلك إذا ما كانت هذه القيود هى محط الفائدة فى الكلام ، ودراسة القيود باب عظيم النفع

١)الديوان ١٢٢ .

٢) الديوان ٣٧٥/١ .

وإن تأملت لونا من ألوان القيود فى البيان القرآنى أو النبوى ، وفى كل صنعة شريفة من البيان شعر أو نثرا وجدت خيرا كثيرا ٠

وقد نبه البلاغيون بهذا الدرس إلى غيره ، لأنهم دأبوا فى درس بلاغة العرب على إعطاء مفاتيح لكل باب ، فيتلقف أهل العلم والنظر هذه المفاتيح ليفتحوا بها أبوابا من البحث البلاغى لا يحاط بأسرارها ، ولا تدرك حدودها ، هذه كلمة لابد منها بين يدى هذا الدرس ٠

ومن المنطلق الذى ذكرناه لم يتناول البلاغيون من أدوات الشرط إلا " إن - إذا - لو) ولا يعنى هذا أنه لا يكمن وراء القيد بأدوات الشرط الأخرى أسرار، وإنما دلوا بدرس هذه الأدوات على غيرها كما ذكرنا، وكان لابد لهم من تناول (إن) لأنها أم الباب ، وذلك راجع لبساطتها كما ذكر العلماء ، فقد تمحضت للشرط ، أما غيرها من الأدوات فهى تدل على الشرط مع شىء آخر ، مثل متى فهى تدل على الشرط والزمان وهكذا ٠

ودراستهم (إن) جالبة لدراسة (إذا) وذلك لاتفاقهما فى الدلالة على [illegible] وفى أن كلا منهما [illegible] تعلق مضمون جملة الجزاء فى الاستقبال على حصول مضمون جملة الشرط ، فأنت تقول : إن يذاكر محمد ينجح ، وتقول إذا ذاكر محمد نجح ، فحصول النجاح فى المستقبل معقود بحصول المذاكرة ، فجملتا الشرط والجزاء معا تكون فعلية استقبالية غالبا فمن أجل هذا الاتفاق قرن البلاغيون بينهما فى الدرس ٠

أما إن فتستعمل فى المشكوك فيه المحتمل الوقوع ،وأما إذا فتستعمل فى المقطوع به ، من أجل ذلك حسن دخول إن على المضارع ، ودخول إذا على الماضى ترى ذلك واضحا فى قوله تعالى : "ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم

سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون " ﴿الأعراف/١٣٠، ١٣١ ﴾

فقد جاء بلفظ إذا مع الحسنة ، ولفظ - إن - فى السيئة ، وفعل الشرط وجوابه مع إذا بالماضى ، إشارة إلى وقوع ذلك قطعا ، وبلفظ المضارع مع - إن - إشارة إلى تقليل وقوع ذلك حتى وصل وقوعه إلى درجة الاحتمال ، وهذا حق كل الحق إذا ما قايس الإنسان بين أنعم ربه عليه وبين ما ابتلى به ، فقطعا سينتهى إلى أن ما ابتلى به بجانب ما أنعم عليه به لا يساوى شيئا من أجل ذلك وردت الحسنة بلام الجنس على الأرجح لا بالعهد كما قال السكاكى(١) ،ووردت لفظة (سيئة) بالتنكير ، والذى يفيد التقليل تناسبا مع المقام ،وتلاؤما مع الواقع .

ومنة قوله تعالى : "وإذا أذقنا الناس رحمه فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون " ﴿الروم /٣٦﴾ فقد جاء بإذا مع الرحمه ، وجاء بـ (إن) مع السيئة، تنبيها إلى ما ينبغى أن يكون عليه الخلق ، عند الرحمة، فهى تغشاهم كثيرا فيفرحون بها ، وحين تصيبهم أدنى سيئة على قلتها لا يصبرون عليها كما يصبرون على الرحمة ، مع الاشارة إلى أن السيئة تكون بسبب ما قدمت أيديهم ، كما أدمجه القرآن الكريم - وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم .

ومن ذلك قوله تعالى : وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض " ﴿فصلت/ ٥١﴾وقد جاء ذلك فى سياق يكشف عن طغيان الإنسان وأشره وبطره ، لذا قال هنا (وإذا مسه الشر) فوقع المسند إليه معرفا بلام الجنسية إشارة إلا أن مس الشر إياه أمر مقطوع به كفاء طغيانه ، وعاقبة أشره ، ثم الحظ رحمة الله فى التعبير فى جانب الشر (مسه) وهى توحى بلطف هذا الشر وخفة وطأته .

---

١) الإيضاح ١/١٨٧.

ومنه قول المتنبى :

إذ أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فقد أورد فى جانب إكرام الكريم (إذا) وفى جانب إكرام اللئيم (إن)إشارة إلى أن إكرام الكريم مما لا يجب أن يقطع بل يجب أن يتحقق ، وإلى أن إكرام اللئيم مما يجب أن يقل ويندر ، هذه شواهد لما ترد عليه (إن وإذا) غالبا ، وفيها من أسرار البلاغة ما عرفت ،وتعظم الأسرار البلاغية إذا وجدت هاتين الأداتين على غير الغالب فى الكلام الشريف وهذا ما سنذكره فيما يلى :

استعمال (إن) فى الشرط المقطوع به :

ذكرنا أن الغالب فى (إن) دخولها على المضارع لأنها تستعمل فى المحتمل، فإذا رأيتها فى الكلام الشريف داخلة على الماضى ، فاعلم أنها وقعت موقع (إذا) فى الكلام ، ولهذا الموقع إيحاءات بلاغية منها ·

١- قصد إظهار التناصف فى الكلام : من ذلك قوله تعالى : قل إن ضللت فإنما فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب " ﴿ سبأ ٥٠ ﴾ فقد أورد كلامه مورد الاحتمال ، وذلك لإصرارهم على معاندة الحق ، وتكذيب سيدنا رسول الله ﷺ فى رسالته ، فانتقل إلى متاركة جدالهم لقلة جدوى مراجعتهم بجعل ضلاله مظنونا ، وهدايته مظنونه أيضا ، وفى ذلك إظهار للتناصف فى الكلام ·

ويمكن أن يكون منه قوله تعالى : "قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين " ﴿ الزخرف/ ٨١ ﴾ فمن المجزوم به أنه لا ولد له - سبحانه - غير أنه أخرج الكلام مخرج المشكوك فيه ، إظهارا للنصفة ،وتجنبا لمصادمة العاندين ،وهو نفى للولد بطريق أبلغ ، لأنه على سبيل الفرض والاحتمال ·

٢- قصد التوبيخ والتجهيل فى ارتكاب مدلول الشرط وأنه واجب الانتفاء ، حقيق ألا يكون من ذلك قوله تعالى :" أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم

قوما مسرفين " ﴿الزخرف /٥﴾ بكسر (إن) على قراءة نافع ، فمعلوم أن إسرافهم كان متخصصا غير أن الذكر الحكيم قصد إلى تجهيل المخاطب " بجعله كأنه متردد فى ثبوت الشرط شاك فيه قصدا إلى نسبته إلى الجهل بارتكابه الإسراف لتصويره بصورة ما يفرض لوجوب انتفائه وعدم صدوره ممن يعقل (١)

٣- قصد تنبيه المخاطب وتهييجه وهو كثير فى الذكر الحكيم ، من ذلك قوله تعالى : "يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون " ﴿البقرة/ ١٧٢﴾

فقد أورد عبادتهم مورد الاحتمال مما يثير نفوسهم نحو الاجتهاد فى التقرب إلى الله - عز وجل - لإزاله هذا الشك ومن أبين ذلك قوله تعالى : "واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن الله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير " ﴿الأنفال/ ٤١﴾

وكانوا قد تنازعوا الأنفال، وارتفعت أصواتهم فى ذلك ، ففى إيراد الكلام على طريقة الاحتمال إلهاب وتهييج لطاعة أمر الله ورسوله فى الأنفال، وهذا يرد كثيرا فى مقامات الحجاج ، ويكون طريقة من طرائق الإلزام .

٤- قصد التغليب : من ذلك قوله تعالى : وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين " ﴿البقرة/ ٢٣﴾ فالريب متحقق منهم ، غير أنه أورد كلامه على طريقة الاحتمال ، تغليبا لغير المرتابين منهم على المرتابين وفى استخدام (إن) فى آخر الآية (إن كنتم صادقين) تهييج وإلهاب لهم أيضا ، على مقاومة الخصم.

---

١) الفتوحات الإلهية ٤/٧٦ ، ٧٧ .

٥. قصد إجراء الكلام على حسب حال المخاطب ، كأن تقول لمن يشك فى إنجازك الموعد إن صدقتك فماذا تصنع ؟ فالمتكلم جازم بأنه سيصدق، غير أنه أورد كلامه على طريقه الاحتمال ، إيناسا للمخاطب ، وتناسبا مع حاله .

- مجيء فعل الشرط ماضيا وأغراضه :

معلوم أن (إن) و (إذا) للشرط فى الاستقبال ، ومعنى هذا أن الجواب والشرط غير حاصلين ، من أجل ذلك لم يصلح أن يكون الشرط وجوابه اسمين، أو فعلين ماضيين لفظا ومعنى ، لذا قال النحاة إن (إذا) تخلص الماضى للاستقبال ، وفى مجيئه ماضيا لفظا أسرار بلاغية منها :

١) إبهام جعل غير الحاصل كالحاصل من ذلك قوله تعالى : وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا " ﴿الإنسان /٢٠﴾ وقد ذكره الزركشى (١) وذكر هذه الآية الكريمة شاهدا له ، إلا أننى رأيت دارسى البلاغة لم يذكروا شاهدا لإذا فى مثل هذا الموطن ، وذلك لأن إذا داخله على ماض ، وهذا هو الغالب لها ، فلعهم ذكروا شواهد (لإن) لأن هذه النكتة فيها أظهر ، وفائدة التقييد بإذا هنا تدل على " أن رؤية النعيم لا تتخلف عن بصر المبصر هنالك فأفاد معنى لا ترى إلا نعيما أي بخلاف ما يرى فى جهات الدنيا (٢)، ومنه فى إن قولنا : إن طبقنا شرع الله على المسلمين قويت شوكتهم ، فاستخدام الماضى هنا مع إن جعل غير الحاصل حاصلا ، وذلك حين قال هذه العباره فى مقام تأخذ دول الإسلام فى أسباب تطبيق شرع الله .

٢) إظهار رغبة المتكلم فى وقوع الشرط ، من ذلك قوله تعالى " ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا . . " ﴿النور/٣٣﴾ فقال "أردن" ولم يقل

---

١) البرهان ٢/٣٥٨ .

١) التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٩٨٧

يردن إظهارا لتوفير رضا الله ورغبة فى إرادتهن التحصن كما قال الزركشى(١)

٣) قصد التعريض : وذلك يكون بمخاطبة واحد والمراد غيره ومن ذلك قوله تعالى:" ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين " ﴿الزمر/ ٦٥﴾ ، فليس المراد - والله اعلم - الرسول ﷺ ولكن المراد التعريض بغيره ٠

استعمال إذا فى موضع "إن"

ومن ذلك قول قيس :

إذا قلت أسلوها تعرض ذكرها وعودنى من ذاك ما الله اعلم

فمعلوم أنه لا يقول هذا دائما ، وإنما يقول هذا قليلا ، غير أنه أورد المحتمل القليل فى صورة المحقق الكثير ، وإنما أراد إبراز شكواها ، وبيان مزيد حبه لها هذا ولا تكثر الأسرار فى استعمال إذا فى موضع "إن" كثرتها فى استعمال "إن" فى موضع "إذا"٠

تقييد الفعل بـ (لو)

ذكر العلماء أن "لو " تأتى على خمسة أوجه :

أحدها : الامتناعية ، أى حرف امتناع لامتناع ، أي امتناع وقوع الفعل لامتناع وقوع غيره ، من ذلك قوله تعالى : ولو شئنا لرفعناه بها " ﴿الأعراف/ ١٧٦﴾ فمشيئة الله لرفعه منتفية ، ورفعه منتف ٠

الثانى : أن تكون "لو " شرطية ، وعلامتها أن يصلح موضعها "إن" المكسورة وإنما أقيمت مقامها ، لأن فى كل واحدة منهما معنى الشرط ، وهى مثلها فيليها

---

٢) البرهان ٢/٣٥٨.

المستقبل كقوله تعالى : "ولو أعجبك حسنهن . ." ﴿الأحزاب/ ٥٢﴾ وان كان ماضيا لفظا صرفه للاستقبال ، كقوله " ولو كره المشركون" ﴿التوبة/ ٢٣﴾ .

الثالث: لو المصدرية ، وعلامتها أن يصلح موضعها " أن " المفتوحة ، كقوله تعالى : يود أحدهم لو يعمر ألف سنة " ﴿البقره/ ٩٦﴾

الرابع : أن تأتى " لو " للتمنى ، وعلامتها أن يصلح موضعها ليت ، ومنه قوله تعالى "فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين " ﴿الشعراء/١٠٢﴾ ولهذا نصب ، فيكون فى جوابها ، لأنها أفهمت التمنى ، وهذا مما يبحث فى باب الإنشاء ، واستخدام "لو" فى التمنى يشعر بإحالة المتمنى .

الخامس : وهو إفادتها التعليل ، وذكروا من ذلك قوله تعالى : "يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم . . " ﴿النساء/١٣٥﴾ .(١)

هذا ما ذكره الأئمة فى معانى "لو " وهى تحتاج إلى استقراء لموضعها فى الذكر الحكيم ، لاستخراج الأسرار التى من أجلها استعملت "لو" فى هذه المعانى ، وكيف تواصلت مع السياق الذى وردت فيه .

وقد ذكر البلاغيون أن "لو" لا تدخل على الاسم ، ويغلب دخولها على الماضى ويقل دخولها على المضارع ، وقد عنى البلاغيون بذكر أسرار دخولها على المضارع وهى حينئذ تفيد سرين بلاغيين .

أولا : قصد استمرار الفعل فيما مضى وقتا فوقتا من ذلك قوله تعالى :

"واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم. ﴿الحجرات/٧﴾

---

١) انظر البرهان للزركشى ٤/٣٦٣ وما بعدها

وإفادة التجدد تحدث بالتعبير بالمضارع لا بالماضى ، والمعنى حينئذ أن امتناع عنهم بسبب امتناع استمراره على طاعتهم ·

ثانيا : تنزيل المعنى الاستقبالى منزلة الماضى لصدوره عمن لا خلاف فى إظهاره من ذلك قوله تعالى : ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم . . ﴿ السجدة/ ١٢ ﴾ وقد أراد الذكر الحكيم استحضار هذه الصور القبيحة للمجرمين عند المخاطبين تنفيرا له منها ، وتهويلا لشأنها وذلك مما يحث على النفور منها ، ومن ذلك قوله تعالى : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند الله . . ﴿ سبأ/ ٣١ ﴾ ·

وفيها استحضار لصورة رؤية الظالمين حال تناولهم تلك المقالات وتجادلهم وهى صورة بشعة لمحاولة تحميل كل طرف عاقبة ما آل اليه حال الآخر ، وذلك لا يحدث إلا باستخدام الفعل المضارع ، لذا ترى لاستخدامه أثرا بالغا فى مقامات الترهيب وذكر مواقف الحساب والعذاب ، تأمل كيف يريك الفعل المضارع أهل النار واقفين على شطيرها ، يطغى عليهم الندم وتحيط بهم الحسرة فى قوله تعالى:" ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴿ الأنعام/ ٢٧ ﴾ فدخول لو على الفعل المضارع جعل الصورة محققة الوقوع، وبث فيها الحياة والحركة ·

الفصل الرابع

أحوال متعلقات الفعل

هذا المبحث من أحوال المسند ، وقد خصه البلاغيون بمبحث لكثرة الكلام فيه ، والمذكور من أحوال المتعلقات بعضها ، كما ذكر سعد الدين التفتازانى (١) – رحمه الله – معلقا على قول الخطيب أنه أراد بالأحوال بعضها ، فقد تناولوا من أحوال المتعلقات حذف المفعول به وتقديمه على الفعل ،وتقديم بعض المتعلقات على بعض ، ولا يعنى ذلك أن بقية المباحث فى المتعلقات ليست وراءها أسرار بلاغية ، وإنما تناول حديثهم الشائع من مباحث الباب والذى تكاثر وراءه الأسرار البلاغية وتكثر مواقعه فى كلام العرب ٠

والحديث عن أحوال المتعلقات حديث ممتد بسيط ،وذلك لأمر ظاهر هو أن متعلقات الفعل كثيرة فمنها الظرف والجار والمجرور والحال والتمييز والتوكيد ٠ وغير ذلك مما يمكن أن يكون له اعتلاق بالفعل وتدبر مطارح هذه الكلمات فى كلام العرب ، وفقه أحوالها عند أهل اللسان باب عظيم النفع دقيق المسلك ، لطيف المأخذ، لأن كلمة كل ذى بيان تأتى رمزا لأحوال نفسه وهوامسها وللفاقهين أسرار اللسان كلف بتتبع وكشف غوامض هذه الرموز التى لا يقصد بها تعمية المعانى والإلغاز فيها – كحال المفسدين للبيان من أهل زماننا –وإنما يقصد بها كسوة المعانى أبهة وجمالا ونضارة وجلالا ، لأن كل ذى بيان يريد أن يكتب لبيانه الخلود، وأن ينشر تاريخ هواجس نفسه على مر الزمان يدافع عواديه٠

وحديثنا عن أحوال متعلقات الفعل ، وان كان يتخذ من كلام الخطيب القزوينى منطلقا له إلا أن ذلك لن يمنعه من اقتطاف جنى عقول اخلصت فى إيفاء هذا العلم حقه ،واستنباطات وراءها من الكد والعناء ما يكشف عن إخلاص

---

١) انظر المطول ١٩٠

ذويها النصح لهذه اللغة الشريفة ، تمضى هذه الدراسة تتقلب فى رياض كلام الله وبيان أهل اللسان ، وقد تلجأ إلى مثال صناعى تهدف منه إلى إيضاح وجه بلاغى • ومن الله وحده الرشاد وإليه الملجأ •

حذف المفعول :

حديث البلاغيين لا يتناول الفعل اللازم ،وإنما يتناول الفعل المتعدى ولا يعنى ذلك إسقاط الكلام فى المتعلق إذا كان ظرفا أو غير ذلك كما قلت ، وإنما يعنى ذلك تناولهم لما تكثر وراءه الأسرار ويأتى حذف المفعول فى كلام العرب على ضربين :

الضرب الأول :

ويجئ هذا الضرب فى كلام العرب دالا على أن المتكلم أراد بالحذف إثبات المعنى فى نفسه للفاعل أو نفيه عنه على الإطلاق من غير اعتبار عموم وخصوص فى الفعل أو تعيين لمفعول بعينه (١)، فأنت فى هذا الضرب تحذف المفعول وتجعله نسيا منسيا ، تحصر القصد فى إثبات الفعل للفاعل من غير تعيين فرد من أفراده أو تخصيص فرد (٢)

وكأنك نقلت الفعل من واد الأفعال المتعدية إلى وادى الأفعال اللازمة فكان متعديا بوضعه اللغوى ، لازما فى الأسلوب البلاغى ، وبعد أن كانت تمتد يده للمفعول به فتعمل فيه النصب ، قطعت يده وجعلته بمنزلة القاصر•

قال الزركشى(٣) رحمه الله • والشرط فى هذا الضرب ألا ترى له مفعولا لالفظا ولا تقديرا ، كما يقول الإمام عبد القاهر "اعلم أن أغراض الناس تختلف فى

---

١) انظر الإيضاح للقزوينى ٢١٥/١، ٢١٦.

٢) انظر الإشارات والتنبيهات ٨١.

٣)انظر البرهان للزركشى ١٧٥/٣ وما بعدها •

ذكر الأفعال المتعدية ، فهم يذكرونها تارة ومرادهم أن يقتصروا على إثبات المعانى التى اشتقت منها للفاعلين من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين ، فإذا كان الأمر كذلك كان الفعل المتعدى كغير المتعدى مثلا ، فى أنك لا ترى له مفعولا لا لفظا ولا تقديرا (١)

ومن المثل التى أوردها البلاغيون تجلية لهذه القاعدة قول الناس : فلان يحل ويعقد ، ويأمر وينهى ، ويضر وينفع ، وكقولهم هو يعطى ويجزل ، ويقرى ويضيف ،والملحوظ أن المفاعيل فى هذه المثل غير موجودة ، والافعال هذه متعدية ، فكأن تعريتها من مفاعيلها من غير تقدير لها يجعل القارىء يفهم أن الغرض إثبات الفعل عموما إلى الفاعل ، فكأنه صار إليه كل حل وعقد ، وأمر ونهى ، وضر ونفع ،وإعطاء وإجزال . . من غير النص على شىء معين ، مما يمكن أن تدل عليه هذه الأفعال ، وهو فى بيان الناس على سبيل الدعوى فهم يقولون هذا مثلا عندما يشتهر أحد الناس بهذه الصفات من حل وعقد إلى آخره ، فكان كل حل وعقد من غيره لا يعتد به ولا يلتفت إليه .

"ومما يظهر فيه هذا المعنى قول سعد بن أبى وقاص لابن أخيه هشام بن عتبة – وكان سعد قد اعتزل الفتنة – فقال له هشام : ههنا مائة ألف سيف يرونك أحق بهذا الأمر ، فقال سعد : أريد منها سيفا واحدا إذا ضربت به المؤمن لم يقطع شيئا ، وإذا ضربت به الكافر قطع ، المراد يكون منه قطع من غير نظر إلى من يقطعه ، أى أنه حين يعمله فى الكافرين يكون له فعل ، وحين يعمله فى المؤمنين يبطل فعله (٢)

ومنه قول أبى العتاهية :

---

١) دلائل الإعجاز ١٥٤.

٢)خصائص التراكيب ٢٧٤.

هـــى الــدنيا إذ كملت   وتم ســـــرورها خــذلت

وتفـــعل فـــى الذين بقوا   كما فيمن مضـــى فعلت (١)

فقد حذف المفعول به من قوله (خذلت) والغرض إثبات الخذلان للدنيا من غير نص على مخذولين مخصوصين ، وحذف المفعول بـه فـى هـذا الموضـع هـو الألصق بمقام التحذير من الدنيا.

ومنه قوله أيضا :

الناس فـــــى غفلاتهم   ورحـــى المنية تطحن (٢)

فقد حذف المفعول به ، والمراد إثبات الطحن لرحى المنية من غير نص على مطحونين ،ومنه قول أبى منصور الفقيه :

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأسرفوا   فى الموت ألف فضيلة لا تعرف

منـــــها أمان لقائه بلقائه   وفراق كل معاشر لاينصف (٣)

فالمراد كل معاشر لا يكون منه إنصاف من غير نظر إلى من ينصف ومن هذا الضرب قوله تعالى: قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴿الزمر/ ٩﴾ والمعنى : هل يستوى من له علم ، ومن لا علم له من غير أن يقصد النص على معلوم كما قال الإمام عبد القاهر رحمه الله (٤)

وقرائن المقال فىالسورة الكريمة دالة على أن المراد العلم بـالدين ولكن الكلام جاء على الحذف لبيان أن العلم بـالدين هـو العلم ، لاسيما أن السـورة الكريمـة تكرر فيها الحديث عن إخلاص الدين لله مـن مثـل قولـه : فـاعبد الله مخـــلصا له الدين ٠ الا لله الدين الخالص ﴿الزمر/ ٢, ٣﴾ " قل إني أخاف إن

---

١) العقد الفريد ٣/١٧٤.

٢) السابق ٣/١٧٤.

٣) التمثيل والمحاضره للثعالبى ٤٠٦.

٤) انظر دلائل الإعجاز ١٥٤.

عصيت ربى عذاب يوم عظيم • قل الله أعبد مخلصا له دينى ﴿ الزمر/ ١٣، ١٤ ﴾ وقد جاءت الجملة محل الحذف فى سياق قوله : " أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴿ الزمر/ ٩ ﴾ فظاهر الحديث أنه يتوجه بالخطاب نحو المقربين ولذا اختار آناء الليل زمانا ، ووصف القائم فيه بأنه "قانتا " واصطفى تقديم السجود على القيام لأنه الأعلى فى الدلالة على القرب دل كل ذلك على أن المراد بالعلم علم الدين • فقد سار الفعل سير اللازم لبيان أنه لا اعتداد بغير العلم بالدين •

ومن هذا الضرب قوله تعالى: " هو الذى يحيى ويميت ﴿ غافر/ ٦٨ ﴾ أى الذى منه الإحياء والإماتة ، ولو جاء النص على المفعول فى هذا الموضع لذهب بهاء المعنى ، لأن المراد بيان أنه المحيى والمميت من غير إحياء ولا إماتة لمخصوصين •

ومنه قوله تعالى : وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ،وأنه هو أغنى وأقنى " ﴿ النجم /٤٣، ٤٤، ٤٨ ﴾ فالملحوظ أن المفاعيل قد حذفت فى كل هذه الآيات ، لأن القصد فى الآيات أن تثبت المعنى فى نفسه فعلا للشىء ، وتعدية الفعل هنا تنقض الغرض ، وتغير المعنى كما قال الإمام عبد القاهر(١) رحمه الله •

ومن هذا الضرب قوله تعالى: فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة "﴿ البقرة/ ٥ ﴾

فليس فى الآية نص على مفعول لالفظا ولا تقديرا ، وهو الألصق بهذا المقام ، لأن الغرض نفى أي فعل منهم بهذا الشأن ،وليس الغرض نفى الفعل واقعا على مفعول معين •

ومن هذا الضرب أيضا قولــــه تعالى : "قد علم كل أناس مشربهم كلوا

---

١) انظر دلائل الإعجاز ١٥٤، ١٥٥ .

واشربوا ﴿البقرة/ ٦٠﴾ ، لأنه لم يرد الأكل من معين ، وإنمـــا أراد وقوع هذين الفعلين ، ومما جاء مثالا لهذا الضرب في النفي قوله تعالى: وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴿البقرة /١٧٠﴾ لأن المراد نفي إبصار كل شيء ، لأن القصد تعميم الفعل ، ومنه قوله تعالى : " لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ﴿مريم / ٤٢﴾ فلم ينص على المسموع ولا المبصر لعدم تعلق المعنى به ، ولأن الغرض بيان انعدام سمعه وبصره ،وذلك هو الأعلى في الدلالة على عجز المعبود من دون الله .

ومنه أيضا قوله تعالى : (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكمـا قالتـا لا نسقي حتى يصدر الرعاء " ﴿القصص /٢٣﴾ فقد حذف المفعول خمس مرات ، لأنه غير مراد ، فقد حذف المسقى من قوله : (يسقون) والمذود من قوله (تذودان) أي تمنعان ، والمسقى والمصدر من قوله : " لانسقي حتى يصدر الرعـاء " أي مواشيهم والمسقى من قوله :(فسقى لهما) أي غنمهما .

قيل : لو ذكر المفعول فيها نقص المعنى ، والمراد أن الله - تعالى - له الإحياء والإماتة ، وأن إلههم ليس له سمع ولا بصر، وأن موسى - عليه السلام - وجد قوما يعانون السقي ، وامرأتين تعانيان الذود وأخبرتاه أنا لا نستطيع السقي ، فوجدا من موسى - عليه السلام - لهما السقي ،ووجد من أبيهما مكافأة على السقي وهذا مما حذف لظهور المراد ، وأن القصد الإعلام بأنه كان من الناس في تلك الحالة سقي ، ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا : لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء ، وأن موسى سقى بعد ذلك ، فأما أن المسقي غنم أو إبل فخارج عن المقصود ، لأنه لو قيل : يذودان غنمهما لجاز أن يكون الإنكار لم يتوجه من موسى على الذود من حيث هو ذود ، بل من حيث هو ذود غنم حتى لو كان ذود ابل لم ينكره (١)، قال الزمخشري - رحمه الله - ترك المفعول لأن الغرض هو الفعل لا

---

١) انظر البرهان الزركشي ١٧٧/٣.

المفعول ، ألا ترى أنه إنما رحمهما ، لأنهما كانتا على الذياد ،وهم على السقى ، ولم يرحمهما ، لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل "٠

ومنه أيضا قوله تعالى : فأما من أعطى واتقى " ﴿الليل/ ٥﴾ لأن المراد مطلق الإعطاء ومطلق الاتقاء ،ولقصد التعميم فى الفعل حتى يشمل كل معط وكل متق ومنه قوله تعالى: "كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون" ﴿التكاثر/ ٣, ٤﴾ ، أى سوف تعلمون عاقبة أمركم ،ولكن جاء بناء الجملة على حذف المفعول به لأن سياق القول فى التهديد والوعيد ٠

ومن هذا الضرب ما تمثل به الطوفى فى الإكسير:

وارفع وضع واعتزم واقمع وضر وصل   واقطع وقم وانقم واصفح وخذ وهب(١)

فقد حذفت المفاعيل لأن مراد الشاعر لا يتعلق بمفعولين مخصوصين ، وإنما ينحصر المراد فى إثبات معنى هذه الأفعال لفاعليها ، وإن كنا لا نرتضى الاستشهاد بهذا البيت إلا أنا قد جئنا به لما فيه من حشد الجمل واعلم أن قولك : أن المفعول به حذف لتوفر غرض القائل على إثبات معنى الفعل للفاعل ليس وراءه كبير فائدة ، وإنما الفائدة فى كشف وبيان الغرض من إثبات معنى الفعل للفاعل ، وكيف جاء متنزلا على مقامات يجب أن تشرح وتوضح ٠

تنـــــــبيه :

جعل الخطيب القزوينى الضرب الماضى قسمين : *أولهما* ما سبق بيانه والملحوظ فى شواهده أن الفعل جاء مرادا به الإطلاق ،ولم يكن كناية عن الفعل متعلقا بمفعول مخصوص ، فليس المراد فى قوله تعالى : " هو الذى يحيى ويميت "

---

١) الإكسير فى علم التفسير للطوفى ١٨٤ .

إحياء معينا ، ولا إماته معينة ،ولا أحياء معينين . .

والقسم الثاني : هو أن يكون الفعل مطلقا كناية عن نفسه متعلقا بمفعول مخصوص فمناط الفرق في التعلق بمفعول مخصوص دلت عليه القرائن (١)

وقد مثلوا لهذا القسم بقول البحتري :

شجو حساده وغيظ عداه أن يرى مبصر ويسمع واعٍ

والمعنى لا محالة : أن يرى مبصر محاسنه ،ويسمع واعٍ أخبارَه وأوصافه ولكنك تعلم على ذلك أنه كأنه يسرق علم ذلك من نفسه ،ويدفع صورته عن وهمه ، ليحصل له معنى شريف وغرض خاص ، وذلك أنه يمدح خليفة وهو المعز، ويعرض بخليفة وهو المستعين ، فأراد أن يقول : إن محاسن المعتز وفضائله المحاسن يكفى فيها أن يقع عليها بصره ، ويعيها سمع حتى يعلم أنه المستحق للخلافة ، والفرد الوحيد الذى ليس لأحد أن ينازعه مرتبتها ، فأنت ترى حساده، وليس شيء أشجى لهم ، وأغيظ من علمهم بأن ههنا مبصرا يرى وسامعا يعى، حتى ليتمنون ألا يكون فى الدنيا من له عين يبصر بها ،وأذن يعى معها ، كى يخفى مكان استحقاق لشرف الإمامة فيجدوا بذلك سبيلا إلى منازعته إياها "(٢) .

فقد ذكر الفعل وفى نفس المتكلم له مفعول مخصوص قد علم مكانه، أما يجرى ذكر ،أو دليل حال إلا أن تجتهد فى أن تنسيه نفسك ،وتخفيه وتوهم أنك لم تذكر ذلك الفعل إلا لأن تثبت نفس معناه ، من غير أن تعديه إلى شيء، أو تعرض فيه لمفعول (٣) فكما ترى كلام الإمام عبد القاهر ينبهنا إلى دقة الفرق وخفائه بين القسمين من هذا الضرب ، فالمفعول فى القسم الأول لا سبيل إلى تعيينه ، وفى

---

١) انظر الإيضاح ٢١٦/١.

٢)دلائل الإعجاز ١٥٦، والإيضاح ٢١٧/١.

٣) السابق ١٥٥.

القسم الثانى هو معلوم ،لكن المقام يقتضى أن تنسيه نفسك وقد جعل الإمام عبد القاهر القسم الثانى نوعين : خفيا وجليا ، فالجلى هو ما يدل بنفسه على مفعوله كقولنا أصغيت إليه ، أى أصغيت أذنى إليه ، وأغضيت عليه والمعنى جفنى والمفعول حينئذ يحذف لكونه جليا (١) ، ومثال قول البحترى السابق ٠ ومما هو ظاهر فى هذا الباب قولهم : عَيْنٌ عَرَفَت فذرَفَت (٢)فدل الفعل على أن المفعول به هو الدمع إذ لا تذرف العين إلا دمعا لكنه حذفه لدلالة المقام عليه ، وكذلك مفعول قوله عرفت أى : عرفت ربها ٠

ومنه أيضا قول البحترى

لو قِيلَ للمجد انتسبْ إلى امرِىءٍ لم تلقه إلا إليه يَنْتَسِب
ليت وغيث وجواد ماجدٌ كفاهُ تحبو بالأموال وتهب(٣)

فالمراد تهب الأموال ، ولا تقل إن بناء الشعر هو الذى اقتضى حذف المفعول ، ولكن المراد أن تجتهد فى أن تنسى المفعول نفسك ، فالمقام مقام مدح ، وفى حذف الفعل دلالة على التعميم ، فقوله تهب تناول كل موهوب ، ومنه قول عمرو بن معد يكرب :

فَلَوَ أَنَّ قومي أنطقتني رِمَاحُهُم نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتِ

"أجرت" فعل متعد ، ومعلوم أنه لو عداه لما عداه إلا إلى ضمير المتكلم نحو" ولكن الرماح أجرتنى" وأنه لا يتصور أن يكون ههنا شىء آخر يتعدى إليه ، لاستحالة أن يقول : " فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم " ثم يقول " "ولكن الرماح أجرت غيرى " إلا أنك تجد المعنى يلزمك أن لا تنطق بهذا المفعول ولا تخرجه إلى لفظك، والسبب فى ذلك أن تعديتك له توهم ما هو خلاف الغرض ،وذلك أن .

١) نهاية الإيجاز للفخر الرازى ٢٤١ .
٢) التمثيل والمحاضرة للثعالبى ١٧٠ .
٣) ديوان البحترى ١/ ١٥٥ .

الغرض هو أن يثبت أنه كان من الرماح إجرار ،وحبس للألسن عن النطق ، وأن يصحح وجود ذلك ، ولو قال : (أجرتني)جاز أن يتوهم أنه لم يعن بأن يثبت للرماح إجرارا ، بل الذى عناه أن يبين أنها أجرته ، فقد يذكر الفعل كثيرا ، والغرض منه ذكر المفعول مثاله أنك تقول : " أضربت زيدا ؟ " وأنت لا تنكر أن يكون كان من المخاطب ضرب ، وإنما تنكر أن يكون وقع الضرب منه على زيد ، وأن يستجيز ذلك أو يستطيعه ، فلما كان فى تعدية " أجرت " ما يوهم ذلك وقتا فلم يعد ألبتة ولم ينطق بالمفعول ، لتخلص العناية لإثبات الإجرار للرماح ، وتصحيح أنه كان منها ، وتسليم بكليتها لذلك (١) .

ومنه قول طفيل الغنوى لبنى جعفر بن كلاب ،وقد ورد أن أبا بكر الصديق لما تشاغل بأهل الردة استبطأته الأنصار فكلموه ، فقال أما كلفتمونى أخلاق رسول الله ، فوالله ما ذاك عندى ،ولا عند أحد من الناس ، ولكنى والله ما أوتى من مودة لكم ، ولا حسن رأى فيكم ، وكيف لا نحبكم ، فوالله ما وجدت مثلا لنا ولكم إلا ما قال طفيل الغنوى لبني جعفر بن كلاب :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت ... بنا نعلنا فى الواطئين فزلت

أبوا أن يملونا ،ولو أن أمنا ... تلاقى الذى لا قوه منا لملت

هم خلطونا بالنفوس وألجأوا ... إلى حجرات أدفأت وأظلت

فيها حذف مفعول مقصود قصده فى أربعة مواضع قوله : "لملت" و "ألجأوا" و" أدفأت" و " أظلت " لأن الأصل" لملتنا وألجأونا إلى حجرات أدفأتنا وأظلتنا " ، إلا أن المفعول فى حد المتناسى ، حتى كأن لا قصد إلى

---

١) دلائل الإعجاز ص ١٥٧ واجر الفصيل ، شق لسانه ، ووضع فيه عودا لئلا يرضع أمه ،ويعنى عمرو أن قومه لم يبلوا بلاء حسنا فى حربهم ، ولو احسنوا البلاء لنطق بمدحهم، ولكنهم أساءوا ، فكانت إساءتهم قاطعة للسانه فبقى لا ينطق .

مفعول ، وكأن الفعل قد أبهم أمره ، فلم يقصد به قصد شيء يقع عليه (١)

ومنه قول البحترى أيضا ، وقد أولاه الشيخ عبد القاهر مزيد اهتمام :

إذا بعدت أبلت وإن قربت شفت فهجرانها يبلى ، ولقيانها يشفى

قد علم أن المعنى: إذا بعدت عنى أبلتنى ، وإن قربت منى شفتنى إلا أنك تجد الشعر يأبى ذكر ذلك ، ويوجب اطراحه ، وذاك لأنه أراد أن يجعل البلى كأنه واجب فى بعادها أن يوجبه ويجلبه ، وكأنه كالطبيعة فيه ، وكذلك حال الشفاء مع القرب ، حتى كأنه قال أتدرى ما بعادها ؟ هو الداء المضنى، وما قربها ؟ هو الشفاء والبرء من كل داء ولا سبيل لك إلى هذه اللطيفة وهذه النكتة إلا بحذف المفعول ألبتة، وليس لنتائج هذا الحذف (حذف المفعول) نهاية ، فإنه طريق إلى ضروب من الصنعة وإلى لطائف لا تحصى (٢)" ومراد عبد القاهر أن تستخرج أسرار الحذف وأن يعلل لكل مثال بما يتناسب وسياقه ومقامه .

الضرب الثانى :

وهو أن يكون الغرض إفادة تعلقه بمفعول ، فيجب تقديره بحسب القرائن (٣) الدالة على تعين ذلك المفعول ، فإن كان المدلول عليه عاما قدرت اللفظ الدال عليه عاما ،وإن كان خاصا قدر اللفظ خاصا ،وجمع القرائن باعتبار الأماكن ، وإلا فقد يكون الدال قرينة واحدة ، ثم المفعول حيث أريد ، ولو حذف للقرينه لابد له من سر موجب للمحذوف كما تقدم أن المحذوف بعد دلالته القرينية عليه يحتاج فى باب البلاغة إلى فرض موجب لحذفه (٤)

وقـــد ذكر البلاغيون عدة أغراض للحذف فى هذا الموضوع الذى سماه

١) السابق ١٥٨، ١٥٨ ، الإيضاح ١/٢١٨، ٢١٩ .

٢)دلائل الإعجاز ١٦٢، ١٦٣ .

٣) الإيضاح ١/ ٢١٩ .

٤) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ٢/١٣٠، ١٣١ .

عبد القاهر" الإضمار على شريطة التفسير "(١) ومجمل ما ذكروه من الأغراض مايلى :

١- البيان بعد الإبهام:

وهو أنه يقصد بالحذف إبهام المعنى لتوضيحه بما يرد بعد المحذوف "وبناء الكلام على الإيضاح بعد الإبهام من أبرز المزايا البلاغية فى صياغة العبارة ،وأمسها بطبائع النفس ، فقد فطر الله الناس على التعلق بما يجهلون مما يلوح لهم منه طرف من العلم والانكشاف ، أما ما لا يلوح منه هذا الطرف فإن الناس فى غفلة عنه ، والأسلوب المختار هو الذى يهتدى إلى فطرة هذه النفس، ويأتيها من جهتها، وحينئذ يمتلك زمامها ، وتسلس له قيادها (٢)

ومما هو شائع فى هذا الغرض الاستشهاد بفعل المشيئة والإرادة إذا لم يكن فى تعلقهما بمفعولهما غرابة ، فإن كان فى تعلقه غرابة فيجب أن يذكر وذلك كقوله تعالى : لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه ﴿الزمر/٤﴾ ، أراد رد قول الكفار " اتخذ الله ولدا " بما يطابقه فى اللفظ ، ليكون أبلغ فى الرد لأنه لو حذفه فقال : (لو أراد الله لاصطفى) لم يظهر المعنى المراد ، لأن الاصطفاء قد لا يكون بمعنى التبنى ، ولو قال : لو أراد الله لاتخذ ولدا لم يكن فيه ما فى إظهاره من تعظيم جرم قائله •

وكذلك لا يحذف إذا احتيج لعود الضمير عليه كقوله : لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه - ﴿الأنبياء ١٧﴾ ، فإنه لو حذف لم يبق للضمير ما يرجع عليه ، وكذلك لا يحذف إذا كان السامع منكرا لذلك أو كالمنكر ، والحاصل أن حذف مفعول " أراد " و " شاء" لا يذكر إلا لأحد هذه الثلاثة (٣) .

---

١) دلائل الإعجاز ١٦٣،ونهاية الإيجاز للرازى ٢٤١ .

٢)خصائص التراكيب د/ابو موسى ص ٢٧٩ .

٣) انظر البرهان للزركشى ٣/١٧٠، ١٧١ .

وما يساق مثلا لهذا الغرض قول البحتري :

يَا يُوسُفَ بْنَ أَبِي سَعِيدٍ وَالغِنَى ... لِلمُعْفِدِ العَزَمَاتِ غَيْرُ مُسَاعِدِ

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم ... كـــرما ولم تهدم مآثر خالـدِ

يقول الإمام عبد القاهر : فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت " لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها" صرت إلى كلام غث وإلى شيء يمجه السمع وتعافه النفس ، وذلك أن في البيان ، إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له ، أبدا عطفا ونبلا لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك وأنت إذا قلت : (لو شئت) علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة في المعنى بشيء ، فهو يضع في نفسه أن ههنا شيئا تقتضي مشيئته له أن يكون أو أن لا يكون ، فإذا قلت : (لم تفسد سماحة حاتم) عرف ذلك الشيء"(١) وفي هذا البناء تحريك لعقل السامع ، وإثاره لنفسه حتى يتابع المتكلم فما يريد إبلاغه ، فيكون ذلك أدعى إلى رسوخ المعنى في النفس .

ومنه أيضا قول طرفة :

فإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت ... مخافة ملوى من القد محصد

وطرفة يصف قياده لناقته فهو إن شاء جعلها لا تسرع ، وإن شاء جعلها تسرع لخوفها من سوطه المصنوع من الجلد المشقوق المحكم الفتل ، فقد حذف مفعول المشيئة ثم أبان عنه فكان ذلك أوقع في النفس ، إذ جاء ذكره بعد ترقب النفس له .

ومنه قول عبد الله بن شبرمة القاضي الفقيه في ناسك يسمى كرزا ، وكان كرز يختم القرآن في كل يوم وليلة ثلاث ختمات ، وفي محمد بن طارق وكان يطوف في كل يوم وليلة سبعين أسبوعا ، كان يقدر طوافه في اليوم عشر فراسخ .

---

١) دلائل الإعجاز ١٦٣، ١٦٤.

لو شئت كنت ككرز في عبادته أو كابن طارق حول البيت والحرم (١)

"أراد لو شئت أن أكون ككرز ،ولكنه حذف فأبهم ثم ذكر فأوضح ، فحسنت عبارته ، وجاء كلامه صافيا بريئا من الفضول"(٢)

ومنه قول البحتري :

لو شئت عدت بلاد نجد عودة فحللت بين عقيقه وزروده

ومعلوم أنك لو قلت : (لو شئت أن تعود بلاد نجدة عودة عدتها) أذهبت الماء والرونق ، وخرجت إلى كلام غث ولفظ رث (٣) وذلك لأن ذكر المفعول حينئذ فضول في الكلام ، لأن ما بعده تفسير له ، وقد فاتت نكتة أخرى بالذكر أيضا ، هو أنك لم تدع للسامع مجالات للتفكير ،وأسقطت مشاركته إياك في توليد الأفكار، وهي دعوى لتعطيل العقول ،وتعويدها التلقين ، فعمل البلاغة التقاط جنى العقول ،وفقه أحوال البيان وأنفس بانيها ، لأن كلمة الرجل قطعة منه فكما ترى ذكر المفعول ههنا يخرج الكلام عن حد البلاغة لخلوه من دواعي التدبر والتفقه ، وحذفه أدخله في حد البلاغة لحاجته إلى ما مضى .

"ولقد تكاثر هذا الحذف في "شاء" و "أراد " حتى إنهم لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب "(٤) . وفي حالتين أخريين كما سبق بيانه وذكر المفعول في هذا الموضع هو الذي يناسب هذه اللغة الشريفة ، فكما أن في أبنيتها دعوة للفقه والتدبر وإعمال العقل ، فإن في أبنيتها ما يعصم العقول من الغلط في الاستنباط ، لأن العقول قد تغلط في الاستنباط عندما يستغرب ،وذلك لخفاء القرينة الدالة على المحذوف أو لغيابها .

١) دلائل الإعجاز ١٦٥.

٢) خصائص التراكيب ٢٨٠ .

٣) دلائل الإعجاز ١٦٦، ١٦٧ .

٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٢٩٤/٢.

يقول الإمام عبد القاهر: "وقد يتفق فى بعضه أن يكون إظهار المفعول هو الأحسن ، وذلك نحو قول الشاعر (وهو الخريمي إسحاق بن حسان السعدى ، يرثى عثمان بن عامر بن عمارة بن خريم الذبياني أحد قواد الرشيد)

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبكى دماً لبكيتُه عَلَيْهِ وَلَكِن سَاحَةَ الصَّبْرِ أوسعُ

فقياس هذا لو كان على حد " وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى" ﴿الأنعام /٣٥﴾ أو على قياسه فى حذف مفعول المشيئة) أن يقول (لو شئت بكيت دما) ولكنه كأنه ترك تلك الطريقة وعدل إلى هذه لأنها أحسن فى هذا الكلام خصوصا، وسبب حسنه أنه كأنه بدع عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكى دما ، فلما كان كذلك ، كان الأولى أن يصرح بذكره ليقرره فى نفس السامع ويؤنسه به ، وإذا استقريت وجدت الأمر كذلك أبدا متى كان مفعول المشيئة أمرا عظيما ، أو بديعا غريبا ، كان الأحسن أن يذكر ولا يضمر (١)

وقد نجد الشاعر يذكر مفعول المشيئة ،وليس مستغربا ، وإنما لأن الواقع بعده لا يوضحه أي لا يدل عليه ، لأنه ليس من نوعه ، والحذف والحالة هذه تعمية وإلغاز ، والإبهام والخفاء الذى نحبه ونعده مزية فى لغة الشعر والأدب ، ليس هو الإلغاز والتعمية ، وإنما هو أن تستشرف المعنى الذى يلوح لك من بعيد، وحوله غيوم بيضاء ، أو تلفه أقنعة رقاق تخفى عنك منه جانبا ، وتبدى لك آخر ، فتظل مشغوفا به مولعا بالقرب منه مندفعا إلى معرفته ، وفى ذلك متعة الفن والأدب ، ومما جاء على هذه الطريقة التى يذكر الشاعر فيها مفعول المشيئة ، وليس مستغربا ، ولكن لأن الواقع بعده لا يوضحه قول أبى الحسن على بن أحمد:

فَلَمْ يُبْقِ مِنِّى الشَّوْقُ غَيْرَ تَفَكُّرِى فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِى بَكَيْتُ تَفَكُّرَا

لم يقل فلو شئت بكيت فكرا ، لأنه لو قال ذلك لأفاد التركيب أنه حينما

---

١) دلائل الإعجاز ١٦٤ ، ١٦٥ .

يشاء بكاء التفكر يبكى التفكر، وليس هذا مراد الشاعر"(١) وإنما مراده ما ذكر الإمام عبد القاهر فى قوله "أراد أن يقول:قد أفناني النحول ، فلم يبق منى وفى غير خواطر تجول،حتى لو شئت بكاء فمريت شؤونى (الشئون هى مجارى الدمع فى العين) وعصرت عينى ليسيل منها دمع لم أجده ، ولخرج بدل الدمع التفكر ، فالبكاء الذى أراد إيقاع المشيئة عليه مطلق مبهم غير معدى إلى التفكر،وإذا كان الأمر كذلك صار الثانى كأنه شىء غير الأول ، وجرى مجرى أن تقول : (لو شئت أن تعطى درهما أعطيت درهمين) فى أن الثاني لا يصلح أن يكون . تفسيرا للأول (٢) .

والفرق بين هاتين الطريقتين فى بيتى أبى الحسن والخريمى فرق دقيق جدا، لأن المذكور فى بيت الخريمى يدل على المفعول لو حذف ، وشرحه أنه لو حذف المفعول لقلنا : ولو شئت لبكيت دما ولكن ساحة الصبر .... مع تدبر أننا ذكرنا الظاهر (دما) لأنه لم يسبق له ذكر فى هذا التركيب ، فلا يجوز إضمار من غير ذكر سابق ،وإنما ذكر فعل المشيئة لغرابته ، مع قيام القرينة الدالة على المحذوف ، إلا أنه ذكر لأنه بدع عظيم أن يبكى دما كما قال الإمام عبد القاهر -رحمه الله - أما قول أبى الحسن ، فليس فيه ما فى قول الخريمى من صحة تفسير ما بعد المفعول لما قبله ، فليس مراد الشاعر أن يقول : لو شئت أن أبكى تفكرا بكيت فكرا وإنما مراده لو شئت أن أبكى البكاء الحقيقى، فالمراد بالبكاء فى الأول البكاء الحقيقى ، وفى الثانى المجازى إشارة إلى أنه من النحول لم يبق فيه محل لدمعه ، ولا يستقيم التفسير عند اختلاف المعنى ولا يجوز أن يكون ، فلو شئت أن أبكى تفكرا بكيت فكرا ، على أن المعنى : أنه فنى حتى صار قادرا على البكاء التفكرى ، فيكون كالبيت قبله وذلك لأمر ظاهر هو أن التفكر غير

١) خصائص التراكيب ٢٨٢.

٢) دلائل الإعجاز ١٦٧.

مذكور فى الشرط ، ولا يقال : أن قوله : (غير تمكرى) يغنى عن الشرط ، لأنه يكون محذوفا وتنازع فى تمكر المذكور فصلا الشرط وجوابه (شئت - ولبكيت)، قاله ابن السبكى (١)

والذى نبه إلى هذا الفرق الدقيق بين الطريقين هو الإمام عبد القاهر بقوله فى البيت الأول : إن الحسن يرجع فى ذكر المفعول إلى غرابته ، وفى الثانى يرجع إلى عدم صلاحية تفسير المعنى الأول ، وتابعه الخطيب وكثير من أهل العلم (٢)٠

وقد اشتجر الخلاف حول هذا البيت ، بل جعل بعضهم البيت من قبيل حذف المفعول (أبكى) وليس كذلك ، لأن المراد مطلق البكاء ، والتركيب : ولو شئت بكاء لبكيت تمكرا ٠

الخلاصة أن البيت من قبيل ما ذكر فيه مفعول المشيئة لغرابته ، لأن ترتب هذا الكلام على قوله : فلم يبق منى الشوق غير تمكرى ، يأبى هذا المعنى عند التأمل الصادق وذلك لأمر ظاهر هو أن المبالغة المناسبة لهذا المعنى ليس فى بيان أنه يبكى تمكرا مع قدرته على بكاء الدمع ، وإنما المبالغة فى نفى وجود قدرة على البكاء ، والفرق دقيق كما ترى ٠

وقد ذكر ابن السبكى لطيفه فى هذا الموضع فيما أورده : " قد يقال : ما الحكمة فى اطراد أو كثرة حذف مفعول المشيئة دون غيره من الأفعال ؟ فالجواب أن المشيئة يلزم من وجودها وجود الشىء ، وإذا كان كذلك فالمشيئة المستلزمة لمضـــمون الجواب ، لا يمكن أن تكون إلا مشيئة الجواب ، ولذلك كانت الإرادة

---

١) انظر عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ١٣٣/٢ وما بعدها .

٢) راجع دلائل الإعجاز ١٦٤، ١٦٧ والإيضاح ٢٢/١ ومختصر السعد ١٢٣ والمطول ١٩٣، ١٩٤ ومواهب الفتاح ١٣٤/٢ وما بعدها وعروس الأفراح ١٣٣/٢ وما بعدها وخصائص التراكيب ٢٨٢، من بلاغة النظم العربى د/ عبد العزيز عرفة ٢٩٠/١.

كالمشيئة فى جواب اطراد حذف مفعولها (١)

وخلاصه كلامه هذا النفيس أن هذا الفعل اختص بهذه الميزة لأمر ظاهر هو مصاحبته غالبا لقرينة دالة على المحذوف مفسرة له ، وذلك ما تقتضيه طبيعة مادته ودلالتها حسب ما ورد فى بيان أهل اللسان ٠

ومن شواهدا البلاغيين لحذف مفعول المشيئة للإيضاح بعد الإبهام فى القرآن الكريم قوله تعالى : " فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٢) أى لو شاء هدايتكم لهداكم ، وقوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴿الأنعام /٣٥﴾ أي : لو شاء الله جمعهم على الهدى لجمعهم عليها ، وقوله تعالى " فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ (٣) أي إن يشأ الله الختم على قلبك ختم عليه ، وقوله : " فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر ﴿الكهف/ ٢٩﴾ أى من شاء أن يؤمن فليؤمن . . ومنه قوله تعالى "من يشأ الله يضلله . . " أى من يشأ الله إضلاله يضلله . . ألا ترى أن المفعول فى هذه المواقع ونظائرها فى الكتاب العزيز وكلام العرب ٠ لو ذكر لكان حشوا وفضولا فى الكلام ،ولكان ذاهبا ببهاء المعنى ونضارته ، وداعيا العقول إلى الغفلة وعدم التدبر ، لاسيما أن فعل المشيئة حين ينطق به يعلم أن شيئا تعلقت به المشيئة لكنه مبهم (٤) فيجىء جواب الشرط معرفا به ، وكاشفا عنه فيقع فى النفس احسن موقع وأصفاه إذ جاءها بعد تفكر وتدبر وإثارة للنفس ٠

٢- دفع توهم إرادة غير المراد ابتداء :

ومن شواهد البلاغيين لهذا الغرض قول البحترى :

---

١) مواهب الفتاح ٢/١٣٥، ١٣٦ ٠

٢) من الآية ١٤٩ الأنعام ٠

٣) من الآية ٢٤ الشورى

٤) انظر علم المعانى فى ضوء أساليب القرآن د/ عبد الفتاح لاشين ١٩٣ ٠

وكم ذدتَ عَنّى مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ وَسَوْرَةِ أيامٍ حَزَزْنَ إلى العَظْمِ

الأصل لا محالة : حززن اللحم إلى العظم ، إلا أن فى مجيئه به محذوفا ، وإسقاطه له من النطق ، وتركه فى الضمير ، مزية عجيبة وفائدة جليلة،وذاك أن من حذق الشاعر أن يوقع المعنى فى نفس السامع إيقاعا يمنعه به من أن يتوهم فى بدء الأمر شيئا غير المراد،ثم ينصرف إلى المراد ، ومعلوم أنه لو أظهر المفعول فقال :

وسورة أيام حززن إلى اللحم إلى العظم ، لجاز أن يقع فى وهم السامع إلى أن يجيء إلى قوله : إلى العظم ، أن هذا الحز كان فى بعض اللحم دون كله ، وأنه قطع مايلى الجلد ، ولم ينته إلى مايلى العظم ، فلما كان كذلك ترك ذكر " اللحم واسقطه من اللفظ ، ليبرئ المسامع من هذا الوهم ،ويجعله بحيث يقع المعنى منه أنف الفهم (أى أوله) ، ويتصور فى نفسه من أول الأمر أن الحز مضى فى اللحم حتى لم يرده إلا العظم (١) ففى الحذف زيادة فائدة ، لأن مراد الشاعر الإخبار عن تحامل الحوادث عليه ودفع الممدوح لها وعن شدة النوازل به ٠

ومثل هذا المقام يقتضى كشفا واضحا عن أثر ذلك على الشاعر ولا شك أنه يمكن تأدية هذا الغرض بتأخير المفعول ، بأن يقول حززن إلى العظم اللحم ، ولكن تأخير المفعول لا يجعل لذكره فائدة (٢)

٣- إرادة ذكره ثانيا على وجه يتضمن إيقاع الفعل على صريح لفظه إظهارا لكمال العناية بوقوعه عليه

يقول الإمام عبد القاهر : "وإذا أردت ما هو صريح فى ذلك ، ثم هو نادر لطيف ينطوى على معنى دقيق وفائدة جليلة فانظر إلى بيت البحترى :

فقد طلبنا فلم نجد لك فى السوء دد والمجد والمكارم مثلا

---

١) دلائل الإعجاز ١٧١، ١٧٢ ٠

١) بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى ٢٢١/١.

المعنى : قد طلبنا لك ثم مثلا ، ثم حذف ، لأن ذكره فى الثانى يدل عليه ، ثم إن للمجىء به كذلك من الحسن والمزية والروعة مالا يخفى ، ولو أنه قال : قد طلبنا لك فى السؤدد والمجد والمكارم مثلا فلم نجده ، لم تر من هذا الحسن الذى تراه شيئا ، وسبب ذلك أن الذى هو الأصل فى المدح والغرض بالحقيقة ، هو نفى الوجود عن المثل ، فأما الطلب فكالشىء يذكر ليبنى عليه الغرض ويؤكد به أمره ، وإذا كان هذا كذلك ، فلو أنه قال (قد طلبنا لك فى السؤدد والمجد والمكارم مثلا فلم نجده) لكان يكون قد ترك أن يوقع نفى الوجود على صريح لفظ (المثل) وأوقعه على ضميره ، ولن تبلغ الكناية مبلغ التصريح أبدا (١) وظاهر أن عبد القاهر يجعل الفعل (طلبنا) فى البيت رأس المعنى ، والآخر (طلبنا) كالمقدمة له ، وينبغى تحديد مهمة كل فعل عندما يكون فى الجملة فعلان ، فكأن معنى البيت قد انعقد على نفى وجود المثل للممدوح، إلا أن ذلك قد جاء بإيقاع نفى الوجود على صريح لفظ المثل " لأن حساسية المعنى تقتضى أن يوقع نفى الوجود صراحة على لفظ مثل ، لا على ضميره ، وشىء آخر نجده فى حذف مفعول (طلبنا) هى تحاشى أن يواجه صاحبه بأنه طلب له نظيرا مواجهة ترى اللفظ فيها صريحا يجهر بهذا المعنى ، وإنما أشار إليه خلسا وهمسا ، ولم يمد فيه القول ، وكأنه يريد أن يطويه سريعا ليصل إلى محض المدح وهو : فلم نجد لك مثلا"(٢) وذلك هو المتوافق مع المدح الصادق الذى امتاز به شعر البحترى فى الخليفة المتوكل ، والبلاغيون يذكرون بيتا لشرح هذا الغرض وبيانه وهو قول ذى الرمة يصف بلال بن أبى بردة :

ولم أمدح لأرضيه بشعرى　　　لئيما أن يكون أصاب مالا

فالملحوظ أنه أوقع الفعل الأول (أمدح) على قوله (لئيما) وأوقع

---

١)دلائل الإعجاز ١٦٨ وبغية الإيضاح ٢٢١ .

٢) خصائص التراكيب ٢٨٣ .

الثانى(أرضى) على الضمير (الهاء) فى (أرضيه) ، ففى البيت فعلان أعمل أحدهما فى لفظ ظاهر ، وأعمل الآخر فى ضمير ذات اللفظ ، فليس فى البيت حذف مفعول كبيت البحترى ، وإنما لبيان أن ذا الرمة جعل رأس المعنى فى البيت إيقاع نفى المدح على اللئيم صريحا ، فأعمل الفعل فى الاسم الظاهر ، وجعل إرضاء الممدوح فرعا فأعمل الفعل فى الضمير والفرق ظاهر بين هذا البيت والبيت السابق ففى البيت السابق ، فعلان لهما مفعول واحد مذكور، وأعمل الفعل الذى بنى عليه الشاعر غرضه – فى هذا المفعول حتى يتنبه السامع إلى توفر المتكلم على المراد من الفعل العامل فى الاسم الظاهر، وليس الأمر كذلك فى بيت ذى الرمة ، فالمفعولان مذكوران ، وقد نبه الشاعر إلى أن مراده الرئيسى إعمال أحد الفعلين فى الاسم الظاهر و الآخر فى ضميره ، فليس بيت ذى الرمة من شواهد هذا الغرض ، وإنما ذكر لبيان فضل الصنعة فى بيت البحترى السابق.

ومما يقرب إليك هذا ا لكلام ، أنك إذ أكلت عند أحد البخلاء لحما وشربت قهوة فأردت أن تضبط مرادك النفسى بلغة مبينة ، فالواجب أن تقول : أكلت عند فلان لحما وشربت ، وذلك لأن رأس المعنى عندك أن تكشف عن مخالفة البخيل لطبعه فذكر معمول الفعل الأول هو الألصق بغرضك ومرادك ، وليس متناسبا مع غرضك أن تقول : أكلت عند فلان وشربت قهوة وليس هذا المثال مما نحن فيه لأن المفعولين مختلفان ، وإنما ذكرناه للتقريب ، فإذا أردت أن تدخله فيما نحن فيه ، فلتكن لغتك : قدم لى فلان فأكلت عنده لحما ، فكما ترى الأصل قدم لى فلان لحما فأكلت عنده لحما فحذف المفعول فى الأول لما لم يكن إيقاع التقديم دالا على نفى البخل ، فكثير من البخلاء يتكلمون ولا يفعلون وإنما رأس المعنى فى نفى البخل أن توقع الفعل الثانى علـــى المفعول صراحة، وكذلك

اللغة تكون كاشفة عن هواجس النفس ،وسفر الخاطر ، فتأتى أبنيتها صورة لهذه النفس يفقه ذلك أهل البصر بالبيان ٠

٤- حذف المفعول لإرادة التعميم والامتناع عن أن يقصره السامع على ما يذكر معه دون غيره مع الاختصار

والفرق بين هذا الغرض وبين الغرض فى الضرب الأول (الذى هو التوفر على إثبات الفعل للفاعل) أن المفعول ههنا منوى ، أما هناك فلا سبيل إلى تقديره، فتدبر هذا الفرق اللطيف ، وفرق آخر هو أن عناية المتكلم فى الضرب السابق تكون متوفرة على إثبات الفعل للفاعل ، أما عنايته ههنا فهى متوفره على تعميم المفعول وبيان شيوعه ، ولذا وجب فى هذا الموضوع تقدير المفعول مع أنه عام قال سعد الدين - رحمه الله -" وههنا بحث ،وهو أن ما جعل الحذف فيه للتعميم والاختصار إنما هو من قبيل ما يجب فيه تقدير المفعول بحسب القرائن، وحينئذ إن دلت القرينة على أن المقدر يجب أن يكون عاما ، فالتعميم من عموم المقدر سواء ذكر أو حذف ، وإلا فلا دلالة على التعميم ، فالظاهر أن العموم فيما ذكر إنما هو من دلالة القرينة على أن المقدر عام " (١)٠

نعم فى الطريقتين تعميم إلا أن الجهة المفيدة لهذا التعميم مختلفة فهى فى الأول جاءت من دلالة الفعل بإطلاقه من غير تعميم " فلان يحل ويعقد " أى صار إليه الحل والعقد ، أما التعميم ههنا فمن وقوع ذلك الفعل العام على مفعول لا سبيل إلى تحديد أفراده، وقد مثلوا لذلك بقولنا : قد كان منك ما يؤلم فقد حذف المفعول ، والتقدير قد كان منك ما يؤلم كل أحد ، والشرط أن يقال هذا ٠فيمن يتأتى منه أن يؤلم كثيرا من الخلق ، فأراد المتكلم المبالغة فى إصابة إيلامه كل أحد، ولم يرد أنه قد كان منه إيلام ، أو أنه صار إليه كل إيلام ٠

---

١) المطول ١٩٦.

وقد ذكر الشيخ عبد المتعال الصعيدى أن التعميم يؤخذ فى الحقيقة من قرينة المقام ، ولا يؤخذ من الحذف لوجوده مع الذكر ،ولكن الحذف له فيه تأثير فى الجملة ، لأن تقدير مفعول خاص فيه دون آخر ترجيح بلا مرجح ، وبهذا يحمل على العموم(١) .

والحق أن المقام هو الذى يحدد المحذوف فى كل كلام ، وليس فى هذا المثال خصوصا ، فإبصار المقام هو الذى يكشف الأسرار البلاغية للتراكيب لأن التراكيب جاءت مقتضى لهذا المقام الذى ينبغى كشفه ، والمقام حين يقتضى العموم تأتى أحوال الكلام على مقتضاه ، فلما اقتضى المقام عموم المفعول ودلت القرائن المقالية على ذلك وجب تقدير المفعول عاما ، وكذلك فى عكسه فالحذف مقتضى والمقام داع ، والإبانة بالمقتضى لا بالمقام ،ولك أن تقبل هذا الكلام، ولك أن ترفضه إلا أنى أحيلك على نص سعد الدين فإن كلامه ظاهر فى أن القرينة (المقام) هى التى تعين تقدير المفعول إن عاما فعام وإن خاصا فخاص ، ولم يقل إن القرينة تفيد التعميم ، وإنما قال هى التى اقتضت تعيين ما يفيد تعميما ، فتأمل ذلك فإنه من دقائق كلام أهل العلم .

ولبس آخر فى هذا الغرض هو أنك إن قدرت المفعول خاصا كان ذلك ملتبسا مع القسم الثانى من الضرب الأول الذى يكون فيه الفعل عاما متعلقا بمفعول مخصوص ، والحق أن ذلك ملبس جدا وذلك لأمر ظاهر هو أن الأسرار البلاغية فى الكلام لا سبيل إلى النص عليها دون أن ينازع فى ذلك وإنما جلها مما تحسه النفس ولا يحيط به الوصف كما قال أئمة أهل العلم .

ومن شواهد البلاغيين لهذا الغرض قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ﴿ يونس/٢٥ ﴾ فالدعوة عامة والهداية خاصة ، لذا حذف المفعول فى الجملة الأولى ، لإفادة التعميم ، لأن المقام

١) بغية الإيضاح ١/٢٢٢ .

مقام تعميم ، وذكر المفعول فى الثانى لأن الهداية خاصة ، فكأنه قال : والله يدعو كل ما تصح دعوته إلى الجنة ، قال شيخنا الدكتور أبو موسى فى هذا الموضع : " وفرق بين هذا وبين الحذف الذى يكون لتوفر الغرض على إثبات وقوع الفعل من الفاعل ، تقول قد كان منك ما يؤلم ، وأنت تريد ما الشأن فيه أن يؤلم ، وليس وراء ذلك أى معنى فى التركيب ،وتقول قد كان منك ما يؤلم ، وأنت تريد ما يؤلم كل أحد ، فأنت تقصد العموم فيمن يقع عليهم الفعل ، وبين هذين فرق ،ولكنه يدق وهذا شأن المعانى ،ومن هنا نجد الذين يستخرجون المعانى من الجمل قد يترددون بين هذين الاحتمالين.

انظر إلى قول الزمخشرى فى قوله تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ) يقول : وفى لا تقدموا من غير ذكر مفعول وجهان : أحدهما أن يحذف ليتناول كل ما يقع فى النفس مما يقدم ،والثانى ألا يقصد قصر مفعول ولا حذفه ، وإنما يتوجه بالنفى إلى نفس التقدمه ، كأنه قيل : ولا تقدموا على التلبس بهذا الفعل ، ولا تجعلوها منكم بسبيل كقول الله تعالى : " هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴿الحجرات/ ١﴾ فهذان كما ترى معنيان لا معنى واحد، فليست الاحتمالات إلا ألوانا من المعانى متلبسة بأحوال الكلمات .

وقد ذكروا أن سر الحذف فى قوله تعالى " فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ " ﴿غافر/ ٦٨﴾ أي وأنتم تعلمون أنه لا يماثل ، أو أنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت ، ويمكن إن يقال : أن الحذف فى هذا يجرى مجرى الحذف فى بيت البحترى " يرى مبصر ويسمع واع " وكان المراد - والله اعلم - فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم يقع منكم العلم وتتصفون به ، لأن كون المرء ممن يعلم كاف فى معرفة أنه ليس له شبيه "(١)

ومـــما هو شاهد لهذا الغرض من الكتاب العزيز قوله تعالى : "وَمَا تُغْنِي

١) خصائص التراكيب ٢٨٦.

الآيَاتُ وَالنُذُرُ عَنْ قومٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴿يونس /١٠١﴾، فالملحوظ أن مفعول تغنى محذوف ،وهو ظاهر في الدلالة على التعمد ، أو لا تغنى أى نوع من الغناء ، والتعميم هو الألصق بسياق ذكر الهالكين في سورة يونس فقد وقعت الآية الكريمة من بعد ذكر إهلاك الحياة الدنيا " إنمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنيا . . ﴿الآية/٢٤﴾ ٠

وذكر إهلاك قوم نوح وقوم موسى -عليهما السلام- وذكر نجاة قوم يونس لما رأوا مخايل العذاب ،والسورة بنيت على سوق آيات الإنذار ، ودلائل القدرة ، لذا تقرأ فى مفتتحها " أكَانَ لِلناس عَجَباً أنْ أوْحَيْنا إلى رَجُلٍ مِنهُمْ أنْ أنذرِ الناسَ ﴿الآية/٢﴾ إلا أن هذه الدلائل وتلك الآيات لا تغنى شيئًا عمن ختم على قلوبهم٠

وكثيرا ما ترى هذا الحذف في رؤوس الآى،ودلالته على التعميم دلالة ظاهرة من ذلك قوله تعالى : " لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " ﴿البقرة /١٠٢﴾ "لِقَومٍ يَشكُرُونَ ﴿البقرة/ ١٩٨﴾ أفَلا تَسْمَعُونَ " ﴿القصص/٧١﴾ " أفَلا تُبصرُونَ ﴿القصص/٧٢﴾ ، " أو لاَ يَعْلَمونَ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرونَ وَمَا يُعْلِنون ﴿البقرة /٧٧﴾ (١)٠ فالواضح أن مفاعيل هذه الأفعال جميعا محذوفة وذلك لأمر ظاهر هو أن المراد أن العلم لا يتعلق بمعلوم مخصوص ، وأن الشكر لا يتعلق بمخصوص ، وأن السمع والأبصار لا يتعلقان بمخصوص إلى آخره ، لأن المعنى قد بنى على وقوع هذه الأفعال على غير معدودين ٠

٥- حذف المفعول لاستهجان ذكره :

وهو أمر يرجع إلى محافظة هذه اللغة الشريفة على شدخ سياج الحياء فلا تذكر من الألفاظ ما يستقبح ذكره ، فإن لم يكن من ذكره بد لابتناء الكلام عليه ، فالواجب الشرعى والخلقى حينئذ يوجبان نصب قرينة ظاهرة دالة عليه تعينه ، فيفهم من مساق الكلام دون أن يجرى له ذكر يخدش أسماع المخاطبين ، لأنه قد ي

١) انظر البرهان للزركشى ٣/ ١٦٤، ١٦٥ .

كون خدش الحياء صارفا عن الغرض الشرعى فى البيان (١) ، ومما هو ظاهر قاهر فى هذا الغرض ، قول الحميراء أم المؤمنين - رضى الله عنها - : كُنتُ اَغْتَسِلُ أنَا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مِن إنَاء وَاحِدٍ ، فَمَا رَأَيتُ مِنهُ وَلاَ رَأَى مِنى " وما من ريب فى أن المراد العورة ،وقرائن المقال لا تدع لبسا لتعيين المفعول ، وشواهد هذا الغرض كثيره لاسيما فى أحاديثه ﷺ فى فقه النساء.

٦- حذف المفعول للاحتقار (٢)

ومما هو شاهد لهذا الغرض قوله تعالى : كَتَبَ اللهُ لأغلِبَن أنَا وَرُسُلى "﴿المجادلة/ ٢١﴾ ، المفعول محذوف وتقديره (الكفار) إلا أن النظم الكريم ، لم يرد أن يجعل الكفار فريقا ضد الله ورسله ، فيكون ذلك من باب الاعتداد بهم ففى حذفهم ، استهانة بهم ، وكأن قوتهم لا قيمة لها حتى تذكر فى الكلام فإن أردت أن تتعرف على قيمة هذا الأسلوب فقل : كتب الله لأغلبن الكفار أنا ورسلى ألست تبصر أنهم - حين الذكر - من القوة بالمكانة التى اقتضت النظم أن يأتى مؤكدا ، وأن يذكر اسم الله مضموما إليه الرسل ، ألست تبصر أن الذكر يثبت قيمة لمن لا قيمة فى الواقع ، ولو كانت الآية كتب الله ليغلبن الرسل والمؤمنون الكفار . . لكان جائزا بلاغة أما وقد جاء النظم على ما هو عليه ، فلم يكن جائزا ذكر المفعول بلاغة .

٧- حذف المفعول لمجرد الاختصار .

وهو من طرائق اللغة الشريفة فى تنحية الفضول عن الكلام ، فليس معقولا أن يكون المفعول متعينا بحيث يستوى فيه الذكر مع الحذف من حيث الدلالة على المعنى ، ثم يذكر فيكون بمثابة الحشو ، وقد مثلوا لذلك : بنحو " أصغيت

---

١) لاتظن أن الداعى للحذف داع شرعى لا بلاغى ، فإن من البلاغة أن تراعى نفس المستمع للكلام ، وان تتحرى ترك ما يصرفه عن الانتباه إليك .

٢) انظر البرهان للزركشى ١٦٤/٣ .

إليه ، أغضيت عليه ، فمتعالم أن الإصغاء يقع على الأذن والإغضاء على الأجفان ، فقد أصبح الحذف هو الأصل ، ولا يعدل عنه إلى غيره إلا لغرض بلاغى على حد قوله تعالى : " إذ تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ﴿النور/١٥﴾ والقول لا يكون إلا بالفم ، وإنما ذكره لتعظيم المقول ، لأن المقام مقام إنكار .

ومما هو شاهد لهذا الغرض فى القرآن الكريم قوله تعالى "قَالَ رَبّ أرني أنظرْ إليكَ (١)" ﴿الأعراف ١٤٣﴾ أى أرني ذاتك ،وقوله : أَهَذا الذى بَعثَ اللهُ رَسُولا ﴿ الفرقان ٤١﴾ ومما يكثر فيه الحذف لهذا الغرض ، أن يتقدم مثله فى اللفظ ، كقوله تعالى : يَمْحُو اللهُ ما يشاءُ ويُثبِتُ ﴿ الرعد/ ٣٩﴾ أي ويثبت ما يشاء ، فلو ذكر لكان حشوا ومنه أن يكون المفعول الثانى بلفظ الأول فى عمومه واحتياجه إلى الصلة فيحذف لدلالة ما ذكر عليه ، ومما جاء على ذلك قوله تعالى "يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرض والسَّمَوَاتُ ﴿إبراهيم /٤٨﴾ أى غير السموات ،وقوله : وَأَبصِر فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿ الصافات ١٧٩﴾ أي أبصرهم بدليل قوله تعالى : وَأبصِرْهمْ(٢)

وقد جعل السكاكى الحذف فى قوله تعالى : وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مدين ﴿القصص/ ٢٣﴾ لمجرد الاختصار، وليس كذلك وإنما الصحيح ما سبق بيانه فى الضرب الأول مما حذف للتوفر على إثبات الفعل للفاعل .

٨- ما ذكره بعض البلاغيين من أن الحذف قد يكون لقصد مراعاة الفاصلة:

وعمدتهم فى الاستشهاد لهذا الغرض قوله تعالى : وَالضُّحَى وَالليلِ إذا سَجَى مَا وَدَّعكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿ الضحى/١،٢،٣﴾ . . "أى وما قلاك كما

---

١) قال ابن السبكى فى الآية الكريمة " وعنده أن ترك المفعول هنا للتعظيم " عروس الأفراح ٢/١٤٣ وهو يعد غرضا جديدا .

٢)انظر البرهان ٣/ ١٦٦.

قال الخطيب (١) وغيره من أهل العلم ، وهذا الغرض غير مذكور عند الإمام عبد القاهر ، وهو عند أئمة أهل العلم شيخ البلاغيين ، وقد ذكر أهل العلم أن الحذف ههنا ، قد يكون للاختصار اللفظى ، لظهور المحذوف ،وقال : إن الحذف يفيد مع الاختصار تحاشى أن يقع الفعل (قلى) على ضمير المخاطب ، وهو النبى – عليه السلام – لأن فى ذلك ما يوحش بخلاف (ودعك) فليس التوديع كالقلى (٢) ولأن المقام مقام تسلية وإيناس ، فكأن النظم تحاشى ما يعكر صفو الإيناس حتى فى اللفظ ، ونحن لا ننكر أثر التوازن فى البيان على إبلاغ المعنى ، ولكن ذلك المقصد اللفظى إنما يأتي بعد المقصد المعنوى من غير عكس، فهم يجعلون " التقديم والتأخير لتصحيح الوزن عيبا فى الشعر وهو أمس حاجة إلى التساهل بحكم ما فيه من التزام الأوزان والقوافى ، فإن القول به مراعاة للفاصلة أعيب (٣) ولقد استهجن الزمخشرى القول بأن القرآن يقصد إلى المغايرة فى نظمه رعاية للفاصلة ،وارتضاه كثير من المفسرين وابن الأثير والفراء ومن المحدثين د/محمد زغلول سلام إلا أن تدبر المواضع التى قيل فيها إن القرآن غاير فى النظم لمراعاة الفاصلة يقطع بفساد هذا القول كما قال كثير من أهل العلم ، وكأنه قول من ركن إلى الراحة ورفض أن ينغل فى قلب معانى آي الذكر الحكيم(٤) .

والحق الأزهر هو قول الدكتورة بنت الشاطىء "أما تعليل الحذف برعاية الفاصلة فليس من المقبول عندنا أن يقوم البيان القرآنى على اعتبار لفظى ، وإنما الحذف لمقتضى معنوى بلاغى يقوى به الأداء اللفظى دون أن يكون الزخـــــرف

١) انظر الإيضاح ١/ ٢٢٢ .

٢) خصائص التراكيب ٢٨٧

٣) من أسرار المغايرة فى نسق الفاصلة القرآنية أ. د / الخضرى

٤) انظر فى هذه القضية خصائص التراكيب ٢٨٧ وما بعدها ومن بلاغة القرآن د/ أحمد بدوى ص ٨٧ ،وصور من البديع للأستاذ على الجندى، فن الأسجاع ص ٩٩، ومن أسرار المغايرة فى نسق الفاصلة القرآنية لأستاذنا الدكتور الخضرى فقد أقامه لهذا الغرض خصوصا

الشكلى هو الأصل ، ولو كان البيان القرآنى يتعلق بمثل هذا لما عدل عن رعاية الفاصلة فى آخر سورة الضحى "فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿الضحى/٩﴾ .. وليس فى السورة كلها ثاء فاصلة ، بل ليس فيها حرف الثاء على الإطلاق ، فلم لم يقل " تعالى فخبر ؟ لتتفق الفواصل على مذهب أصحاب الصنعة ومن يتعلقون به " (١) فالتنغيم الصوتى يأتى فى القرآن عندما يقتضيه السياق ويستدعيه المقام ، ولا يتمحض الحذف لرعاية الفاصلة .

ولا ننكر أن يقع ذلك فى بيان البشر ، وذلك لأمر ظاهر هو أن أجناس كلامهم لها مقاييسها التى تتحكم فيها من محافظة على روى الفقرة فى النثر أو رعاية الوزن فى الشعر فأنت تقول :ولقد دعوت الأصدقاء وما قصرت ، وما نسيتك وما أغفلت " والأصل ما أغفلتك ، فالمفعول به وان كان قد حذف لدليل سابقة عليه إلا أنه قد قصد مع الاختصار المحافظة على روى الفقرة .

ومثاله من الشعر

بَنَاهَا فَاعْلَى وَالْقَنَا يَقْرَعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْلَهَا مُتَلَاطِمُ

أى فاعلى بناءها ، فحذف المفعول "بناءها" للمحافظة على وزن البيت (٢)

وما ذكرناه من أغراض حذف المفعول بين الجملة ، لا يعنى أنه ليست للحذف أغراض أخرى ، لأن أحوال الكلام لا تتناهى ، كما أن أحوال النفس لا تتناهى ، لذلك فتح البلاغيون الباب لمحاولة استنباط هذه الأسرار ، بعد أن ينغل الفاقهون لأحوال الكلام فى نظم الكلام ، لإبصار مرامى قائله ، ومحاولة تحديدها ، قال البلاغيون بعد ذكر هذه الأغراض، وإما لنكتة أخرى" وهذا يعنى أن النكت الأخرى غير ظاهرة كهذه النكت ، مما يحتاج معه إلى مزيد لطف فى التقاطها ،

١) خصائص التراكيب ١٨٩ .

٢) انظر من بلاغة النظم العربى د/ عبد العزيز عرفة ٢٩٢ .

ومما ذكروه من هذه النكت ٠

أن المفعول به قد يحذف للخوف من ذكره وإرادة الإنكار عند الحاجة ، وهو أمر بلاغى لاحتياج الإنسان إليه فى هذه المواطن من الأحوال كقولك فى مشتهر بالظلم " لعن الله وأخزى " ولم لا يظلم ؟ ٠

وقد يكون الحذف للخوف عليه ، كأن يقال : الأمير يحب ويبغض ، وذلك عند قيام قرينة دالة على أن المراد يحبنى ويبغض ذلك الحاضر ، فيحذف المتكلم المفعول خوفا على نفسه أن يؤذى بنسبة محبة الأمير إليه ، أو خوفا على ذلك الحاضر بسبب نسبة بغض الأمير إليه وهو بناء فيه لطف كما ترى يناسب هذه اللغة الذكية ٠

وقد يحذف المفعول لتعينه حقيقة أو ادعاء ، كما يقال نخدم ونعظم ، والمراد الأمير لادعاء تعينه وأنه لا يستحق ذلك فى البلد غيره ٠

وقد يحذف المفعول لإيهام صونه عن اللسان أو صون اللسان عنه ، ومثال الأول قولك نمدح ونعظم والمراد محمد ﷺ بشرط نصب القرينة الدالة على الممدوح ، وهو أمر نافع لاسيما لمن وصفوا بالحياء الجم مع الحديث عن سيدنا رسول الله ﷺ فقد تكون على جنابة فتستحى أن تجرى ذكره ﷺ على لسانك صونا لجريان اسمه الشرف على لسانك وأنت بهذه الحال ، فتقول : لقد بعث فينا وهدانا وختم الرسل فنحن نمدح ونعظم ، فقد أقمت قرينة ثم حذفت للغرض المذكور ومثال الثانى أن تصون لسانك عن ذكر ما يكره كقولك : لقد أضلنا وغوانا فنحن نلعن ونستـ[illegible] ـزيد نلعن الشيطان ،ولكنك حذفته صونا لجريان اسمه على لسانك ، وهذ[illegible] ـر عن شدة مقتك للشيطان (١) وغير ذلك من الأغراض التى لا تتناهى ٠

---

١) راجع شروح التلخيص ٢/ ١٤٤ ، ١٤٥ ٠

التقديم في متعلقات الفعل

يأتي التقديم تابعا لأحوال النفس ،وقد ذكر الإمام عبد القاهر فضل باب التقديم والتأخير فقال : " هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ،واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفترلك عن بديعة ، ويفضى بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك ، أن قدم فيه شيء ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان (١)
ثم ذكر - رحمه الله - أن العلماء من قبله قد اهتدوا إلى أن الغرض العام من كل تقديم هو الاهتمام بالمقدم به ، لكنهم لم يفصلوا أوجه الاهتمام والعناية " قال صاحب الكتاب - وهو يذكر الفاعل والمفعول - كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم " (٢) وقد ذكر أن سيبويه لم يذكر مثالا لذلك ، وما زاد اللغويون على مقالته إلا المثال فأنت تقدم حسب أغراض الناس ، فإذا كان للناس اهتمام بقتل إنسان ، وكان من الخوارج الذين يعيثون فى الأرض فسادا ، فالواجب أن يكون بناء كلامك على تقديم ما للناس إلى علم خبره شغف فتقول قتل الخارجى فلان ، لأن الناس لا يعنيهم القاتل ، وإنما يعنيهم المقتول (الخارجى) لأن المهم عندهم أنهم كفوا شره وفساده ، فإن قدمت الفاعل والحال هذه فقلت (قتل فلان الخارجى) خالفت المراد ، ولم تجىء لغتك على مقتضى الحال فكان كلامك صحيحا نحوا خطأ بلاغة .

والتقديم هو أحد أساليب البلاغة ، ودليل التمكن فى الفصاحة ، وله فى القلوب احسن موقع وأعذب مذاق ،والتقديم فى متعلقات الفعل يأتى على ضربين ، إما أن تتقدم المتعلقات على الفعل نفسه ، وإما أن تتقدم بعض المتعلقات

١) دلائل الإعجاز ١٠٦ .

٢) السابق ١٠٧ .

على بعض ، ولكل ضرب منها أغراضه ومواقعه ٠

وقد ذكر أهل العلم أن التخصيص لازم للتقديم غالبا وقلما ينفك عنه ، فهو لزوم جزيء أكثري ٠

من أغراض تقديم المفعول على فعله :

١- إفادة التخصيص :

هو مقصد جليل إذ فيه مراعاة لحال المخاطب ، وإبراء لنظم المتكلم مما يقعد بكلامه عن وصول المعنى بأقصر طريق وأوفاه ، فأنت تقول للمخاطب الذى يعتقد أنك عرفت إنسانا وأنه غير زيد ، وأنت تقصد بكلامك تعيين المعروف عندك ، فتقول زيدا عرفت فإن أردت أن تزيد الكلام توكيدا وتقريرا ، فالواجب أن تقول : زيدا عرفت لا غير أو زيدا عرفت وحده (١)

فتقديمك المفعول على فعله قاض بوقوع الفعل عليه ، والخلاف فى شىء آخر هو فى تعيينه ، ولذلك كان من المحال أن تقول ما زيدا ضربت ولا غيره ، وذلك لأمر بين هو أن تقديمك المفعول على الفعل ووقوعه بعد حرف النفى أفاد أن ضربا منه قد وقع ، وأن الخلاف فى المضروب ، ثم يأتى آخر كلامك فينقض المعنى الأول " ولا غيره " لأن بناء كلامك من أوله ، دال على إثبات معنى نقيض آخره على ما قرره الإمام عبد القاهر -رحمه الله -ومثله أن تقول أزيدا أكرمت أم عليا لأن تقديمك المفعول ووقوعه بعد الاستفهام أفاد أن الخلاف قد وقع فى المفعول ، ولم يقع فى وقوع الفعل أو عدم وقوعه ، فلو قلت أزيدا أكرمت أم أهنـــت كان كلامك فاسدا (٢) ، فإن أردت تصحيحه فليكن كلامك أأكرمت

---

١) راجع الإيضاح ١/ ٢٢٧ ٠

٢) راجع دلائل الإعجاز ١٢٦ ، ١٢٧ ٠

زيدا أم أهنته ؟

وذلك أمر راجع إلى مذاهب هذه اللغة الشريفة القاضية بان الكلام يخرج من الفؤاد على صورة ترتيب معناه فى نفس المتكلم ، وظاهر من الأمثلة السابقة أن المتكلم فيها ينزع إلى تخصيص أحد الأمرين فى ذهن المخاطب .

وقد جاءت الجملة القرآنية على هذه الطريقة ، فجاء التقديم فيها قاصدا إلى هدف ، فتصبح الجملة بتكوينها وترتيبها تابعة لما يوائم أحوال المتكلم ومراد الحق - سبحانه وتعالى - وعند تدبرك لما قدم فى الذكر الحكيم ، لا ترى سبيلا إلى تأخيره لأن المعنى قد بنى عليه ، ولأن سياق الكلام قد أوجب التقديم ، ولو أخر لفظ عن موضعه لكان فى هذا التغيير تخالف مع السياق وامتداده .

ومما جاء دالا على الاختصاص بالتقديم قوله تعالى : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نستعين فى فاتحة الكتاب أم القرآن كما قال سيدى رسول الله ﷺ وفداه أبى وأمى ونفسى وعينى ، فقد سماها أم القرآن ،ونبه العلامة د. محمد عبد الله دراز إلى أن فاتحة الكتاب خطاب من الأمة لربها ، والذكر الحكيم كله خطاب من الله للأمة ، وكأن الله أنزل الكتاب صراطا مستقيما ونورا مبينا تلبية لرغبة الأمة ، فمقامها مخاطبة الله ومناجاته ، وتراها من أولها بنيت على إظهار الخضوع ، الحمد لله رَبِّ الْعَالَمِينَ " هذه الآية تنبىء بكل النعم وتجعل عابد ربه مستحضرا إياها من بين يديه ، فيقع فى نفسه أنه ما وفى شيئا من حق نعمة ربه عليه ، فلما وقع التقصير ، استحضر العذاب ، فسيق قوله تعالى " الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " رافعا لهذا الحرج فاتحا لباب الفرج لأن الرحمن الرحيم هو " مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ " هو مالك الرحمة والعذاب والأنعام والحساب ثم جاءت الآية الكريمة " إِيَّاكَ نَعْبُدُ أى لا نقصد بالعبادة سواك ولا نخص بها أحدا غيرك ، لأنك أنت المعز المذل العزيز القهار الجبار المتكبر .

فماذا لو قلت : نعبدك ونستعين بك فى هذا الموضع ؟ لاريب أنك صرت حينئذ إلى كلام غث بارد - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - وشىء آخر وراء تقديم العبادة على الاستعانة هو أن فى ذلك "تقديما للوسيلة قبل طلب الحاجة، وذلك أنجح فى توقع حصولها (١)

ومن ذلك أيضا قوله تعالى:"واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون) ﴿البقرة/١٧٢﴾ معناه إن كنتم تخصونه بالعبادة ، وقد تأتى الجملة الواحدة فى سياقين مختلفين أو فى سياق واحد ، ويقدم فيها المتعلق مرة ويؤخر أخرى ، ويكون وراء هذا التصرف مغزى جليل ، انظر إلى قوله تعالى : لِتَكُونوا شُهَدَاء عَلى النَاس وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿البقرة/ ١٤٣﴾ تأخر المتعلق على شبه الفعل فى قوله (شهداء على النَّاس) وتقدم فى قوله : (عليكم شهيدا) وذلك لأن الغرض فى الأولى إثبات شهادتهم على الأمم ، وليس فيها معنى الاختصاص ، وفى الثانية اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم وليس مجرد إثبات شهادته عليهم (٢)٠

ومنه قوله تعالى:" لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ "﴿آل عمران/ ١٥٨﴾ معناه لا إلى غيره ، ومنه قوله تعالى "وأرسلناكَ للناس رَسُولاً ﴿النساء /٧٩﴾ معناه لجميع الناس من العرب والعجم ، على أن التعريف للاستغراق لا لبعضهم المعين على أنه للعهد أي للعرب ، ولا لمسمى الناس على أنه للجنس ، لئلا يلزم من الأول اختصاصه بالعرب دون العجم لانحصار الناس فى الصنفين ، ومن الثانى اختصاصه بالأنس دون الجن لانحصار من يتصور الإرسال إليهم من أهل الأرض فيهما وعلى تقدير الاستغراق لا يلزم شىء من ذلك ، لأن التقديم لما كان مفيدا لثبوت الحكم للمقدم ونفيه عما يقابله كان تقديم (للناس) على (رسولا) مفيدا

١) من بلاغة القرآن د / أحمد بدوى ١١٤ ٠

٢) خصائص التراكيب ٢٩١

لنفى كونه رسولا لبعضهم خاصة ، لأنه هو المقابل لجميع الناس ، لا لبعضهم مطلقا ولا لغير جنس الناس (١)

والتقديم يفيد مع الاختصاص اهتماما بشأن المقدم " والذى عليه محققو البيانيين أن ذلك غالب لازم . . وقد اجتمع الاختصاص وعدمه فى آية واحدة ،وهى قوله تعالى : "أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ﴿ الأنعام /٤٠، ٤١ ﴾ التقديم فى الأول قطعا ليس للاختصاص بخلاف الثانى(٢)

قاله الزركشى وعلماء البلاغة لم يذكروا سوى هذا الغرض ، وهو عودة إلى ماقبل عصر الإمام عبد القاهر فى أن الناس اكتفوا بأن المقدم يكون للاهتمام ببيانه لكن كلام البلاغيين فى الغالب فتح للباب ، ومعنى ذلك أن التخصيص والاهتمام مقصد عام للتقديم ، وهناك مقاصد خاصة بكل سياق من هذه المقاصد .

١- زيادة التقريع :

كقوله تعالى " وعلامات وبالنجم هم يهتدون " قال الزمخشرى " فإن قلت : قوله (وبالنجم هم يهتدون) مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه النجم مقحم فيه (هم) كأنه قيل "وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون)، فمن المراد بهم ؟ قلت : كأنه أراد قريشا كان لهم اهتداء بالنجوم فى مسايرهم وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم ، فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم فخصصوا(٣)

"والتخصيص بتقديم النجم جار على سبيل التجوز ، يجعل كل ماعداه من وسائل الاهتداء فى حكم المهمل تعظيما لهذه الآية من آيات الله فى قوم من

١) انظر الإيضاح ١/ ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

٢) البرهان ٣/ ٢٣٨ .

٣) الكشاف ٢/٤٠٥ .

البدو ، كل وسائل علمهم ليلا تعتمد على النجوم ومطالعها ، وهم يقرون بأنها من خلق الله ، فجدير بهم أن يشكروا الخالق على نعمه العظيمه (١)

ومنه قوله تعالى : "إِنَّ الإنسانَ لِرَبِهِ لَكَنُود وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهيد وإنه لِحُبِ الخَيرِ لشَدِيد) فقدم المتعلق على شبه الفعل لغرض التقريع والتشنيع ، ولا يعنى ذلك إهمال التخصيص ، فهو الغرض الأهم والمقصد الأعم قال الزمخشرى - رحمه الله - فى الآيات "إنه لنعمة ربه خصوصا لشديد الكفران لأن تفريطه فى شكر نعمة الله تفريط قريب ، لمقاربة النعمة ، لأن أجل ما أنعم به على الإنسان من مثله نعمة أبويه ، ثم إن عظمها فى جنب نعمه قليلة ضئيلة " (٢)

كفران نعمة الله فى توجيه الزمخشرى هو الكفران وما دونه لا يعتد به(٣)

ومثله تقديم المجرور على شبه الفعل (أفانتم له منكرون ﴿الأنبياء/ ٥٠﴾ فالقصد به التشنيع على المشركين الذين خصوا القرآن بالجحود .

٢- التشديد فى الوعيد :

من ذلك قوله تعالى : "خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴿الحاقة/ ٣٠، ٣١، ٣٢﴾ فقد قدم المفعول به (الجحيم) على فعله ، ومثله هذا التقديم هو الأعلى فى مقام التخويف وتشديد الوعيد ، وقد جاءت الآية على نسق وترتيب ملائما هذا المقام ، فقدم السلسلة أيضا ، قل إن هذا المقام هو الذى جعل نصبة الكلام وهيئته على تقديم المفعول على فعله ، ولا تقل إنه قد قدم قصدا إلى الفضيلة السجعية ، كما قال العلامة ابن الأثير - رحمه الله - ولا منافاة بين المرادين ، ولا تنافر بين الفضيلة المعنوية والفضيلة اللفظية ، فكلاهما من وسائل التأثير ، إلا أن الفضيلة اللفظيـــة

---

١) من أسرار المغايرة فى نسق الفاصلة القرآنية ٦٤ .

٢) الكشاف ٤/٢٧٨ .

٣) من أسرار المغايرة فى نسق الفاصلة القرآنية ٦٤ .

تأتى تبعا للفضيلة المعنوية ،وقد رد على ابن الأثير صاحب الفلك الدائر وجماعة من أهل العلم (١)

ومما قدم وغرضه الاختصاص مع التشديد فى الوعيد قوله تعالى : " إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ﴿الغاشية/٢٣: ٢٦﴾ فقد قدم الجار والمجرور على شبه الفعل ·

والتشديد فى الوعيد كثيرا ما يصاحب تقديم القيود فى النظم القرآنى ، وهو أكثر ما يكون فى تقديم المجرور على متعلقه كما فى قوله تعالى : " أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير " ﴿العاديات / ٩، ١٠، ١١ ﴾ فدل تقديم (بهم) على هذه المراقبة الدائمة لمن كفر به تمهيدا لأخذه بسوء مقاله وكان الله - تعالى - قد تفرغ لمراقبته وخصه بها دون خلقة ، وفى ذلك مافيه من الوعيد الذى ترتعد له الفرائص وتنخلع له القلوب(٢) ·

٣- التقديم للترغيب :

ومقامه الحث على العمل الصالح ، والشاهد الظاهر لهذا " الغرض" لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم﴿آل عمران /٩٢﴾ ، قدم الظرف (به) على صفة العلم ، تنبيها على أن الله يضع ما يقدمه الإنسان لربه موضعا متميزا يرقب معه نوايا المنفقين ،وطيب أنفسهم بما قدموا استثارة لطاقات الخير فى أنفسهم وحثا لهم على تخير أطيب ما لديهم ولعله هو السر أيضا فى تقديم المجرور فى قوله تعالى " الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴿آل عمران/ ٩٢﴾ وقد دار جدل طويل

١)انظر المثل السائر ٢/٢١٣ الفلك الدائر على المثل السائر ٤/٢٤٩ ، خصائص التراكيب ٢٩٣ ومن أسرار المغايرة فى نسق الفاصلة القرآنية ٦٨، ٦٩ ·

٢)من أسرار المغايرة ٧٠ ·

حول السر فى هذا التقديم فمن قائل بالتخصيص، وقائل بالاهتمام ولا منافاة بين قول الفريقين وبين هذا الغرض ٠

٤-التقديم للتعريض :

ومثاله قوله تعالى : والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) ﴿ البقرة /٤ ﴾ وهو وجه كان الزمخشرى أول من قال به لتصحيح مذهبه فى دلالة التقديم على التخصيص لأن تخصيص مؤمنى هذه الأمة بالإيمان بالآخرة يناقضه ما هو ثابت من أن أهل الكتاب يؤمنون بها كذلك فكان لابد من تفسير لإخراجهم من دائرة المؤمنين بالآخرة واختصاص المسلمين بهذا الإيمان ، فكان جوابه (وفى تقديم الآخرة ،وبناء (يوقنون) على (هم) تعريض بأهل (الكتاب) وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته ، وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان ، وأن اليقين ما عليه من آمن (بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) العدول عن التعبير بالإيمان إلى الإيقان هو الذى أوحى إلى الزمخشرى بفكرته عن التعريض (١)٠

وعلى نمط هذه الآية جاء قوله تعالى" صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴿ البقرة/ ١٣٨، ١٣٩ ﴾ وقوله تعالى: "ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴿ يونس /٢٨ ﴾ وهومن خفى مواقع التعريض كما قال بعض أهل العلم (٢)٠

٥ -الدلالة على كمال الاستغراق :

ومثـــــاله قوله تعالى فى وصف أهل الجنة : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها

---

١) الكشاف ١/ ١٣٧ ومن أسرار المغايرة فى نسق الفاصلة القرآنية ٧٥، ٧٦ ٠

٢) من أسرار المغايرة ٧٦ ، ٧٧ ٠

ناظرة﴿ القيامة /٢٢ ، ٢٣ ﴾ فقد تقدم المجرور على شبه الفعل (ناظرة) ليدل على كمال اللذة فى نظر المؤمنين إلى ربهم واستغراقهم فى أنواره ، ورغبتهم فى عدم التحول إلى سواه وهو ما تشيعه دلالة التخصيص من قصر نظرهم على ربهم (١) ويظهر هذا الغرض باستحضار مقابل أصحاب الجنة "ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴿ القيامة/ ٢٤، ٢٥ ﴾ .

٦- كون المعمول محل الإنكار :

وهو نفى للفعل بطريق أبلغ كما يفهم من كلام الإمام عبد القاهر - رحمه الله - " واعلم أن حال المفعول فيما ذكرنا كحال الفاعل ، أعنى أن تقديم اسم المفعول يقتضى أن يكون الإنكار فى طريق الإحالة والمنع من أن يكون بمثابة أن يوقع به مثل ذلك الفعل ، فإذا قلت : أزيدا تضرب ؟ "كنت قد أنكرت أن يكون " زيدا " بمثابة أن يضرب أو بموضع أن يجترأ عليه ، ويستجاز ذلك فيه ، ومن أجل ذلك قدم (غير)فى قوله تعالى "(قل أغير الله أتخذ وليا)" ﴿ الأنعام/ ١٤ ﴾ وقوله عز وجل : "قال أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ﴿ الأنعام/ ٤٠ ﴾ .

كان له من الحسن والمزية والفخامة ، ما تعلم أنه لا يكون لو أخر فقيل : (قل أأتخذ غير الله وليا " أتدعون غير الله ؟ "وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك "(أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ؟ وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك وأن يكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك ؟ ، ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل (أأتخذ غير الله وليا) وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ، ولا يزيد على ذلك ، وكذلك الحكم فى قوله تعالى: "فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه ﴿ القمر/ ٢٤ ﴾ وذلك لأنهم بنوا كفرهم على أن من كان مثلهم بشرا لم يكن بمثابة أن يتبع ويطاع ،وينتهى إلى ما يأمر ويصدق أنه مبعوث من الله تعالى وأنهم مأمورون

١) انظر من أسرار المغايرة ٧٩، ٨٠ .

بطـــاعــــته (١)٠

٧- تقديم المعمول لرد الخطأ فى التعيين :

وذلك كقولك "(زيدا عرفت) فمخاطبة من اعتقد أنك عرفت إنسانا وأنه غير زيد، وأصاب فى الأول دون الثانى (٢) وعليه فتقديم المفعول على الفعل يفيد قصره عليه غالبا ، وهو أكثري لا كلى وقد يكون تقديم المفعول على فعله لرد الخطأ فى الاشتراك ، كما إذا ظن المخاطب أنك تعرف اثنين كما تعرف غيرهما (المنصور والفاروق مثلا فتقول له الفاروق عرفت أي وحده (٣)

١)دلائل الإعجاز ١٢١ ، ١٢٢

٢) الإيضاح ٢٢٧/١ ٠

٣) انظر بحوث المطابقة لمقتضى الحال د/على البدرى ٤٢٩ ٠

من أغراض تقديم بعض معمولات الفعل على بعض

وهو باب من أبواب البلاغة واسع التصرف ، لطيف المسلك ، وليس الوقوع على أسراره أمرا هينا ، وإنما يحتاج إدراكه إلى طول تفكر وكثرة تدبر ٠

١- تقديم الأهم :

عند تعدد المعمولات يتقدم فى الكلام ما له صلة بغرض الكلام وقد جاءت تراكيب متقاربة فى الذكر الحكيم تخالها تكرارا وليست بذلك تجد قوله تعالى : "لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ﴿النمل / ٦٨﴾ تضعه بجانب قوله تعالى:" لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ﴿المؤمنون/ ٦٣﴾ فقد دل التقديم على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر ، ففى آية النمل الشبهة المستحكمة هى أنهم صاروا هم وآباؤهم ترابا ، فإنكارهم كان متوجها إلى البعث يستظهر ذلك بقراءة قوله تعالى من قبل الآية " وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ، لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل " فجاء التقديم جاريا على غرض السياق ٠

وفى آية المؤمنون (الشبهة المستحكمة الاستمساك بمقالة الآباء ، فجاء بناء الجملة قائما على كشف ذلك وإظهاره (١)

ومما هو مشهور فى هذا الباب قوله تعالى فى (الأنعام) ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴿الأنعام/ ١٥١﴾ وقوله فى الإسراء " ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴿الإسراء /٣١﴾ وقد ذكر العلماء أن ضمير المخاطبين قدم على الأولاد فى آية الأنعام لأن الخطاب فيها للفقراء بقرينة قوله تعالى (من إملاق) فكان الألصق بالغرض أن يبين أنه رازقهم وأولادهم فلذا قدم ٠ وفى آية الإسراء قدم ضمير الأولاد على ضمير المخاطبين فعكس ذلك

---

(١) خصائص التراكيب ٢٢٤ ٠

لأن الخطاب فى الإسراء للأغنياء بقرينة قوله تعالى : (خشية إملاق) وهو يعنى أنهم فى غنى ويخشون الفقر .

وكأن الذكر الحكيم يدلنا على الباب وأن التصرف فى المعمولات بالتقديم والتأخير إنما يأتى استجابة للمقام والسياق (١) ومنه قوله تعالى : وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ﴿ يس/٢٠ ﴾ و "جاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴿ القصص/٢٠ ﴾ فقدم فى سورة (يس) لأن ما قبل الآية فى سوء معاملة أهل القريــة.

٢- تقديم المعمول لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه :

كتقديم الفاعل على المفعول نحو (ضرب زيد عمرا) وتقديم المفعول الأول على المفعول الثانى نحو " أعطيت زيدا درهما (٢)، والحق أن مثل هذا لا يصح أن يعد فى وجوه البلاغة لأن الكلام معه لا يفيد معنى ثانويا يعتد به (٣).

٣- أن يكون فى التأخير إخلال بالمعنى المراد

ومثاله قوله تعالى: "وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه "غافر٢٨ ، فإنه لو أخر قوله : (من آل فرعون) عن (يكتم إيمانه) لتوهم أن (من) متعلقة بيكتم فلم يفهم أن الرجل من آل فرعون ، فقد دفع التقديم اللبس لأن الأصل عند اختلاف النعوت تقديم النعت المفرد ثم الظرف ثم الجملة .

٤- الدلالة على استغراق معنى الفعل للفاعل :

ومثاله قوله تعالى " فأوجس فى نفسه خيفة موسى " وقد ذكروا أن التقديم (فى نفسه) قد جاء مراعاة لتناسب رؤوس الآي ، والحق أن تقديم (فى

---

١)راجع الإيضاح ٣٢١/١ .

٢) بغية الإيضاح ١/ ٢٣٠ .

٣) بغية الإيضاح ١/ ٢٣٠

نفسه) على (خيفة) دل على استغراق الايجاس نفس موسى -عليه السلام- وذلك يكشف عظم ما أتى به السحرة ، وعظمة إيمان سيدنا موسى -عليه السلام- الذى يجتهد فى كتمان التوجس ٠

٥- التقديم للحصر :

مثاله قوله تعالى : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها " ﴿الحج/ ٣٧﴾ وقوله : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ﴿فاطر /٢٨ ﴾ وقوله : وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴿البقرة/ ١٢٤ ﴾ ذكره الزركشى (١) ٠

٦- التقديم لأسبقية المقدم :

مثاله قوله تعالى : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما) ﴿الكهف/ ١، ٢ ﴾ فقد قدم قوله (عوجا)على(قيما) وذلك لأمر ظاهر هو أن قوله (عوجا) يفيد إنه كامل فى ذاته ، وقوله (قيما) يفيد أنه مكمل لغيره ،وكونه كاملا فى ذاته : سابق على كونه مكملا لغيره وهذا التعليل وارد على القول بأن (القيم) معناه القيام على غيره وعلى القول بأن معناه (المستقيم) والذي نطمئن إليه ، هو أن يكون قيما بمعنى قيام على غيره ، لأن سورة الكهف عند أئمة أهل الصفوة تسمى سورة الزجر ٠

٧- التقديم لقلب الإسناد :

ويكون ذلك عند إرادة إظهار معنى الفعل بقوة أبلغ ، مثاله قوله تعالى : فاختلط به نبات الأرض ﴿ يونس /٢٤ ﴾ والأصل اختلط الماء بنبات الأرض ولكن لما أريد إبراز أثر الماء على النبات ، جعل النبات مخالطا له ،منتظرا إياه وكذلك لما أراد زكريا -عليه السلام - إبراز غاية كبره وضعفه حكى الله عنه قوله (وقد بلغت من الكبر عتيا) ﴿مريم /٨﴾ والأصل قد بلغت عتيا من الكبر

---

١) البرهان ٣/٢٧٥، ٢٧٦ ٠

وكذلك لما أريد إظهار غاية الضلال فى اتخاذ الأنداد من دون الله قدم المفعول الثانى على الأول فقال (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) ﴿الجاثية/ ٢٣﴾ والأصل أفرأيت من اتخذ هواه إلها.

وهناك أغراض أخرى كثيره ومازال القرآن الكريم بحاجة ماسة –وسيظل كذلك– إلى دراسة مواقع تقديم بعض المعمولات على بعض وهو طريق يحتاج إلى صبر ومثابرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته أجمعين.

المصادر والمراجع

١. أخبار الظراف والمتماجنين بتحقيق محمد أنيس مهران دار الحكمة سنة١٩٨٧ .

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبى السعود ط دار إحياء التراث العربى بيروت .

٣. أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ط. ريتر سنة ١٩٧٩ ، ط محمود محمد شاكر سنه ١٩٩١ .

٤. أسلوب الالتفات د. نزيه السيد فراج مطبعة دار البيان سنة ١٩٨٣ .

٥. إملاء ما من به الرحمن لأبى البقاء العكبرى بهامش الفتوحات الإلهية عيسى الحلبى .

٦. أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضى البيضاوى ط. مصطفى الحلبى سنة ١٣٨٨ هـ .

٧. الإشارات والتنبيهات محمد بين على الجرجانى تحقيق د. عبد القادر حسين ط . دار نهضة مصر .

٨. الإتقان فى علوم القران لجلال الدين السيوطى ط . مصطفى الحلبى سنة ١٣٩٨ هـ .

٩. الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ط. دار التوجيه اللبنانى بيروت مصوره عن طبعه بولاق .

١٠. الإكسير فى علم التفسير للطوفى تحقيق د. عبد القادر حسين ط. مكتبه الآداب سنه ١٩٧٧ ..

١١. الأسلوب بناؤه وإيحاؤه د. عبد الموجود متولى بهنسى ط. الأمانه سنه ١٩٨٥ .

١٢. الإعجاز البلاغى د. محمد محمد أبو موسى ط. وهبه سنه ١٤٠٥هـ

١٣ . الأطول للعصام المطبعة السلطانية سنه ١٢٨٤ هـ ٠

١٤ . الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ط صبيح سنه ١٣٩٢هـ ٠

١٥ . إعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى تحقيق السيد أحمد صقر ط ٠ دار المعارف ٠

١٦ . بحوث المطابقة لمقتضى الحال د٠ على البدرى ط السعادة ثانيه سنة ١٩٨٤م ٠

١٧ . بسط سامع المسامر فى أخبار مجنون بنى عامر تحقيق عبد المتعال الصعيدى مكتبه القاهرة ٠

١٨ . بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى بهامش الإيضاح ط صبيح سنه ١٣٩٢ هـ ٠

١٩ . بلاغة الالتفات والتغليب د٠ عبد الله عليوه ط ٠ دار الاقم سنه ١٩٩٣م

٢٠ . البحر المحيط لأبى حيان ط ٠ دار الفكر ثانية سنة ١٣٩٨ هـ

٢١ . البرهان فى علوم القرآن للزركشى ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٠ دار التراث ٠

٢٢ . البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د ٠ محمد محمد أبو موسى ط وهبه سنه ١٤٠٨ هـ ٠

٢٣ . البيان والتبيين للجاحظ ط ٠ دار الكتب العلمية ببيروت ٠

٢٤ . تفسير الجلالين بهامش الفتوحات الإلهية ط عيسى الحلبى ٠

٢٥ . تاريخ البلاغة د٠ عبد العزيز عرفه دار الطباعة المحمدية سنه ١٩٧٨ م ٠

٢٦ . التبيان فى شرح الديوان لأبى البقاء العكبرى بهامش ديوان المتنبى ط مصطفى الحلبى سنه ١٩٧١ ٠

٢٧ . التحرير والتنوير للعلامة الطاهر بن عاشور ط الدار التونسية سنه ١٩٨٤م

٢٨. التفسير االبيانى د٠ عائشة عبد الرحمن الجزء الأول ط ٠دار المعارف سنه ١٩٧٧ ٠
٢٩. التفسير ورجاله للعلامة محمد الفاضل بن محمد الطاهر بن عاشور ط المجمع البحوث الإسلامية سنه ١٣٩٠هـ ٠
٣٠. التمثيل والمحاضرة لأبى منصور الثعالبى ط عيسى سنه ١٩٦١ تحقيق عبد الفتاح الحلو ٠
٣١. ثلاث رسائل فى إعجاز القران ط ٠ دار المعارف رابعه بتحقيق د محمد زغلول سلام ، د٠ محمد خلف الله أحمد ٠
٣٢. الجامع الصحيح للترمذى ط٠ دار الكتب العلمية بيروت بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ٠
٣٣. الجامع لأحكام القران للقرطبى ط ٠دار الغد العربى ثالثه ٠
٣٤. حوليه كليه اللغة العربية بالقاهرة العدد الثامن ١٤٣ ٠
٣٥. خصائص التراكيب د٠ محمد محمد أبو موسى ط وهبه سنه ١٩٨٠ ٠
٣٦. الخصائص لابن جنى بتحقيق الشيخ محمد على النجار ط الهيئة المصرية العام للكتاب ثالثه سنه ١٩٨٧م ٠
٣٧. دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجانى تحقيق محمود شاكر الخانجى
٣٨. ديوان أبى تمام بتحقيق محمد عبده عزام ط دار المعارف ثالثه ٠
٣٩. ديوان الأخطل بتحقيق مهدى محمد ناصر الدين ط دار الكتب العلمية ط سنة ١٩٨٦ ٠
٤٠. ديوان الأعشى الكبير بتحقيق مهدى محمد ناصر الدين ط ٠دار الباز مجلة المكرمة سنه ١٩٨٧م ٠
٤١. ديوان بشار بن برد بتحقيق العلامة محمد الطاهر بن عاشور ٠
٤٢. ديوان ابن زيدون ط مصطفى الحلبى سنه ١٩٦٥ ٠

٤٣. ديوان ابن المعتز ط دار المعارف .

٤٤. ديوان البحترى بتحقيق حسن كامل الصيرفى ط دار المعارف ثالثه .

٤٥. ديوان جميل بثينة المكتبة الثقافية- بيروت .

٤٦. ديوان حسان بن ثابت تحقيق د . سيد حنفى حسين ط . دار المعارف

٤٧. ديوان حاتم الطائى ط . دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٦ .

٤٨. ديوان الخنساء بتحقيق كرم البستانى بيروت ١٩٨٢ .

٤٩. ديوان شوقى ط . دار الكتب العلمية بيروت .

٥٠. ديوان طرفه بن العبد المكتبة الثقافية بيروت .

٥١. ديوان عمر بن أبى ربيعه ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنه ١٩٧٨ .

٥٢. ديوان امرئ القيس ط دار المعارف تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط خامسه .

٥٣. ديوان المتنبى ط مصطفى الحلبى سنه ١٩٧١ .

٥٤. سر الفصاحه لابن سنان الخفاجى ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٢هـ .

٥٥. سنن أبى داود ط .دار الحديث سنه ١٩٨٨ م .

٥٦. سنن النسائى ط . دار الريان سنه ١٩٨٧ .

٥٧. سنن ابن ماجه بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ط الريان .

٥٨. شرح الأشمونى بحاشية الصبان ط عيسى الحلبى .

٥٩. شروح التلخيص ط السعادة بمصر سنه ١٣٤٢ .

٦٠. الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق الشيخ احمد شاكر ط دار المعارف .

٦١. شرح النووى على صحيح مسلم ط . دار أبى حيان ١٩٩٥م .

٦٢. صحيح الإمام مسلم بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ط دار الحديث سنه ١٩٩١م .

٦٣ . صحيح الإمام البخارى (فتح البارى) ط الريان سنه ١٤٠٧هـ .
٦٤ . صور من البديع الأستاذ على الجندى .
٦٥ . طبقات فحول الشعراء بتحقيق محمود محمد شاكر ط الخانجى .
٦٦ . الطراز المتضمن علوم البلاغة وحقائق الإعجاز للقاضى العلوى ط . دار الكتب العلمية سنه ١٣٣٢ هـ .
٦٧ . العقد الفريد لابن عبد ربه بتحقيق احمد أمين وآخرين ط . لجنة التأليف والترجمه والنشر .
٦٨ . غريب الحديث للإمام الخطابي تحقيق د.عبد الكريم الغرباوى دمشق) سنه ١٩٨٢ .
٦٩ . الغرابة فى الحديث النبوى د. عبد الفتاح البركاوى مطبعة حسان سنه ١٩٨٧ .
٧٠ . فتح القدير الجامع بين فنى الدراية والرواية من علم التفسير للإمام الشوكانى ط . دار المعرفة - بيروت .
٧١ . فحوله الشعراء للأصمعى تحقيق د. محمد خفاجى وآخر ط المطبعة المنيريه سنه ١٩٥٣ .
٧٢ . فقه اللغه للثعالبى بيروت .
٧٣ . فلسفه البلاغة بين التقنيه والتطور د. رجاء عيد ط منشأه المعارف بالإسكندريه .
٧٤ . فن الأسجاع الأستاذ على الجندى .
٧٥ . الفتوحات الإلهية للشيخ الجمل ط عيسى الحلبى .
٧٦ . الفصول والغايات لأبى العلاء المعرى ط . دار الآفاق الجديدة .
٧٧ . الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبى الحديد بتحقيق د. أحمد الحوفى ، د. بدوى طبانة ط دار نهضة مصر .

٧٨ . الفوائد لابن القيم ط الريان سنه ١٩٨٧ ٠

٧٩ . الكتاب لسيبويه تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ط دار الكتب العلمية بيروت ط ثالثه سنه ١٩٨٨م ٠

٨٠ . الكشاف للإمام الزمخشرى ط الحلبى سنه ١٣٩٢ ٠

٨١ . مجاز القران لأبى عبيده معمر بن المثنى تحقيق محمد فؤاد سزكين الخانجى سنه ١٩٥٤ ٠

٨٢ . معانى التراكيب د٠ عبد الفتاح لاشين المطبعة الإسلامية الحديثة سنة ١٩٨٣ ٠

٨٣ . معانى القرآن للفراء بتحقيق أحمد يوسف نجاتى ومحمد النجار دار الكتب المصرية سنه ١٩٥٥ ٠

٨٤ . مفاتيح الغيب للفخر الرازى ط ٠ دار الغد العربى ٠

٨٥ . من أسرار المغايرة فى نسق الفاصله القرآنيه د ٠ محمد الأمين الخضرى مستلة من مجلة كليه اللغه العربية بالقاهرة سنه ١٩٩٤م ٠

٨٦ . من أسرار التركيب البلاغى للمرحوم د ٠ السيد عبد الفتاح حجاب ط المكتبة التوفيقيه سنه ١٩٧٧ ٠

٨٧ . من بلاغه القرآن د٠ أحمد بدوى ط ٠ دار نهضة مصر ٠

٨٨ . من بلاغه النظم العربى د٠ عبد العزيز عرفه ط ٠دار الطباعة المحمدية سنه ١٩٨١ ٠

٨٩ . من سمات التراكيب د٠ عبد الستار زموط مطبعة الحسين الإسلامية سنة ١٩٩٢ ٠

٩٠ . المثل السائر فى أدب الكتاب والشاعر لابن الأثير تحقيق د٠ أحمد الحوفى د٠ بدوى طبانة ط دار نهضة مصر ٠

٩١. المجاز فى اللغه والقران الكريم بين الإجازة والمنع د٠ عبد العظيم المطعنى ط وهبه ٠

٩٢. المزهر فى علوم اللغه وأنواعها لجلال الدين السيوطى تحقيق محمد جاد المولى وآخرين ط بيروت سنه ١٩٨٦ ٠

٩٣. المطول لسعد الدين التفتازانى ط تركيا ٠

٩٤. المعانى فى ضوء أساليب القران د٠ عبد الفتاح لاشين ط ٠دار المعارف٠

٩٥. المفتاح فى علوم البلاغة للسكاكى تحقيق نعيم زرزور ط ٠ دار الكتب العلمية سنه ١٩٨٣ ٠

٩٦. الموازنه بين أبى تمام والبحترى للآمدى تحقيق السيد احمد صقر ط ٠ دار المعارف رابعه ٠

٩٧. نظم الدر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ط دار الكتب العلمية بيروت سنه ١٩٩٥ ٠

٩٨. نقائض جرير و الأخطل تأليف أبى تمام ط ٠دار الكتب العلمية بيروت سنه ١٩٢٢ ٠

٩٩. نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز٠ ت / أحمد حجازى السقا المكتب الثقافى سنه ١٩٨٩م ٠

١٠٠. الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بهامش الكشاف ط مصطفى الحلبى سنه ١٣٩٢هـ ٠

فهرس الموضوعات

- المقدمة .... (٣:١)
- تمهيد .... (١٦:٤)
- الفصاحة والبلاغة .... (٣٥:١٧)
(معنى الفصاحة - فصاحة الكلمة - تنافر الحروف - الغرابة - مخالفه القياس - فصاحة الكلام - ضعف التأليف - تنافر الكلمات - التعقيد - فصاحة المتكلم - بلاغه الكلام - مراتب البلاغة - بلاغه المتكلم)
- علم المعانى
- الفصل الأول (أحوال الإسناد الخبرى) .... (٧٧:٣٦)
-(أغراض الخبر - أضرب الخبر - إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر) .... (٤٩:٣٦)
- المجاز العقلى .... (٧٧:٥٠)
(الحقيقة العقلية -أضرب الحقيقة - المجاز العقلى عند الشيخ عبد القاهر والخطيب- بين التعريفين - المجاز العقلى فى النسب الإنشائية والمنفية - أسماء المجاز العقلى- الفاعلية - المفعوليه - المصدرية- الزمانيه - المكانية - السببية - علاقات أخرى - إسناد الفعل إلى الجنس كله وهو فى الحقيقة مسند إلى بعضه - الآليه - إسناد الفعل إلى ماله مزيد اختصاص باعتبار طرفيه - استلزام المجاز العقلى الحقيقة- موقف السكاكى من المجاز العقلى - وقوعه فى القرآن الكريم)

- الفصل الثانى (أحوال المسند إليه) . . . . (٧٨:١٦٠)

- حذف المسند إليه . . . . (٧٨:٩٠)

(القيمة البلاغية للحذف - شروط حذف المسند إليه - ضيق المقام - كون المسند إليه لا يصلح إلا للمسند- إيهام صون المسند إليه عن اللسان - صون المسند إليه عن اللسان احتقارا له - حذف المسند إليه لإخفائه عن المخاطبين - تأتي الإنكار عند الحاجة إليه - التعجيل بالمسرة أو المساءه)

- ذكر المسند إليه . . . . (٩١:٩٧)

(أنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه - التقرير والإيضاح - التعريض بغباوة السامع - الاستلذاذ بذكر المسند إليه - الرغبه فى إطاله الكلام وبسطه - يذكر المسند إليه لقصد تعظيمه - يذكر لقصد إهانته -يذكر للتسجيل على السامع- يذكر المسند إليه حتى يتعين الخبر له)

- تعريف المسند إليه . . . . (٨٩ :١١٨)

(تعريفه بالضمير - تعريفه بالعلمية وأغراضه - إحضار المسند إليه بعينه فى ذهن السامع -تعظيم المسند إليه - تحقير المسند إليه - تعريفه باسم الإشارة وأغراضه - قصدتمييزه أكمل تمييز - قصد تعظيمه - قصد تحقيره - التعريض بغباوة السامع - قصد تنزيل الغائب منزلة الحاضر - تعريفه بالموصولية وأغراضه- أن يكون فى مدلول الصلة تقرير للغرض المسوق له الكلام - التفخيم والتهويل - استهجان التصريح بالاسم الدال على المسند إليه - تنبيه المخاطب على خطا وقع منه أو من غيره - الإيماء إلى وجه بناء الخبر - التشويق إلى الخبر - التعرف بال - التعرف بلام الجنس

والحقيقة - لام العهد الذكرى الصريحى - لام العهد الذكرى الكنائى - لام العهد الذكرى العلمى - لام العهد الذهنى التى يراد بها فرد من أفراد الحقيقة - لام الاستغراق - تعريفه بالإضافه وأغراضه - أن تكون هى الطريق الوحيد للتعيين عند المتكلم - الإغناء عن التفصيل المتعذر أو المتعسر - قصد التعظيم - قصد التحقير - قصد الحث والاستعطاف)

- تنكير المسند إليه .... (١١٩:١٢٣)

(أن يكون المقصود الحكم على فرد غير معين - تخصيص نوع من أنواع جنس المنكر - قصد التعظيم - قصد التحقير - قصد التنكير - قصد التقليل - قد يكون التنكير لجهل المخاطب بجهات التعرف - قد يمنع من التعرف مانع)

- تقسيم المسند إليه .... (١٢٤:١٢٩)

(التقديم عند الشيخ عبد القاهر - تقديم المسند إليه لكونه الأهم - تقديم المسند اليه لتمكن الخبر فى ذهن السامع - التعجيل بالمسرة أو المساءه - تقديم المسند إليه لإظهار تعظيمه - يقدم المسند إليه لإظهار تحقيره - تقديم المسند إليه إيماء إلى أنه لا يغيب عن الخاطر)

- تقديم المسند إليه على خبره الفعلى .... (١٣٠:١٣٤)

(تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى لإفاده التخصيص - تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى لإفاده تقويه الحكم - فوائد هذا الأسلوب - مقامات هذا الأسلوب - مقام الإنكار ٠ مقام الشك - حسنه فيما لا يلائم العقل - المدح والفخر)

- تقديم مثل وغير .... (١٣٥:١٣٨)
- عموم السلب وسلب العموم .... (١٣٩:١٤٠)
- أغراض تأخير المسند إليه .... (١٤١)
- وضع المضمر موضوع المظهر وعكسه .... (١٤٢:١٥٠)

(وضع المضمر موضع المظهر - وضع المظهر موضع المضمر - أسرار مجئ المسند إليه اسم إشاره على خلاف الظاهر - كمال العناية بالمسند إليه لاختصاصه بحكم بديع - ادعاء أن الأمر قد كمل ظهوره حتى صار كأنه محسوس مشاهد - أسرار مجئ المظهر غير اسم إشاره - قصد التعظيم - قصد الاهانه والتحقير - الاستلذاذ بذكره - إزاله اللبس - أن يكون القصد تربية المهابه وإدخال الروع فى ضمير السامع - قصد تقويه داعيه المأمور أو حمل المأمور على الامتثال - قصد العموم - الإشارة إلى عدم دخول الجملة فى حكم الأولى - إظهار الخشوع والخضوع)

- الالتفات .... (١٥١:١٥٧)

(مذهب الجمهور-مذهب السكاكى- القيمة البلاغية للالتفات - الالتفات من أي علوم البلاغة - صور الالتفات- الالتفات من التكلم إلى الخطاب - الالتفات من التكلم إلى الغيبة - الالتفات من الخطاب إلى التكلم - الالتفات من الخطاب إلى الغيبه - الالتفات من الغيبة إلى التكلم - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب)

- أسلوب الحكيم .... (١٥٨:١٦٠)
- الفصل الثالث (أحوال المسند) .... (١٦١:٢١٩)
- حذفه .... (١٦١:١٨١)

المقاصد العامة لحذف المسند - الإيجاز - إثارة الانتباه -
الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر - شروط الحذف -
مقاصد الحذف - ضيق المقام - حذف المسند لقصد تعظيمه -
حذف المسند ثقة باقتدار المخاطب ووقوة لحه - حذف
المسند اتباعا للاستعمال الوارد - حذف المسند لتكثير الفائدة)

- ذكر المسند و اسراره .... (١٨١:١٨٦)
(كون ذكر المسند هو الأصل - زيادة الإيضاح والتقرير - الاحتياط
لضعف التعويل على القرينة - الاستلذاذ)

- مجئ المسند فعلا أو اسما .... (١٨٦:١٩٠)
(مجئ المسند فعلا - إفادة تقييد الحدث الدال عليه الفعل بأحد
الازمنه الثلاثة - مجئ المسند اسما)

- تعريف المسند .... (١٩٠:٢٠١)
إرادة العهد - إفادة القصر الادعائى على سبيل المبالغة - إفادة
القصر الحقيقى التحقيقى - إفادة القصر الإضافي - تقرير المسند
للمسند إليه - الإيماء إلى بلوغ المسند إليه مبلغ الكمال فى الصفة -
تعريفه بالاضافه - قصد تعظيم المسند إليه - قصد تحقير المسند
إليه)

- تخصيص المسند بالاضافه أو الوصف .... (٢٠١:٢٠٣)

- تنكير المسند وأغراضه .... (٢٠٣:٢٠٦)
(عدم إرادة القصر أو العهد - التنكير لإرادة النوع - قصد التعظيم
- قصد التهويل - الاستبعاد - قصد التحقير)

- تقديم المسند وأغراضه .... (٢٠٦:٢١١)

(إفادة القصر- التنبيه من أول الأمر أنه خبر لا صفه- التشويق إلى ذكر المسند إليه - قصد التفاؤل - إظهار الضجر والتألم)

- تقييد المسند بالشرط .... (٢١٩:٢١١)

(دلاله إن وإذا)- استعمال (إن) فى الشرط المقطوع به - إيحاءات بلاغيه لهذا التعبير - قصد إظهار التناصف فى الكلام - قصد التوبيخ والتجهيل فى ارتكاب مدلول الشرط - قصد تنبيه المخاطب وتهييجه - قصد التغليب - قصد إجراء الكلام على حسب حال المخاطب - مجئ فعل الشرط ماضيا وأغراضه - إيهام جعل غير الحاصل كالحاصل - إظهار رغبه المتكلم فى وقوع الشرط - قصد التعريض - استعمال (إذا)فى موضع (إن) - تقييد الفعل بـ(لو) لو تأتى على خمسه أوجه - من الأسرار البلاغيه لهذا الأسلوب - قصد استمرار الفعل فيما مضى وقتا فوقتا - تنزيل المعنى الاستقبالى منزله الماضى لصدوره عمن لاخلاف فى إخباره)

- الفصل الرابع (أحوال متعلقات الفعل) .... (٢٦٣:٢٢٠)

- حذف المفعول وأغراضه .... (٢٤٩:٢٢١)

(الضرب الأول - تنبيه - الضرب الثانى وأغراضه - البيان بعد الإبهام - دفع توهم إراده غير المراد ابتداء - حذف المفعول لإراده التعميم والامتناع عن أن يقصر السامع على ما يذكره معه دون غيره مع الاختصار - حذف المفعول لاستهجان ذكره - حذف المفعول للاحتقار - حذف المفعول لمجرد الاختصار - ما ذكره بعض البلاغيين من أن الحذف قد يكون لقصد مراعاة الفاصله)

- التقديم فى متعلقات الفعل .... (٢٥٠:٢٥٩)

(من أغراض تقديم المفعول على فعله - إفاده التخصيص - زيادة التقريع - التشديد فى الوعيد - التقديم للترغيب - التقديم التعريض - الدلاله على كمال الاستغراق - كون المعمول محل الإنكار تقديم المعمول لرد الخطا فى التعين)

- من أغراض تقديم بعض المعمولات على بعض .... (٢٦٠:٢٦٣)

(تقديم الأهم - تقديم المعمول لانه الأصل ولامقتضى للعدول عنه - أن يكون فى التاخير إخلال بالمعنى المراد - الدلاله على استغراق معنى الفعل للفاعل - التقديم للحصر - التقديم لقلب الاسناد)

- المصادر والمراجع .... (٢٦٤: ٢٧٠)

- فهرس الموضوعات .... (٢٧١: ٢٧٧)

